The Ohio State University
3 2435 00347 5555
PR6045E436B421571930Z 001
Gharam fi al-badiyah /

THE OHIO STATE UNIVERSITY BOOK DEPOSITORY
D AISLE SECT SHLF SIDE POS ITEM C
8 04 22 22 8 15 001 6

OHIO STATE
UNIVERSITY
LIBRARIES

AR
W 3460

Dec

Love in the Desert.
by
Arthur Edward Pearse Brome Weigall

غرام فى البادية

W8

تأليف

المستر ارثر ويجل

المفتش السابق بمصلحة الآثار المصرية

نشرت تباعا بجريدة الاهرام

تطلب من المكتبة التجارية باول شارع محمد على بمصر

لصاحبها مصطفى محمد

مطبعة المكتبة التجارية بشارع عابدين بحارة فايد نمرة ٣

AR
W34Lo

PR6045
E436B42157
1930z

الفصل الاول

على فراش المرض

جلس جيمس شمبرتون من أسرة تندرنج وست ، أو كما انتحل لنفسه اسم جان ايستون ، على مقعد خشبي وسط الغرفة الوحيدة التي تمكن السكنى بها فى منزل مهجور قائم عند طرف الصحراء على مسافة ما خلف بلدة وطنيـة تدعى « كوم السلطان » . وكان جيمس يشعر بضعف فى جسمه طول يومه فلما أخذت شمس شهر يونيو المحرقة تميل نحو مرآة النيل اللامعة اشتد به هذا الضعف وتحول الى مرض جلي ظاهر

وكان جيمس يعرف ما أصابه تماماً فدار بعينيه السوداوين غضبا حول الغرفة القذرة التي جلس بهـا كما يدور المجرم بعينيه حول المكان الذي سيعدم فيـه . وكان فى اليوم السابق قد وصل الى المنزل قادما من الصحراء بعد رحلة شاقة استغرقت اربعة أيام على ظهور الابل ، اجتاز فيها الصحراء التى تفصل بين مناجم الذهب حيث كان يشتغل و بين أقرب منعرج للنيل . وكان وباء الكوليرا قد تفشى بين العمال في المناجم فغادرها جميع البيض ولم يبق غيره هناك فاضطر الى البقاء الى أن تنتهي التدابير اللازمة لتعطيل الاعمال اثناء فصل الصيف فلما تمت وذهب هذا الوباء على زعمه ، ركب مع زمرة من العمال الوطنيين الابل قاصدين وادى النيل . ولـكن اتفق أن أصيب خادمه الخاص بهـذا الوباء القتال اثناء الطريق ومات بين ذراعيـه بحالة مؤثرة فى ظل احدى الصخور القائمة على جانب الطريق

وكانت بلدة « كوم السلطان » الصغيرة عبارة عن مجموعة من المنازل المبنية من الطوب الاخضر ، تحيط بمسجد دهنت جدرانه بالجير الابيض. وكانت حرارة الشمس المحرقة شديدة بحيث كان الانسان يتوقع أن تشتعل النيران فجأة بالمكان وتلتهمه عن آخره . ولم يكن بهذه القرية أحد من الاوربيين الا بدالا يونانيا يقرض الاموال للاهالى بارباح فاحشة ولكن توجد على الضفة الاخري للنيل قرية أخرى تسمى « العايشة » بها مصنع صغير للسكر ، يديره رجل من بلاد الغال ضخم الجسم ، كث اللحية ، يدعى المستر مورجان . وكان على ما يظن فى مكتبه الان لان جرس الانصراف قد دق منذ مدة وجيزة

ومع ان بلدة « كوم السلطان » تبعد عن القاهرة سمائة ميل فانها ليست فى معزل عن البلدان الاخرى كما يؤخذ من الحالة الفطرية التى عليها اذ كانت تبعد نحو خمسة أميال عن محطة يقف فيها قطار السكة الضيقة يومياً فى طريقه الى الاقصر

لعن جان نفسه لانه لم يفكر فى ركوب هذا القطار اثناء سفره فى الصباح ولا عجب فقد أدرك الان انه عرضة لكارثة عظيمة تهدده . على أنه فضل البقاء حيث كان ، وحيدا في هذا المنزل الحقير المنعزل بعيدا عن البلدة مخافة أن ينتشر المرض بين أهلها ، وصمم على الانتظار ريثما يصل اليه رد من موظف مكتب الصحة فى الاقصر وكان قد أرسل اليه تلغرافاً أبلغه فيه ان رجاله مصابون وانه لم يسمح لهم بالانصراف حتى يتلقي التعليمات اللازمة . نعم قلما سلك جان طريق الصواب ولكنه شعر في هذه المرة عند ما رأى الخطر يتهدد الارواح ، ان حياة الفرد يجب أن تكون ثانوية بالنسبة الى مصالح المجموع ولو ان مثل هذه الفكرة

لا تتفق مع طبيعته المستقلة

نظر جان الى غرفته وقال في نفسه ان هذا مكان منعزل فيه يستطيع الانسان الدفاع عن نفسه !

وكان في الغرفة بابان احدهما موصد بمزلاج وقضبان من حديد منذ مدة لا يعلمها الا الله ، والآخر يحدث أزيزاً كلما داعبته الرياح الساخنة التي كانت تهب من الدهليز الخارجي . وكانت هناك نافذة منخفضة على مقربة من ارض الغرفة ، زجاجها مكسور ، تتدلى من درفتها الخارجية قطعة من القماش (فوطة) وتتصل بالدرفة الداخلية . وكانت تستخدم في الصباح كستارة تحجب الشمس التي كانت ترسل أشعتها الآن من خلال شقوق الباب المقابل على شكل سهام مشبعة بالغبار

وكان جان قد أبلغ خادمه انه يشعر بتعب شديد وانه لا يريد أن يقابله أحد حتى الصباح . ثم أمره أن يحجز الرجال بعيداً في الصحراء بين الصخور ويمنعهم من دخول البلدة

أما رغبته في أن يكون في معزل عن الناس فترجع اولا الى اهتمامه بسلامة غيره وثانياً الى تلك الغريزة الطبيعية التي تدفع الانسان وهو مريض الى الانزواء والاختفاء عن اصدقائه بدلا من الاختلاط بهم وهكذا التجأ الى هذه الغرفة الموحشة المهجورة مثل حيوان مريض حيث تأهب للنضال وهو مرتاح النفس لبعده عن أعين الناس

سار جان الى الباب فأغلقه بالمزلاج ثم الى النافذة فجذب درفتيها ولكن خشبها كان مهشماً ثم أخرج من صندوق عقاقيره زجاجة من الكونياك وأخرى من حامض الفنيك وقارورة صغيرة من الكلورودين ومقياساً للحرارة . وكانت في زاوية الغرفة آنية من الصفيح ملأى بالماء

فأفرغ زجاجة حامض الفنيك فيها ثم جاء بقطعة القماش التي كانت مدلاة في النافذة فغمسها في الماء ثم نشرها مكانها في النافذة

شعر جان بالنوبات الاولى من مرضه الخبيث فقام وتناول جرعة كبيرة من الكونياك ثم نزع معظم ثيابه ولفها على شكل حزمة القاها في زاوية الغرفة واخرج سدادة قارورة الكلوروديين واستلقى على ظهره فوق فراشه . وكان قلبه يدق بسرعة فاضطرب قليلاً وخاف . وكان طول حياته يبتسم في وجه الموت كما يبتسم في وجه صديق ويناديه ولكنه اضطرب الآن عند ما وجد نفسه معه وجهاً لوجه

حاول جان أن يضحك « ويطقطق » اصابعه ثم لم يلبث أن قام من فراشه ، بتأثير الخمر على ما يظهر ، وذهب الى الغرفة الخارجية ثم عاد يحمل قيثارته التي كانت تسليه في كثير من الأوقات العصيبة . وكان قد حفظ منذ بضعة اعوام وهو في جنوب افريقيا بعض أبيات من نظم الشاعر بروكتر عن الموت ، فجلس على حافة فراشه وهو على حاله هذه رث الهيئة ، وحشي المنظر ، يتدلى شعره الاسود فوق جبينه ، ثم اخذ يلعب بأنامله على اوتار قيثارته و يغني تلك الابيات التي تعلمها قائلاً :

« الموت ملك قديم نادر المثال »

« يجلس حيث لا تستطيع شمس أن تنير »

« وقد رفع يداً صفراء موحشة »

« وصب خمرته السوداء الحالكة »

« فمرحباً بخمرته السوداء ! »

« جاءته عذارى زرافات »

« نسبت اعينهن جمال النور »
« وأرامل مثقلات بالاحزان »
« ليشربن من خمرته السوداء الحالكة »
« فمرحبا بخمرته السوداء ! »

وكانت حرارة الغرفة شديدة فمسح جبينه بمنديله وتأوه بصوت عال ثم عاد الى أغنيته فقال

« جاء الجميع الى الملك القديم النادر المثال »
« فضحك حتى أدمعت عيناه ماء أجاجا »
« ثم مد اليهم يده الصفراء »
« وعاهدهم بخمرة الموت السوداء »
« فمرحبا بخمرته السوداء ! »

غربت الشمس وطلعت النجوم . أخيرا تغلب عليه المرض فالقى قيثارته جانبا ثم سار يترنح في أرض الغرفة فأضاء شمعة وضعها فى زجاجة فارغة ثم عاد فرقد ثانية وهو يلهث ألما

دخلت المعركة اذ ذاك فى دور جدى وحمى وطيس القتال فلم يحاول الضحك مرة أخرى بل أخذ يحدق النظر ، وهو ملقى على ظهره كأنه مشدود على مقصلة ، الى السقف المصنوع من الغاب وأقسم أن لا يدع أحدا يقترب منه ما دام هناك خطر يتهدده . وقد يكون فى رأيه هذا تشبث ولكن هذه طبيعته فقد كان شعاره دائما

« عش ودع غيرك يعش »

خطر بباله أن يكتب وصيته أو تعليمات عامة مخافة أن يتغلب عليه « الملك القديم النادر المثال » ولكنه بعد امعان النظر قليلا نبذ هذه الفكرة لسبب واحد وهو انه لا يملك شيئاً يذكر ولا أقارب يمكن أن يوجه اليهم رسالته وفوق ذلك لم يشأ مضايقة نفسه في الوقت الذي تخف فيه الآلام

وكان لجان عم يدعى ستيفن يملك ضيعة صغيرة في « افرسفيلد » وهي قرية انكليزية صغيرة في جوار اكسفورد حيث عاشت اسرة « تندرنج - وست » اجيالا عديدة ولكنه لم ير عمه هذا كثيرا اثناء طفولته ولم يقف على شيء مطلقا من انبائه في خلال السنوات العشر الاخيرة لانه كان يتجول في انحاء العالم

وكان لعمه هذا ولدان الاول واسمه مارك ، يوجد في الهند على ما يعتقد والثاني ويدعى جيمس مثله يعيش في انكلترا مع أبيه . وهؤلاء هم أقاربه الوحيدون . أما جان فكان وحيد والديه اللذين توفيا منذ عامين أو ثلاثة وتركا له مئات من الجنيهات أضاعها بسرعة

وعلى ذلك لم يكن هناك من يهتم به كثيرا اذا قضى نحبه . وقد شعر جان عند هذه الفكرة بشيء من الارتياح . وفوق ذلك كان معروفاً بين اصدقائه القليلين في مصر باسم « جان ايستون » لانه رأي من الملائم بعد ان وصل الى حالة فقر مدقع أن يخفي حقيقة شخصيته مخافة أن يكاتب بعض المتطفلين أهله

وهكذا كان يتجول من مكان الى مكان باسم « جان ايستون » وبهذا الاسم حصل على العمل الذي يشتغل به الآن في مناجم الذهب

فاذا قضى نحبه فان مصير جيمس تندريج وست يظل سرا مكتوما وموضوع أقوال متضاربة

وفي الواقع كان يعتبر نفسه منذ غادر انكلترا مثل طائر شارد لامقر له ويقول في نفسه : من يهتم بطائر ميت ومن يدري اين تموت الطيور ؟

دار جان بعينيه في جوانب سجنه ثم وضع يده على جبينه الملتهب وقال مخاطبا نفسه

ـ يا لك من طائر بائس ! لقد أردت أن تحلق بأجنحتك القوية في الجو وتصعد الى الشمس والكواكب ولكن الرياح كانت معارضة لك دائما أو كانت العوامل الجذابة في الاجواء المنخفضة غرارة . والان قد هبطت الى الارض ومن المحتمل ان لا تقوم بتلك الحملة العظيمة على الكواكب وهي الحملة التي طالما عللت بها النفس

اخيرا نبذ جان هذه الافكار الكاذبة جانبا وقال انه لا يموت وان الحياة والآمال الغرارة التي لم تنل ، لا تزال امام عينيه

أخذت نوبة بعد أخري تنقض عليه وتمزق جسمه تمزيقاً ثم تتركه وجسمه ينتفض فوق فراشه . وكان جان يخالط الخمر بالكلورودين بيد مرتعدة دون أن يكلف نفسه مشقة كبيرة لمعرفة مقدار الجرعة . وكانت الشمعة تنير على مقربة منه فوق أرض الغرفة فتأتي حشرات غريبة فتطن حولها ثم تسقط على ظهورها

فتح جان عينيه وأخذ يراقب الحشرات الصغيرة التي سقطت حول الشمعة وهو راقد على جنبه . ثانياً ركبتيه . قابضا بيديه على حافة سريره وكانت الآلام التي تتحملها هذه الحشرات لا تقل بلا ريب عن آلامه ولكن لما كانت من مرتبة المخلوقات الضعيفة فانها ليست ذات أهمية وكذا

لم يكن هو ايضا ذا اهمية فقد كان من الجنس المتوسط والطراز الاسمر الذي يري عادة في الجزء الجنوبي الغربي من انكلترا حيث نبتت أسرته

أخيرا نام جان وقتا قصيرا ولكن احلامه كانت مخيفة تمثلت له فيها وجوه كثيرة كانت تقترب منه ثم تزاد شيئا فشيئا الى ان تكبر ثم تأخذ في الانكماش والابتعاد تدريجيا كذلك الى مسافة لا نهاية لها . وهكذا أخذت تتمثل له في أحلامه أشياء غريبة حتى دار رأسه

على هذه الحال انقضى الليل الذى خيل اليه أن لا نهاية له فكان يقضى بضع دقائق في النوم وأخرى فى التصورات المخيفة المرعبة والالام المبرحة ثم في الترنح في أرض الغرفة وشرب جرعة من الخمر ثم في السقوط على الفراش والنوم اعياء مرة أخرى . على انه كان يعلم انه يزداد ضعفا شيئا فشيئا

أخيرا انطفأت الشمعة وخيمت الظلمة على آلامه واذ ذاك خطر بباله انه لا يلبث أن يعجز عن تناول الدواء وشعر مع هذه الفكرة بالرغبة الطبيعية فى مساعدة الغير رهى الرغبة التى لا يستطيع الاستخفاف بها قلب أضعفته الالام

وكان الشطر الاكبر من الليل قد مضى فناضل من تلك اللحظة الى شروق الشمس مناضلة الابطال وقاتل فى معركة مزدوجة مروعة مع « الموت » من جهة ومع « النفس » من جهة أخري

رأي جان انه يستطيع الزحف من فراشه الى الصحراء الصامتة فى الخارج وانه يحتمل أن يسمع رجاله صياحه اذا استغاث بهم . ولكن ماذا تكون النتيجة ؟ انهم يذهبون الى القرية حاملين جراثيم مرضهم معهم ثم يستأجرون زورقا يعبرون به النيل و يعودون معهم بالمستر

موورجان الذى له المام بشىء من المبادىء الطبية . ولكن للمستر موورجان زوجة وطفل يعولهما في بلاد الغال وقد قص عليه قصتهما ذات ليلة وهما جالسان فى الحديقة الواقعة على شاطىء النيل قبيل سفر العمال الى المناجم فى الصحراء — وعلى ذلك بقى جان يكافح مرضه وحيدا الى أن أشرقت الشمس في النهاية وأرسلت أشعتها الى الغرفة من فوق « الفوطة » التي كان يلعب بها الهواء في النافذة

جاءت الساعة التاسعة فاشتدت حرارة الشمس وكثر الذباب فزاد الطين بلة واذ ذاك تملك القنوط قلب المريض واستولى عليه اليأس وكان قد ناضل الى تلك الساعة بشهامة ونبل ولكن خارت قواه الان بعد أن تحمل الصدمة تلو الصدمة فلم يعد فى قدرته الزحف ثانية الى فراشه فبقي في مكانه على الارض بجانب زجاجة الخمر التي كان قد شرب اخر ما بها تقريبا وهناك داهمته نوبة شديدة فأغمى عليه

ذهبت رغبته فى الحياة مع ضياع الامل بها فكان كلما أفاق توسل الله أن يهبه نعمة الاغماء وعدم الشعور وذكر قول حنه بولين وهي فراش موتها اذ قالت : « أيها الموت هبنى نعمة النوم وامنحنى الراحة والسلام »

أخذ جان يردد هذا القول في نفسه لا بلسانه لانه كان لا يستطيع الكلام بل هناك فى اعماق قلبه الى أن هبت ريح قوية فنزعت الفوطة من النافذة ودفعت درفة النافذة الى الخارج فصبت الشمس اذ ذاك أشعتها على الجسم الابيض الملقى في أرض الغرفة

فتح جان عينيه الحمراوين الزائغتين وحدق النظر الى الصخور وأكوام الرمال فى الخارج فرأى بعض عصافير صغيرة فى ظل جدار

مهدوم فاغرة مناقيرها من شدة الحر . وكانت السماء بيضاء لأن لمعان الشمس قد امتص على ما يظهر لون كل شيء حتى الرمال الصفراء فانها كانت تشبه لون التربة المصرية

اذن هذه هي النهاية التي ستطوي بعدها حياته كما يطوى كتاب فرغ الانسان من تلاوته

وكان جان قد غادر وهو في التاسعة عشرة من عمره مستقبلا باهرا وترك والديه على كره منهما ثم سافر الى كوريا فاشتغل باحدي شركات مناجم الذهب . وكان يحلم بالثروة والغنى فتشبعت أفكاره بالذهب وقوته وأخذ يتصور انه ابتاع لنفسه مملكة خاصة

ذهبت أوهامه هذه بعد عامين فغادر كوريا وأبحر الى كاليفورنيا حيث عاش بعرق جبينه الى أن حملته الصدف الى جزر اروي فاشتغل بتجارة اللآلىء و بعد ذلك سافر الى جنوب أفريقا حيث اشتغل في مناجم الماس .

لم تمض على بقائه هناك ثلاث أو أربع سنوات حتى صار خبيرا في تقدير قيمة أحجار الماس فربح بضع مئات من الجنيهات كوسيط ولكنه لم يستطع . وهذا المبلغ مودع في المصرف ، مقاومة غريزة التنقل والتجول في البلدان فعاد الى أوروبا وتجول في ايطاليا وفرنسا واسبانيا .

بيد انه لم يقض وقته في البطالة والكسل لانه لما كان مولعا بالسجع وصوغ تصوراته في قالب شعري مقبول فقد سود كراسات عديدة بأفكار واعتقادات لا أهمية لها في نظره

ورث جان في ذاك الوقت ما خلفه له أبوه من المال القليل فأغراه أحد أصدقائه على أن يستثمر هذا المال في شركة تألفت للبحث عن منجم

خرافي للجواهر — أو أحجار القمر كما يسمونها — في جزيرة سيلان فخسر كل شيء وعاد لا يملك شيئا غير قيثارته و بذلته البالية فنزل في بورسعيد والتحق بخدمة هذه الشركة التي تشتغل في مناجم الذهب . بمرتب استطاع أن يدخر منه جزءا يسيرا

حياة في البادية ، مملوءة بالتجول والاحلام وحرارة الشمس اللافحة أ… فكانت هذه هي النهاية الطبيعية لحياته في هذا المنزل المهدم المهجور

نعم تمتع جان بكثير من ضروب اللهو والتسلية ولكنه كان يشعر في بعض الاحيان بوحشة العزلة والانفراد . وكانت الشهور الاخيرة التي قضاها في مناجم الذهب في نظره نفيا قاسيا مؤلما لا تخففه الا تلك الساعة الصامتة التي كان يقضيها في خيمته أثناء الليل محاولا أن يحول الافكار العديدة التي كانت تزدحم في عقله الى كلمات يمكن قراءتها . الآن بدا له الموت والنسيان كشيء تتلهف النفس اليه وأخذت نفسه تتوق الي النوم العميق الابدي الذي لا تضايقه فيه شمس محرقة ولا ذباب والذي يشعر فيه بالراحة الابدية والخلاص من آلامه المبرحة وكل هذا الشقاء

رفع زجاجة الخمر على فمه ليتناول الجرعة الاخيرة فيها ولكنها سقطت من يده فتحطمت وسال ما بها علي الارض الي وجهه فأخرج لسانه الجاف ولعق قليلا منه . والظاهر انه ذكر حالته هذه فلوي جسمه بعيدا وأغمض عينيه

أخيرا أغمي عليه ولم يفق الا على سماع دق على الباب الخارجي ولم تمض لحظة وجيزة حتي سمع وقع أقدام ودقا على الباب الداخلي ثم صوت خادمه يقول

- هل استيقظت يا سيدى ؟

رفع جان جسمه مستندا الى مرفقيه فاقلق جيش الذباب الذي كان قد حط على وجهه وجسمه ثم دار برأسه نحو الخادم وأجابه بصوت خافت قائلا

- اذهب بعيدا . اننى مصاب بالكولرا . اننى أموت

فقال الخادم

- ماذا تقول يا سيدى ؟ لا استطيع سماع ما تقول

فاستجمع جان قواه وقد كاد قلبه ينفجر وكرر قوله قائلا

- اننى مصاب بالكولرا

ثم غير فكره وقال

- اننى بخير الآن تقريباً ... سأكون فى صحة جيدة بعد ساعة ... ابتعد بعيدا

فهرع الخادم وهو يقول

- سأدعو المستر مورجان . انه هنا فقد رأيته وهو يعبر النهر

أصيب جان بعد ذلك بنوبة شديدة ولكن لم تكن فيه قوة للمقاومة فأغمى عليه قبل أن تتركه النوبة

لم يشعر بشىء بعدها الى أن سمع وقع أقدام المستر مورجان الثقيلة وهو يقترب من المنزل . وكان الخادم قد ذهب للمجىء به ولكن مافائدة قدومه الآن ؟ ان الموت صار قريباً منه بل صار فى يده ولم يكن الموت الذى قال عنه فى أغنيته انه « الملاك القديم النادر المثال » بل الراحة الجميلة التى تتوق اليها النفس

لم يستطع جان منع الرجل وخانه صوته عند ما حاول انذاره واذ ذاك

وقعت عيناه فجأة على الاناء الذي به حامض الفنيك وكان على خطوة منه فقال في نفسه انه يستطيع على الاقل أن يخفف الخطر . وفعلا استجمع البقية الباقية من قواه وأخذ يزحف في أرض الغرفة مثل الدودة الى ان مست يده الاناء وقبضت أصابعه على فوهته فجذبه قليلا فترنح الاناء ثم أعاد الكرة فسقط وسال المطهر القوي على الارض حوله وتحته وتخلل شعره وملابسه الرقيقة وامتد الى الجهة الاخري من الغرفة

سمع جان دقاً على الباب وصوتا يقول

ـ هل أنت هنا يا جان ؟ دعني ادخل . انني أعرف كيف أداويك . دعني أدخل والا جئت من النافذة

على ان جان لم يحر جواباً و بقي راقدا كالموتى الى أن دخل المستر مورجان بجسمه الضخم من النافذة وجثا بجانبه فوق الارض المبتلة

وكان الهواء قد تشبع الآن برائحة حامض الفنيك فقام المستر مورجان وذهب الى الباب فنزع مزلاجه ثم حمل المريض وهو في هذه الحالة التعسة الى الغرفة الخارجية وأسنده الى ركبتيه ثم جس نبضه

وكانت شمس الصباح ترسل أشعتها من خلال الشرفة المهدومة فتلمع فوق شعر المريض المبلل وفوق لحيته الذي جاء الى معالجته

فتح المريض عينيه وحرك شفتيه الجافتين ثم قال بصوت خافت

ـ لا تكن أحمق ولا تعرض نفسك لمثل هذا الخطر ... يجب على كل انسان أن يحافظ على نفسه

ثم مال رأسه الى الامام مرة أخري وأغمض عينيه

قال المستر مورجان

ـ كلام هراء . انك شاب شجاع . وأظن انك ستنجو بإذن الله!

الفصل الثاني

في دور النقاهة

وصل طبيب مصري من أطباء مصلحة الصحة العمومية بعد الظهر الى قرية « كوم السلطان » قادما من الاقصر تلبية للتلغراف الذي كان قد أرسله جان عن وجود اصابات بالكوليرا فأرشده المستر مورجان الى المريض فاهتم بأمره الاهتمام الواجب

تحسنت حالة المريض قليلا بعد بضعة أيام فنقل الى الاقصر في رفاص صغير تابع لشركة السكر و بعد أن قضى عشرة أيام في المستشفى ، وجد في خلالها وسائل الراحة على رغم شدة الحر ، استطاع السفر شمالا في عربة النوم الملحقة بقطار الاكسبريس الذي يسافر في فصل الصيف في أيام معينة من الاسبوع الى القاهرة ، يقل الضباط القادمين من السودان والموظفين الذين يغادرون الصعيد هرباً من قيظ الصيف

وصل جان الى القاهرة فأشار عليه احد الاطباء بأن يذهب الى البحر في أقرب وقت وعلى ذلك وجد نفسه في مساء ذات يوم من أيام اخر يونيو راكباً عربة تسير به في شوارع الاسكندرية ، متجها نحو فندق صغير يدعى « اوتيل دي بواسبرى » قائم على شاطىء البحر المتوسط على مسافة قريبة خارج المدينة ، كان قد اشار بعضهم عليه بالنزول فيه قائلا انه ملجأ رجال الفن والادباء بقليل النفقات

مال جان في العربة وأخذ يملأ رئتيه بالهواء المنعش مرتاحا ارتياحا لا يعرفه الا الذين انتقلوا من أتون الصعيد في فصل الصيف الى هواء

البحر المعتدل . ولما كانت شوارع الاسكندرية تشبه شوارع مدن ايطاليا أو موانيء فرنسا الجنوبية ، أخذ جان ينظر الى المخازن الجميلة والسائرين فى الشوارع ، ومعظمهم من الاوربيين والشرقيين وهو يشعر كانه نجا من جنون مؤلم وعاد الى الحياة الجميلة المنعشة

لم يكن هناك شيء يعكر صفو سروره وسعادته . فقد كان الشطر الاكبر من مرتبه مدة عام مودعاً فى المصرف تحت تصرفه لانه لم ينفق فى المدة التي قضاها فى الصحراء شيئا يذكر ، وكانت أرباحه تعادل خسائره فى لعب الورق الذي مله أخيرا

أما العمل فى المناجم فكان قد وقف حتى تهبط حرارة الصيف في شهر سبتمبر وعلى ذلك كان فى وسعه أن يقضى الشهرين الباقيين من اجازته في راحة وسلام وان يؤجل قراره الخاص بالعودة الى ذلك المنفى المروع أو مواصلة رحلاته وتنقله فى الممالك والامصار

وكانت التجاريب التي تحملها أخيرا صدمة شديدة أصابته فشعر فى هذه الآونة على الاقل بأنه لا يريد العودة الى البادية ثانية. ولكن كان من المحتمل أن يعدل عن فكرته هذه بعد أن يقضى بضعة أسابيع على شاطىء البحر يسترد فيها قواه

وصل جان الى الفندق فاستقبلته صاحبة الفندق وهي امرأة غليظة الجسم متقدمة في السن فطلبت اليه أن يدفع أجرة اسبوع مقدما فأعطاها ما طلبت فتقدمته الى غرفة طلقة الهواء تطل على البحر حيث غادرته بعد أن أكدت له انه سيشفى قريبا من الاضطراب المعوى الذى اخبرها انه سبب هزاله

كان جان أثناء مروره بالقاهرة اشترى بذلة بيضاء من الكتان فلما وجد نفسه منفردا في غرفته شرع في الحال يرتديها . ومع انه كان منهوك القوى بسبب السفر فقد تاقت نفسه الى النزول والجلوس بجانب احدى المناضد الصغيرة المشرفة على البحر ليشرب شيئاً من المرق ويتعرف برفقائه النازلين في الفندق ، غير مكترث بارتداد ركبتيه وبما كان يصيبه من الاعياء والدوار لاقل مجهود

كانت الحكمة واصالة الرأى تقضيان عليه أن يلزم غرفته ويلتجيء الى السكون والراحة ولكن لما كان قد عانى شيئا كثيرا من الام النفى فقد عجز عن مقاومة رغبته في النزول والتمتع بهواء المساء العليل والنظر الى الناس والتحدث معهم او الاصغاء الى النغمات الموسيقية التي كانت توقعها جوقة من الأيطاليين على العود والقيثارة

وعلى ذلك لم تمض مدة وجيزة حتى غادر جان غرفته . وبينما كان متجهاً نحو السلم وجد نفسه يسير خلف سيدة في مقتبل العمر تتجه نحو السلم كذلك . ولما كان قد مضى عليه نحو عام لم يخاطب في خلاله أحد من الجنس اللطيف فقد أحس بشعور غريب عند ما رأى ظهر السيدة أمامه . ولا عجب فقد رأى شعرها الاسود مسترسلا على ظهرها بين منكبين رقيقتين ، وقوامها المعتدل وهي تسير أمامه في ثوب جميل

رجا جان في قلبه أن تكون مليحة الوجه ولكنها عند ما تحولت لتلقى عليه نظرة رأى ان وجهها جذاباً اكثر منه جميلا فكان كصورة مصرية قديمة — كأزيس أوحاث حور . وفي الواقع كان وجهها الجميل وشعرها الذي يحاكي الليل سواداً ، وثغرها المبتسم مما يثير الغرابة والدهشة كما كانت عيناها واهدابها السوداء مما يدعو الى الاعجاب

شعر جان وهو خلفها عند نهاية السلم فجأة بدوار فترنح نحوها وكانت تنظر اليه ببرود ودهشة فقال جان

ـ أسألك المعذرة

ثم قبض على قضبان السلم وهو يعجب لماذا اظلمت الدنيا فى عينيه ولم تمض لحظة حتى أمسك باليد التي مدتها اليه السيدة في الحال ولم يع شيئا بعد ذلك

لما أفاق جان وجد نفسه راقدا فوق فراشه فى غرفته و رأى السيدة ذات الشعر الاسود التى كان قد رآها على السلم تميل فوقه مثل الام وترطب جبينه بالماء . ثم سمعها تقول

ـ هذا حسن : ستكون في حالة جيدة قريبا

جلس جان فى الحال وقد أدرك ما أصابه تماما ثم صاح قائلا

ـ اننى آسف جد الاسف . هل أغمى علي ؟

فكان جواب السيدة أن قالت

ـ نعم . ولكنى أمسكتك عند سقوطك

فتمتم جان قائلا

ـ كنت مريضاً ولم أكن اعلم أنى على مثل هذا الضعف . هل سقطت على الارض مثل الحمار ؟

فقالت السيدة وهي تبتسم

ـ . لقد وقعت بسهولة ولم يرك أحد لان الجميع كانوا يتناولون الطعام في الخارج

فسألها قائلا

ـ ومن حملنى الى هنا ؟

فضحكت السيدة ضحكة رقيقة وقالت

ـ أنا والخادمان . هل يعاودك الاغماء كثيرا ؟

فأجابها جان بحمية قائلا

ـ كلا . لم أعرف الاغماء منذ اصبت بالكولرا ؟

فصاحت السيدة قائلة

كولرا ؟ هل أصبت بالكولرا ؟ متي؟

ـ كلا لا تخافي ولست معديا فقد مضى على اصابتى بهذا المرض القتال مدة طويلة

ثم سرد عليها حقيقة ما اصابه فقالت

ـ ولكن اذا كنت قد نجوت من مخالب الموت بهذه الحال فان عليك أن ترأف بنفسك . يجب أن تلزم فراشك . ما اسمك ؟

فأجابها قائلا

ـ اسمى جان . وما اسمك ؟

فابتسمت السيدة فى وجهه ابتسامة خالها ابتسامة صنم من الاصنام التي كانوا يعبدونها قديما وقالت

ـ لا فائدة من ذكر اسمى

لزم جان الصمت هنيهة وأخيرا قال

ـ سأدعوك « الاخت » كما يدعو المرضى فى المستشفيات ممرضاتهم. أليس كذلك ؟

فاجابته السيدة قائلة

ـ أخشى ان اكون على جهل بواجبات الممرضات فقد مزقت ياقتك عند فتحها وصببت الماء على جميع سترتك

فحاول جان أن يذكر ما جري فقال

ـ لقد ترنحت نحوك عند سقوطي . أليس كذلك ؟

ـ نعم : وقد ظننتك أنك ثمل

ـ شكرا لك كل الشكر

ـ هل لك اصدقاء يهتمون بأمرك ؟

ـ كلا . لا يهتم بي أحد أيتها الاخت . هل لك أصدقاء ؟

فهزت السيدة رأسها وقالت

ـ كلا . اكاد لا أعرف أحدا كذلك . انني مصورة . وقد وصلت من ايطاليا حديثا

ثم جاءت بفوطة وقالت

ـ ارفع رأسك ودعني أجفف عنقك من الماء

لما فرغت السيدة من عملها شعر جان بحاجة الى شيء يقوى حركة الدورة الدموية فسألها قائلا

ـ أظن انه ليس لديك شيء من الكونياك والسودا

فاجابته قائلة

ـ سأذهب لاتي اليك بكأس منه

ثم غادرت الغرفة قبل أن يتمكن من الاعتذار اليها

قام جان من الفراش في الحال ثم سار برجلين مرتعدتين الي المرآة ونظر الى وجهه وتمتم قائلا

ـ يا الهي ! انني مثل شبح مخيف

مشط شعره الذي كان يتدلى فوق جبينه ثم جلس على المتكأ القريب من النافذة والى جانبه شمعة مظللة . وكان الليل هادئا ساكنا في حين

كان البدر يرتفع شيئا فشيئا من فوق البحر بنوره الجميل

وجد جان هواء البحر العليل يهب على وجهه فارتاحت نفسه وشعر بطمأنينة غريبة .

عادت ممرضته بعد مدة وجيزة تحمل معها كأسا من الكونياك والسودا فلما تجرعها أخذ يشعر بأن العالم مكان جميل

جاءت السيدة بوسادتين من فراشه ثم وضعتها خلف رأسه كما تصنع الام مع طفلها و بعدها جلست على مقعد ذى مسندين بجانب المتكأ ثم سألته هل ينوي المقام طويلا فى الاسكندرية فأجابها قائلا

ـ ليست لى خطة مرسومة وما دامت لى نقود فى المصرف فاننى لا افكر بشيء فاذا نفدت النقود فاننى أفكر اذ ذاك فيما يجب عمله بعد ذلك ان حياتي مثل حياة البدو

فقالت السيدة

ـ اننى رحالة متجولة مثلك

ثم شرعا يتحدثان معا حول المسائل التي يستطيع المتجولون أن يتحدثوا عنها . وقد تبين من حديثهما ان هناك اماكن فى فرنسا وايطاليا يعرفها كلاهما وانهما كانا فى جزيرة سيلان فى وقت واحد فكانت هي فى مدينة كولمبو وكان هو فى الداخلية يبحث عن أحجار القمر

شعر جان براحة عظيمة في حديثها . وفى الواقع لم يلبث أن عدها موضع أحلامه . وكان وجهها ، الذى كان لغزا معمى، جذابا بحالة غريبة وزاد فى جاذبيته الظل الخفيف الذى القاه على وجهها الستار المحيط بالشمعة بحيث خيل اليه أن عينيها الجميلتين تنظران اليه من خلال قناع خفيف ثم اخذ يعجب من نفسه لماذا لم يعتبرها جميلة عند ماوقعت عيناه عليها لاول مرة

أخذ الاثنان يتحدثان معاً ساعة أو أكثر بهدوء ولكن باهتمام في حين كان البدر يعلو فوق البحر الى أن اخترقت اشعته الفضية الغرفة وخففت ظلالها الثقيلة

أخيرا لاحظ جان انها على وشك الانصراف فقال

ـ انني مبتهج بهذه الصدفة الغريبة وفرح باغمائي

فابتسمت في وجهه كما لو كانت جميع أسرار العالم تجمعت في عقلها الحكيم وقالت

ـ وكذا أنا

ـ اخبريني أيتها الاخت هل أنت وحيدة في العالم ؟ .

ـ نعم

ـ هل ترين من الصواب الجلوس في غرفة رجل غريب ؟

ـ من الصواب التام

فقال

ـ هل انت عاملة ؟

فأجابته قائلة

ـ انني رحالة شريدة

قامت السيدة ثم وقفت هنيهة تطل من النافذة المفتوحة . فقال جان

ـ انها ليلة غريبة . انك لا تدركين مبلغ ابتهاجي باستنشاق هذا الهواء العليل والتمتع بالراحة . ان الصحراء مروعة في الصيف

فتحولت السيدة نحوه وأجابته قائلة

ـ نعم انها ليلة غريبة . ولعمرى من السهل أن يدرك الانسان السبب الذى حمل كليوباترة ومن تقدمها من البطالسة على مغادرة المدن

العتيقة في الجنوب وانشاء قصورهم هنا على شاطىء البحر

فابتسم جان ابتسامة ذات معنى وقال

ـ لو كانت كليو باترة عاشت هناك في طيبة حيث تصبب عرق الفراعنة لما وقع شيء بينها و بين انطونيوس ولقضت وقتها في الاستحمام بالماء البارد وطرد الذباب عن وجهها . أما هنا ـ فان صوت البحر أثناء الليل كاف وحده لنصب الشرك

نظرت السيدة اليه نظرة غريبة وقالت

ـ ان صوت البحر في ليلة من ليالي الصيف أعظم شيء مؤثر في النفس وأجمل شيء لدي في العالم . ولعمري اذا عدلت عن التجول و وطدت العزم على الاستراحة فانني لا أعيش الا في مصيف صغيرا بيض في مكان ما على شاطيء البحر المتوسط

ـ أما أنا فأريد الآن السفر شمالا . فقد مللت الشرق والجنوب وتاقت نفسي الى انكلترا

فتبسمت السيدة وقالت

ـ ان شوقك هذا لا يدوم لانك لا تليق لسبب ما للعيش في انكلترا

فثارت نخوته وقال

ـ انني من ولاية ديفون

مشيرا بقوله هذا الى مسقط رأس أسرته قبل أن تنتقل الى اكسفوردشير

فنظرت اليه السيدة وعلى فمها ابتسامة وقالت

ـ هذا هو السر . ان رجال ولاية ديفون لديهم غريزة معروفة وهي حب التجول في البلدان والاقطار

ثم مدت اليه يدها وقالت

ـ يجب بأن اذهب الان . مساء الخير . سآتي لزيارتك في الصباح. اذا احتجت الى شيء فاقرع باب غرفتي وهي الغرفة المجاورة لك

فأجابها جان قائلا

ـ مساء الخير أيتها الاخت . انني شاكر لك جميلك . لقد صنعت معي معروفا لا يقدر

فابتسمت له تلك الابتسامة الهادئة الغريبة التي ترى على وجوه الالهة والالهات المنقوشة على جدران المعابد والهيا كل ثم غادرت الغرفة

اضطجع جان بعد ذلك على وسادتيه وتأمل في شخصيتها الجذابة وعجب قائلا : ترى من تكون ؟

و بينما كان غارقا في لجة عميقة من عجبه هذا اذ دخل عليه الخادم يحمل صينية عليها فنجان من المرق وشيء من المربة وعنقود من العنب ثم قال

ـ ان سيدتي توصيك أن تشرب المرق كله ولكن لا تأكل غير ثلاث حبات من العنب . ارجوك أن لا تأكل غير ثلاث حبات فقط

فابتهج جان لتلقي اوامرها وقال

ـ حسن . سأفعل

نام جان تلك الليلة نوماً هادئا واستيقظ في الصباح نشطا فتناول فطوره في فراشه ثم ارتدي ملابسه و بعد قليل دخلت عليه ممرضته فصافحته ثم قالت

ـ يسرني أن أراك بخير . سأرافقك الى الشرفة في الخارج فان الهواء عليل هناك

ابتهج جان وخيل اليه انها تبدو جميلة في عينيه وهي ترتدي ثوبها الصيفي وقبعتها الواسعة وتبتسم له ابتسامة رائقة . وكان يعتقد منذ الليلة الماضية انه لغز معمى أو سر من الأسرار فارتاحت نفسه الآن عند ما وجد فى ضوء النهار انها مخلوقة عادية

وضعت السيدة ذراعها تحت ابط جان لتعاونه على نزول السلم ومع ان مساعدتها هذه لم تكن ذات فائدة تذكر فقد ابتهج بها وشعر في نفسه بميل الى التظاهر بمظهر الضعيف العاجز اكثر مما كانت عليه حالته الحقيقية . ولا عجب فانه لم يعرف من قبل أحدا اهتم به منذ كان طفلا

جلس الاثنان فى الشرفة ولم تلبث السيدة أن فتحت باب الحديث واستدرجته الى الكلام بحيث خيل اليه بعد قليل أنه يتحدث مع أقدم صديق له . فقص عليها قصصا عن الصحراء ووصف لها حياته في المناجم وأعرب لها عن الخوف الذي يشعر به عند فكرة العودة اليها

وكانت كلماته خالية من الشكوى اذ كان مثل الفدائيين لا يهمه شيء في الحياة . ولما كان مرغما على أن يكتسب خبزه بعرق جبينه فقد رأى انه ليس أسوأ حالا من جيش كبير من الناس

وكانت تصغى اليه وتشجعه على الكلام الى أن انقضت ساعات الصباح قبل أن يشعر فجأة بانها كانت الصاغية للحديث لا هو . وفى الواقع صاح قائلا

ـ يا الهي . لا بد أن أكون قد أضجرتك بكلامي لقد دق جرس الطعام فلماذا لم تمنعيني من الكلام ؟

فحولت السيدة رأسها جانباً وقالت

ـ كنت اشعر باهتمام لانك أريتني جزءاً من الحياة لم أكن أعرف

عنه شيئا . أما تجولاتي وأسفاري فكانت عادية خالية من الفائدة

ثم حولت رأسها نحوه بسرعة واستطردت فى حديثها قائلة

وعلى ذكر ذلك أخبرك انى سأغادرك غدا اذ لا بد من السفر الى القاهرة لاقضى بها أسبوعا أو أكثر

بدت علامة الحزن على وجه جان وقال بلهجة تنم على الخيبة الشديدة

ـ لماذا تسافرين الى القاهرة ؟ انها شديدة الحر غير صحية في هذا الفصل من السنة

ـ ان غيابى هناك لا يطول . سأصنع صورة واحدة واملي أن أجدك عند عودتى بخير وفى صحة جيدة واذ ذاك نقوم معا بكثير من الاعمال الغريبة .

ثم سكتت ونظرت اليه باهتمام وعادت فقالت كأنما تخاطب نفسها

ـ هذا شيء يجب أن نبحث عنه فى المستقبل

الفصل الثالث

« مونميه »

شعر جان بألم فراق صديقته الجديدة . وكانت قد سافرت الى القاهرة بكل هدوء وسكون فركبت عربة من الفندق الصغير وودعته باشارة من يدها بعد ان القت على مسامعه بعض نصائح غالية عن طعامه وسلوكه

وكان قد سألها عن المكان الذى ستنزل فيه في القاهرة ملمحا الى رغبته فى مكاتبتها ولكنها تجنبت اعطاءه جواباً صريحاً قائلة فقط انها ستذهب الى منزل بعض أصدقائها

حقا ان المرأة شبح وراء ستار ، فمن طبيعتها المراوغة ومن عوامل سعادتها أن يكون لديها شيء تخفيه . أما الرجل فأكثر صراحة ولذا كثيرا ما يجد في تكتمها ، في أمر لا أهمية له ، سببا يدعو الى الحيرة الشديدة .

صاح جان تقريبا قائلا

— اننى لا أعرف شيئا عنك حتى ولا اسمك

فأجابته برزانة قائلة

ـ جميا سمث

كأنها تنتظر أن يصدقها

عاد جان الى سجل الفندق وبحث عن اسمها فلم يجد غير ثلاث كلمات فقط وهى : مدموازيل سمث ، لندن ، مكتوبة بخط صاحبة

الفندق التي ضحكت عند ما سألها جان عن حقيقة هذا الاسم

شعر جان بوحشة في الايام الاولى بعد سفرها على أن بهاء أيام الصيف في الاسكندرية لم يلبث أن تملك قلبه والبس افكاره حلة رائقة. وفعلا عادت اليه قواه بسرعة فلم يمض أسبوع حتى صار كغيره من الناس فاستطاع التمشي على شاطىء البحر في ظل الصخور أثناء الصباح، والنظر الى مياه البحر الزرقاء الصافية، ثم الذهاب بعد العصر الى الكازينو لسماع أنغام الموسيقى ومراقبة الناس في رواحهم وغدوهم

وبينا كان ذات مساء. بعد تناول الطعام، جالساً في مقعد من القش خارج نوافذ غرفته الطويلة، اذ حانت منه التفاتة الى باب الغرفة المجاورة المؤدي الى البلكون نفسه فرأى صديقته واقفة تفتح صندوقا للملابس على منضدة أمامها

رأته السيدة في اللحظة عينها فتقدمت اليه في الحال ولكن جان هرع مدفوعا بابتهاجه برؤيتها والتقى بها في وسط غرفتها ثم صاح قائلا وهو يهز ذراعها كما يهز يد «طولمبه» قائلا

— كم أنا مبتهج برؤياك. ولعمري أشعر كما لو كنت قد رأيت صديقاً قديماً

فابتسمت ابتسامة هادئة وقالت

— حسن. كان لدينا أسبوع لكي يفكر كل منا في الآخر

ثم عادت الى صندوق ثيابها وأخرجت علبة صغيرة وقالت

— جئت لك معي بشيء من القاهرة

ثم قدمت اليه علبة من السجاير من نوع كان قد ذكره أمامها أثناء حديثهما معا

كانت الهدية بسيطة فى حد ذاتها ولكنها هى والكلمات التى فاهت بها مهديتها ، جعلت أفكاره تدور فمكث بضع دقائق يتكلم معها كلمات فارغة لا معنى لها . ولا عجب فقد شعر بفخار عظيم عند ما علم انها تذكرته وهى فى القاهرة وأحس الآن وهى واقفة فى غرفتها برابطة ود قوية . فكان يخيل اليه انه يريد أن يمسك يدها أو يضع يده على منكبها أو يقبل أناملها أو يرفعها عن الارض أو شيئا من هذا القبيل

وكان جان فى حيرة وهو فى حضرتها لانها ظهرت بطريقة غامضة بمظهر نسائي لم يعرفه فى التصورات والاوهام . وفى الواقع شعر بجلال وهيبة بحيث كان يفضل القيام بخدمتها والاهتمام بها على أن يتحدث معها على انه كان واثقا بلا مراء ان هذه هى الطريقة الصحيحة لادخال السرور الى قلبها

على أنها لم تلبث أن أخبرته أن ينزل الى الحديقة وينتظرها حتى تتأهب لتناول العشاء معه . وكان يود أن ينتظرها طول الليل لو أمرته . فلما نزلت بعد ساعة تقريبا ، ترتدى ثوبا رقيقا بديعا ، قادها من يدها الى منضدتها حيث جلسا تحت ضوء النجوم كعروسين فى الايام الاولى من شهر العسل

ليس فى العالم أجمع مكانا ولا وقتا ملائما لمناجاة النفوس واتحاد الارواح أكثر من الجلوس على شاطيء البحر في الاسكندرية فى ليلة من ليالي شهر يونيو المقمرة . وكانت الشرفة التي جلسا فيها قائمة على صخور تصطدم أمواج البحر المتوسط بقاعدتها من تحت غير منظورة كما كانت تلعب بها فى الايام التى رقد فيها انطونيوس . يحلم بين ذراعى كليوباتره .

أما جدران الفندق الصغير البيضاء ونوافذه ذات الدرفات الخضراء وبابه المفتوح الذي كان ينبعث منه نور ساطع فقد كان يختلف قليلا في مظهره الخارجي عن المنازل اليونانية العتيقة وفي حين كانت أشجار النخيل تشعر على ما يظهر بكرم منبتها وتعلم انها من سلالة تلك الأشجار التي كانت فى قصور الفراعنة

وكانت أنوار المدينة تنعكس علي سطح الماء ، والنجوم تتألق في السماء مثل مليون ماسة بدرت على بساط ازرق من القطيفة . وكان الليل دافئا والهواء عليلا والشموع المظللة فوق المنضدة تضيء بسكون وتلقي نورا ورديا على وجهي اللذين جلسا منفردين فى هذا المكان . أما الباقون فكانوا قد فرغوا من تناول الطعام وذهبوا الي طرف الفندق حيث كانت الالات الموسيقية تصدح بأنغامها الشجية

جلس الاثنان يتحدثان . وكانا يتنقلان في حديثهما من موضوع الى موضوع كما لو كان كل منهما يتلمس طريق الآخر ويحاول الوقوف على افكاره متمنيا أن لا يكتشف من أمره ما ينفره منه ، مبتهجا كلما خطا خطوة بعد أخرى في سبيل الوئام والاتفاق

وكان يخيل الى جان ان ابواب قلبه تدفع الى الوراء شيئا فشيئا وان الوجه الذى ينم عن الحكمة القريب من وجهه يطل على هيكل نفسه ويطلب السماح بالدخول

اخيرا صاح جان قائلا

— يا الهى ! ان هذا يدعو الى السخرية والدهشة . هل أخذت أقع فى شرك غرام سيدة لا أعرف حتى اسمها ؟

فابتسمت فى وجهه بتؤدة كأنما كلماته هذه أول شيء طبيعى في

العالم ثم قالت

ـ لماذا لا تدعوني مونيميه ؟ ان بعض الناس يدعوني بهذا الاسم . هل تعرف قصة مونيميه ؟

فهز جان رأسه فقالت

ـ كانت مونيميه هذه فتاة يونانية تعيش فى مدينة ميلينس على شاطيء نهر ميندر . وكان في وسعها ان تعيش طول حياتها وتتزوج وتلد اولادا لو لم يرها الملك متريدينس ملك مونته ذات يوم فأحبها وحاول بوسيلة ما أن يجعلها تعتقد انها تحبه كذلك

وكانت الموسيقى توقع من بعيد لحنا جميلا مع صوت البحر الهادىء فكان ذلك بمثابة جو ملائم للقصة

عادت السيدة الى حديثها فقالت

ـ حمل الملك مونيميه وأعطاها تاجا ذهبيا واتخذها ملكة له ولكن جاءت جيوش رومه وهزمته فأرسل الملك خصيه باخيدس اليها هنا فى الاسكندرية وكانت قد فرت اليها وأمرها ان تقتل نفسها لانه كان قد عول على الانتحار كذلك افضل من أن تتحمل عار أسرته ولم تكن تريد الموت ولكنها أخذت التاج من فوق رأسها كزوجة مطيعة وحاولت أن تخنق نفسها بأن لفت الخيوط الحريرية حول عنقها

فقال جان

ـ لقد تذكرت الآن . ان هذه القصة « بلوتارخ » . استمري في حديثك

انقطعت الخيوط الحريرية فصاحت مونيميه تلك الصيحة المشهورة قائلة : « اواه سحقا لك أيها التاج التعس لانك لم تستطع مساعدتى حتى

فى هذا الامر المهين » ثم القته بعيدا وأمرت الخصى باخيدس أن يقتلها بسيفه . .

وقفت السيدة عن الكلام ثم مدت بصرها الى ما وراء الخليج ، الى الأنوار المنبعثة من رأس التين ومن تلك المنازل والقصور القائمة فى ذلك المكان الذي شيدت فيه كليو باتره قصرها الشامخ .

وكان خادم الفندق قد حمل ادوات الاكل ونظف المنضدة من بقايا الطعام وكذا كانت الشمعة قد انطفأت فمالت السيدة في مقعدها الى الوراء وبداها تستندان الى جانبيه فبدت فى نور القمر الضئيل ، وكان قد بدأ يطلع من فوق البحر ، مثل تمثال من تماثيل الفراعنة

أخيرا قالت السيدة

ـ مسكينة مونيمه ، فقد ماتت هنا على شاطىء البحر

سادت السكينة بعد ذلك هنيهة فوضع جان يده على يد السيدة وقال بصوت خافت

ـ مونيمه

ولما لم يسمع جوابا سألها قائلا

ـ عما ذا تفكرين ؟

فأجابته قائلة

ـ اني أفكر بنهر « ميندر » وأظن أن هذه الكلمة التى معناها فى لغتنا « حيران » مشتقة من اسم ذلك النهر لانه كثير التعاريج . انى أفكر كيف « حرت » في الحياة والآن ...

ثم سكتت فقال جان

ـ ليس لدي تاج أقدمه اليك ولـكن كل ما لدي الليلة هو تاجك.
انني لا اعرف شيئا عنك ولا ادري من اين جئت ولا أعرف أسمك وكل ما أعرفه انك جئت الى من عالم أحلامي . ولعمري يخيل الى انك لست من البشر مطلقا وانك جزء من هذا الليل ولذا أريد أن اقربك مني حتى لا تفلتي من يدي

لم تجبه بكلمة فسألها هل لديها شيء تقوله فأجابته قائلة

ـ كلا . ليس هناك ما يقال يا جان . ان هذا الشيء قد داهمنا مداهمة وقد لا يلبث أن يذهب ثانية . فيحسن أن لا نتكلم كثيرا

فخطر بباله اذ ذاك قول الشاعر شالي : توجد كلمة كثيرا ما تدنس بحيث لا استطيع تدنيسها » ومع ذلك كان لا بد أن يفوه بهذه الكلمة فقال بصوت خافت

ـ احبك . مونيه ! أحبك !

فأجابته قائلة

ـ لقد سمعت هذه الكلمة من أفواه رجال قبلك وكان هناك رجل صدقت قوله هذا ... فشيدنا صرح حياتنا على هـذا الاساس ولـكنه سقط وتحول الى اطلال كغيره لانه لم يلبث أن كف عن قوله انه يحبني

فسألها جان قائلا

ـ اذن أنت متزوجة؟

ـ نعم

فتوسل اليها قائلا

ـ بالله قولى من أنت

فهزت رأسها وقالت

ـ كلا . لا اسم لى . لقد تركته

ـ لماذ ؟

ـ لان كلا منا بغض الاخر . لعمري من الخطأ الفاحش أن يعيش زوجان معا لا يعطف أحدهما على الاخر وهـذا هو السبب الذى حماي على هجره . انني أعيش الان من بيع الصور التي أصنعها بيدى

فسألها قائلا

ـ هل رزقتما اولادا ؟

ـ كلا . أظن انني لو رزقت أولاد لبقيت معه فان الاطفال كالازهار التي تخفي كثيرا من القبور

فقال جان

ـ ان سفرك شجاعة منك

فقالت بلهجة تدل على الاعتقاد بصحة ما تقول

ـ رأيت هذا من حق المرأة . وقد أخذت منـذ ذلك الحين أنتقل من مكان الى مكان فصادفت بضع ساعات من السعادة وأخرى من الوحدة والوحشة ولـكنني كنت دائما أجد استقلالي ينعش نفسي وعلمي بانني مخلصة لجنسي لم أضلل غيري بالمظاهر الـكاذبة والادعاءات الفارغة كزوجة تملـكها الوهم والغرور

فسألها جان قائلا

وما رأيك فى المستقبل ؟

فابتسمت وقالت

ـ اعلم يا عزيزي ان المستقبل ستار من الضباب لا يرفع الا للروح . وسأخبرك عن مستقبلي عندما اكون على فراش موتي اما الان

وانا في مقتبل العمر فلا يهمني غير الحاضر

جلس الاثنان يتحدثان الى أن ذهبت فرقة من الموسيقي كانت توقع بأنغام تلائم أفكارهما في سبيلها ولم يعد يعكر صفو السكون غير صوت البحر فاقترحت أن يجيء بقيثارته و يوقع لها عليها شيئا من الانغام قائلة

ـ لقد أخبرتني صاحبة الفندق أنها سمعتك توقع على قيثارتك داخل غرفتك أنغاما وصفتها بقولها انها انغام حلوة لذيذة مشجية

لم يكن جان شديد الرغبة في اجابة طلبها لانه كان يغني في المناجم مرة فقال أحدهم ان صوته مثل عواء ابن آوى وتضاربا . علي ان السيدة ألحت عليه بحيث لم يجد مندوحة من أن يجيء بقيثارته و يغني لها . وقد ساعدته الظلمة على اخفاء حيائه على انه لم يلبث أن تحولت اطواره الي حالة مشجعة له على الغناء

غنى جان في البداية بنغمات هادئة ثم انتقل الى نغمات البحر ثم الى موسيقى الفلاحين الايطاليين . و بينا كان يستطرد في غنائه ذهب عنه حياؤه ولم تمض لحظة حتى ارتفع صوته الرائق الجميل واشتد بحيث سمعه من كان في الفندق فاتت صاحبته و بعض النازلين فيه على اطراف اصابعهم و وقفوا على مقربة من الباب المفتوح ينصتون

قال جان أخيرا

ـ اصغي الي . سأغني لك قصيدة نظمتها لما كنت في جزيرة سيلان

وكانت الاغنية عن مدينة مهجورة بناها بعض الملوك القدماء على شاطيء بحر مجهول حيث شيدت قصور من الرخام الابيض تناطح ابراجها السحاب وكيف كان في قصر من قصورها امرأة نائمة على سرير من البلور ، شعرها اسود كالليل وصدرها ابيض مثل قمم الجبال المغشاة

بالثلج وكيف ان رجلا من البحارة قذفت به الامواج فى احدى الليالى الى هذه الشواطىء فسار فى شوارع المدينـة المهجورة الى أن وصل الى القصر فصعد الف سلم حتى بلغ السرير المصنوع من البلاور وقبل ثغر النائمة . . .

لما فرغ جان من أغنيته ساد السكون لحظة قبل أن تتحول موثيـه نحوه وتقول

ـ هل تريد أن تخبرني انك تأكل خبزك بعرق جبينك في المناجم مع انك تستطيـع أن تنظم أشعارا كهذه ؟

فضحك جان وقال

ـ ليست أشعاري هذه الا كلمات حقيرة غير موزونة وقد سرقت معظم النغمات الموسيقية من أشياء سمعت بها من قبل

فسألته قائلة

ـ هل لديك هذه الابيات مكتوبة ؟

ـ كلا . لقد ضاعت النسخة الوحيدة التي كانت لدى . وقد سددت بها ثقباً كان فى عنبر سفينة سافرت فيها مرة حتي لا تتطرق اليها الحشرات

فقبضت على يده وقالت

ـ جان ، انك تضيع حياتك سدى

فأجابها قائلا

ـ انى أشعر بالحياة الليلة لاول مرة

كان الليل قد انتصف عندما صعدا السلم الى غرفتيهما فحياها تحية الليل وهو يعلم جيدا انه لا يحاول تجديد رابطتهما الغريبة في الشرفة التى تصل بين غرفتيهما ولكن كانت دلائل الجمود والرزانة التي تجلت على

وجهها لا تزال تحيره . فكانت لا تريد التقدم نحوه أو التقهقر عنه وكانت من الوجهة العقلية ثابتة فى مكانها لا تتحرك ولا تتململ . وهكذا كانت تبدو حكمة الدهور فى عينيها وابتسامة المعرفة على شفتيها

ولا عجب فان الرجل فى الحب بسيط والمرأة داهية . فالرجل يرتكب الاغلاط باستمرار ، تاركا للصدف ما سيلاقيه من ميل أو نفور ، أما المرأة فانها تعرف وحدها متى تأتي اللحظة العظيمة ، وهى اللحظة التي يتكون فيها من الوقت والمكان والشخص صورة كاملة صحيحة

يغشى بعض النساء سر هذه المعرفة فى اضطرابهن و بعضهن يتولاهن الحياء عند اكتشاف هذا السر ، و بعضهن لهن ثقة لا تتزعزع فى الوصول الى غرضهن وهذا الفريق الاخير منهن ، هن بنات افروديت ، أطفال ازيس وحات حور

جلس جان على طرف فراشه بعد عودته الى غرفته هنيهة محاولا أن يسبر غور سرها الذي لا يسبر له غور . وكان فكره مشتغلا بها — بشعرها الذي كان يحاكي الليل سوادا و بعينيها اللتين يحاكي لونهما السماء صفاء وجلدها الذي يحاكي المرمر نعومة و بياضاً

وجد جان فى أطوارها اعتدالا وفى سلوكها تحفظا ومع ذلك وجد مع هذه الصفات نوعاً من الثقة والاعتماد على النفس لم يستطع تعيينه . فكان فى حضرتها يشعر بتقصير أبناء جنسه لا بتفوقهم

أخيرا خرج الى الشرفة ليلقي سيجارة فرغ من تدخينها فمكث هنيهة ينظر الى البحر

ولما وجد من نفسه الشجاعة ليلتفت نحو نافذتها وجدها مغلقة ولكن النور كان لا يزال مضيئا فى الداخل فوقف على هذه الحال يحدق

النظر الى النافذة مدة خيل اليه أن لا نهاية لها

أخيرا هم جان بالعودة الى فراشه ولكنه رأي النور قد انطفأ والنافذة تفتح بهدوء . والآن من يدري هل كانت تعرف ان جان كان واقفاً في الشرفة صامتاً . أو كانت قد تأهبت للنوم ففتحت نافذة غرفتها لكي يدخل نسيم الليل فينعشها وهي نائمة في فراشها ؟

ان المرأة حكيمة : فهي تعرف متى تأتى الساعة الملائمة

الفصل الرابع

« الحب ».

استيقظ جان في صباح اليوم التالي وهو يشعر كانما هبط الى الارض من السماء ، ولا عجب فقد خيل اليه أن حوادث الليلة الماضية تتعلق بعالم آخر غير هذا العالم مملوء بالنعيم ، لا علاقة له بأشعة الشمس الساطعة التي دخلت غرفته من النوافذ المفتوحة ، ولا بنسيم البحر البارد الذي كان يداعب الستائر ولا بمياه البحر الصافية وصخوره التي وقعت عليها عيناه وهو جالس في فراشه

خاطب جان نفسه قائلا

ـ في الغرفة المجاورة تنام امرأة كانت لي في الظلام باب أحلامي ولكنها ستكون ثانية في هذا النور الساطع مخلوقة جميلة قادرة ودقيقة غريبة ، ان الليل على كل حال هو مملكة المرأة وهي فيه سيدة السحر والفتون ، أعظم من نفسها ، أما النهار فملك للرجل . ولكن كيف أحبها الان ؟ لقد خيل الي منذ ساعات أن روحي قد خضعت لها ولكنى مع ذلك أري انى لا أزال المتسلط على مصيري

سمح جان لافكاره ان تأخذ ما تشاء من مستودع أسرار عواطفه فكان مثل مصور ارتد الى الوراء بضع خطوات لكي يستجلي منظر صورته أو مثل شاعر يقيس أحلامه وتصوراته ، فرأي أنه لما عقد لسانه عن الكلام ولم يدر ماذا يفعل أو ماذا يقول كانت ملاحتها قد خلبت لبه وحيرته وخيل اليه أن جسمها قد طبع بخاتم الخلود وانها صورت على

مثال الله . نعم ليست الا مخلوقة ناقصة ولكن الذى خلقها هو المبدع المصور ولذا خالها وهو تحت تأثير سحر الليل عالمة بأسرار السماء

رأى جان جلال السماء فى عينيها . وسمع صوت جميع الاجيال فى صوتها . ولكن هل هي التي تاقت نفسه اليها يا ترى ؟ انه لا يستطيع القول ، ولكن من الحكمة أن نقول انه رأى بواسطتها البهاء الذي كانت تتلهف اليه نفسه . فكانت القوة السحرية التي تحولت بها ارضه الى سماء والباب الذى دخل منه الى مستودع أسراره ، والمدخل المؤدي الى السماء والواسطة التي ارتفع بها الى ما وراء النجوم

أخيرا وقف بجانب النافذة التي كان الهواء يهب منها عليلا ثم قال

— ليست هذه الا مجرد أوهام ، ولسنا الا غرباء فلا أدرى شيئا عنها وهي لا تعلم عني الا النذر اليسير ، وليس ما جرى الا تأثير تلك القوة السحرية التي تستخدمها الطبيعة للوصول الى غايتها التي لا تتغير . وسينمحى كل ما جري فى الظلمة ، في ضوء النهار . سنلتقى كصديقين

أصاب جان فى قوله هذا الى درجة ما . فقد حيته بكل سكون ورزانة عند ما نزلا معا فى الضحى وجلسا على شاطىء البحر تحت ظلال الصخور فلم تظهر نفورا ولا اندفاعا

سألها جان قائلا

— هل تنوين الاستحمام هذا الصباح ؟

فقالت « نعم » فقال

— أري ان صحتي تسمح لي بالاستحمام كذلك .

فأبدت شيئا من القلق فقال

— ان البحر دافىء والمياه لا تؤذيني

وكان الشاطىء الرملي في هذه البقعة تكتنفه الصخور من الجانبين أقيمت فيه عدة خيم وأكواخ لاستحمام الاورو بيين الذين يقطنون فى القصور والمصايف القريبة . وكانت الرياح الشمالية الغربية تدفع المياه الى هذه البقعة الجميلة التى كانت على شكل هلال ولكن كان هناك مستنقع صغير فى بطن الصخور كانت المياه فيه هادئة رائقة

وكان ضوء الشمس رائقا بحيث كان كل جسم أو نبات يلقى ظله جليا فوق الرمال المتألقة

ذهب كل منهما فى المكان الخاص به للاستحمام ولما فرغا عادا فجلسا على احدي الصخور في الشمس فقال جان مخاطبا السيدة

ــ كانت ليلة أمس حلما من الاحلام

فأشارت مونميه بيدها الى الماء الرائق وقالت

ــ لنقل انها كانت كذلك . ان الحياة مثل هذا الماء . فاننا نغوص الى هذه الاعماق الغريبة عند ما يكون ضوء الحقيقة ساطعا ونري الاصداف الجميلة هناك ولكن لا بد لنا من أن نطفو الى سطح الماء ثانية والا غرقنا

فأجابها جان قائلا

ــ لقد علمت . لست الا صورة مرت بخاطرك

فأجابته بلهجة شديدة قائلة

ــ ان النساء لا يختلفن عن الرجال من هــذه الوجهة . احكم على من نفسك

فبرد جسمه لـكلماتها هذه وقال

ــ ولـكن هنـاك أمورا عديدة مختلفـة فى العالم . لست الا رجلا

طريدا شريدا من البدو ، هنا اليوم وفوق التلال غدا

فتسبمت وقالت

ـ انني أنا الاخري رحالة . فكلانا مخلوق حر . حاد عن الطريق الذي يسير فيه الناس . وكلانا يأكل خبزه بعرق جبينه ويدعى الاستقلال والحرية

فذكرها قائلا

ـ ولكن هناك هذا الفرق وهو ان العالم سيهز منكبيه من أعمالي ولكنه سيتنكر أعمالك

فأظهرت ما يدل على الضجر قائلة

ـ ان هذه حقيقة واهية . لقد نبذت العالم ظهريا فلا يهمني ماذا يظن بي . انني اعمل طبقا لمبادئي ، والمبدأ الاول في هذا الضرب من الشيء بسيط جدا وهو اذا كانت المرأة مفكرة مسئولة تأكل خبزها بعرق جبينها . تستطيع أن تسير دفة حياتها دون أن تعتمد أقل اعتماد على الرجل الذى وقع عليه اختيارها أو على أي مخلوق آخر . فان لها الحق في أن تلبي كل دعوة توجهها اليها الطبيعة في تلك اللحظة النادرة الغالية التي يأمرها فيها قلبها أن تفعل ذلك . واذ ذاك يجب أن لايكون هناك قانون آخر للمرأة يختلف عن قانون الرجال بل يجب أن يكون هناك قانون لمن يعوله غيره . والخطيئة لا تكون الا متى كانت المرأة طفيلية

ثم حولت وجهها فقال جان وهو يبتسم

ـ أتحبينني ؟

فقالت وهي لا تزال تنظر الى الناحية الاخرى

ـ كلا . انى أبغضك

ـ لماذا ؟

ـ لانه ليس لديك الادراك لتترك غيرك فى سلام

***

التقت به وقت الغذاء وعلى ثغرها ابتسامة غامضة . على انها لاحظت انه لا يأكل طعامه بشهية فأظهرت فى الحال دلائل الحنو والجزع فمنعته من أكل «السلطة». قطعت له اللحم ولما فرغا من الطعام أمرته أن يضطجع قليلا فى غرفته فأطاعها بابتهاج لانه كان يشعر في الواقع بشيء من التعب

استيقظ جان بعد ساعة فخرج الى الشرفة فرآها واقفة في غرفتها تفحص مواد التصوير فسألها قائلا

ـ هل تسمحين لى بالدخول ؟

فهزت رأسها علامة الايجاب ثم سألته قائلة

ـ هل نمت نوما هادئا ؟ اجلس وتحدث معي لانى أشعر بشيء من الوحدة بعد ظهر اليوم . لا اريد التصوير ولكن يجب أن اشتغل ولو قليلا والا لا أجد مالا انفقه

ذهب جان الى جانبها ثم وضع يده علي منكبها ولكنها دفعته بعيدا وكشرت فى وجهه وقالت

ـ قلت لك « اجلس »

فتولاه الخجل وقال

ـ انك صعب أظن . انه خير لى فى هذه الحالة أن أنصرف . لا أدرى أين أنا معك

ـ انك لم تحاول معرفة ذلك . انك تستطيع أن تفهمني تماماً . ولعمرى لو لم أكن واثقة من انك تستطيع أن تفهمني لما حاولت مطلقا

أن أدعك تتصل بحياتي

ـ لست حاذقا لبقا ولكنني رجل عادى

ـ قول هراء . لاتحاول الحط من نفسك

فحار جان وقال

ـ ماذا تقولين . ما هو عيب الرجال

ـ لاعيب فيهم الا انهم يرفضون درس أطوار المرأة

لم يكن جان فى حالة فكرية تساعده على الجدال والمناقشة وشعر بشيء من الكآبة المقرونة بالغضب ثم رأى أن نجميهما التقيا ليلة أمس على ما يظهر عند ما أظهر كل منهما عطفه نحو الاخر ولكنهما افترقا الآن ثانية

وفي الواقع أحس جان بوحشة مؤلمة تخيم فوقه مثل سحابة معتمة وشعر انها تحس بمثل هذا الشعور كذلك . على انه قال فى نفسه أن هذه عادة جميع الذين يعيشون عيشة البدو وقبل ما أصابه بخضوع واستسلام

اخيرا تقدمته الى شرفة الفندق . وكانت تحمل معها أدوات التصوير فجلست وأخذت تشتغل بتصوير منظر البحر البديع الممتد أمامها والصخور الذهبية وأشجار النخيل الخضراء

وكان جان يشتغل فى خلال ذلك بمطالعة احدى الصحف الانكليزية التي انقضي على تاريخها بضعة أسابيع ، عثر عليها اتفاقا في قاعة الفندق . على أنه كان يميل من وقت الى آخر فى مقعده الى الوراء ويراقبها وهى تشتغل بالتصوير وقد تجلى باعجابه بها فى عينيه

سألته موعيه فى الحال قائلة

ـ الى أي شيء تحدق النظر ؟

فأجابها قائلا

– اني معجب بقدرتك الفائقة في التصوير . لعمري انك مصورة ماهرة

فأبدت على قوله هذا ملاحظة قائلة

– ان اشتغال المرأة بالتصوير لا يدل على انها مصورة ماهرة كما أن كلامها لا يدل على انها مفكرة . ولكي تكون مصورا ماهرا يجب أن يتوفر فيك شرطان الاول يجب أن تكون لديك فكرة تريد الاعراب عنها وثانياً يجب أن تعرف كيف تعبر عنها من الوجهة الفنية . لان المهم هو معرفة وجهة النظر ولعمرى في وسع الانسان أن يقول أن على الانسان قبل كل شيء أن يكون من أصحاب الفنون

فأطرق جان برأسه وعجب في نفسه قائلا هل كانت حوادث الليلة السابقة من فنونها . وقد ولدت هذه الفكرة في نفسه نوعا من الغيظ حمله على أن يقابلها بالمثل فقال

– اني اعرف ما تعنين جيدا لانه كانت لدي موهبة في نظم الاقوال نظما بديعا ولكن المهم هو الموضوع وهنا أشعر بتقصيري وكثيرا ما التجيء الى خبير لمساعدتي

فقالت وقد أرادت أن تقتصر في الموضوع الى هذا الحد

يجب أن تطلعني على بعض هذه الاشعار

فهز جان رأسه ثم ضحك وقال

ان الاشعار التي كتبتها غير موزونة كتلك القصيدة التي غنيتها ليلة امس . وهي قليلة الغور مثل قلبي

عادت السيدة الى الاشتغال بالتصوير وعاد هو الى المطالعة ولكن

فكره لم يكن منتبهاً لحركة عينيه

أخذ جان يفكر كيف انه لم يدرك شيئا من أطوار هذه السيدة التي لم يكن لديه ريب فى انها ذات اراء قويه ، وضعت حياتها فى يديها و واجهت العالم بشجاعة مدهشة واقدام نادر . وفى الواقع يمكن القول بأنها من طراز النساء اللائى لا يمكن تحويلهن عن غرض يعرفن انه حق وصواب.

أخيرا ابتسم جان فى نفسه لهذه النكتة وعاد فسمح لافكاره مرة أخرى ان تسبح وراء شخصيتها الغرارة المدهشة . على انه وجد أخيرا انه ينشد المحال فعاد الى مطالعة الجريدة ثانية

و بينما كان مشتغلا بالقراءة اذ رفع صدره فجأة وهو جالس في مقعده وأخذ يحملق بعينيه دهشة الى الصحيفة التى أمامه ثم قال بصوت مبحوح وعلامات الحيرة بادية على وجهه

ـ يا الهي

نظرت السيدة اليه ولكنها لم تستطع مما ارتسم على وجهه وما تجلى في عينيه أن تحكم على نوع النبأ الذى لفت اهتمامه فقالت

ـ ما الخبر ؟

فنظر اليها كانه لا يراها ثم قرأ مرة أخرى الكلمات التى خيل اليه انها ترقص امام عينيه ثم عاد فنظر اليها ثانية ومنها الى افكاره البعيدة سألته السيدة قائلة

ـ هل النبأ الذي رأيته يتعلق بك ؟

فهز رأسه ثم رفع يده الى جبينه فقال

ـ انباء سيئة

فأجابها كأنه يري حلما قائلا

– نعم . سيئة جدا ... مدهشة !

فلم يسعها الا أن ابتسمت ولم تلبث ان ادركت الحقيقة بذ كائها فقالت

– هل مات شخص وترك لك شيئا من المال ؟

فضحك ضحكة عصبية وصاح قائلا

– اني حر . حر . لن أعود ثانية الى المناجم

ثم وثب وطوى الصحيفة وضغط عليها بيده فقالت بهدوء

– لا تذهب لئلا يغمى عليك ثانية

فضحك ضحكة عالية ولم تمض لحظة أخرى حتي هرع الى الفندق فنزع قبعته ثم خرج مسرعا فاجتاز الحديقة الصغيرة التى أمام البناء ومنها الى الشارع حيث نادى حوذياً أمره الذهاب الى مكتب تلغراف شركة « ايسترن اكستسينج » ثم جلس فى المركبة وأخذ يقرأ النبأ الذي كان سبب دهشته وهو

« المرجو من المستر جيمس شمبرنون تندريج وضت وارث المرحوم صفيفن تندريج وست من بلدة مانور بمقاطعة افرسفيلد اكسون — أن يكاتب الخواجات برون وبيدل ٣٥ ا لنكولان ان فيلدس بلندن »

علم جان ان عمه مات وان ابنى عمه اللذين لا يعرفهما قد ماتا قبله أو ماتا معه !

لم يخطر بباله مطلقا أن يكون وارثا لتلك الضيعة الصغيرة . ولا يعلم الا الله كم كان يمضى عليه قبل أن يعرف بهذا الارث لو لم يعثر على هذه اتفاقا الجريدة العتيقة

وصل جان الى مكتب التلغراف فأرسل تلغرافا الى المحامين أبلغهم

فيه انه قادم الى انكلترا فى أول باخرة و بعد ذلك ركب العربة وذهب الى مكتب شركة كوك فوصل اليه قبل الميعاد المعين لانتهاء الاعمال فيه وهناك علم ان مكانا خالياً في باخرة فرنسية مسافرة تلك الليلة الى مرسيليا في الساعه الحادية عشرة مساء فاشترى تذكرة السفر بدون تردد ثم عاد الى الفندق مسرعاً وكانت الشمس قد مالت نحو الغرب

و بينا كانت مركبته تسير به في الطريق الفسيح الواقع بين المدينة والفندق اذ التقت به مركبة أخرى كانت تقل مونيه وكانت ذاهبة في طريقها لتناول العشاء مع بعض أصدقاء لها كانت قد أخبرته عنهم فأشار اليها فأمرت السائق بايقاف سيارتها وحذا هو حذوها أيضاً ثم ذهب اليها وأبلغها بلهجة مضطربة انه عول على السفر الليلة الى انكلترا قائلا

ـ لقد ورثت بعض ممتلكات عن عمي فيجب أن أسافر وأطالب بها في الحال

لم يبد على وجهها ما ينم على ما بقلبها ولكن لم يظهر في عينيها شيء يدل على السعادة . وفي الواقع قالت

يحزنني أن ينتهي الامر بيننا بهذه السرعة

فصاح جان قائلا ولم يكن صاغيا اليها بلا ريب

ـ ماذا ؟ انك كنت موضع دهشتي وعجبي يجب أن لا يفقد أحدنا رؤية الآخر ولا بد أن تستمر علاقتنا هذه الى الابد

وكان يتكلم وهو لا يدري ما يقول تقريباً . وكانت منذ ساعة العامل الاكبر في حياته أما الآن فلم تكن الا جزءا يسيرا من حياة أخذ يلقيها وراء ظهره

وفى الواقع خيل اليه وهى لا تزال أمام عينيه انها صارت جزءا من ذكرى ماضيه وان المنازل الصفراء والبحر واشجار النخيل والشمس التي كادت تختفى وراء الافق ، قد تحللت وانه أخذ ينظر بدلا منها الى حقول انكلترا الخضراء ، والى منزل عتيق لصاحب املاك . مشيد من الخشب رآه مرة وهو صبي والى كنيسة قائمة بين أشجار السنديان والقبور المغشاة بالحشائش الخضراء

وكان جان واقفاً يتململ فقال

ـ يجب أن أذهب في الحال لاحزم أمتعتي . ان في وسعك العودة الى الفندق قبل سفرى ، حوالى الساعة العاشرة ، أليس كذلك ؛

ثم حياها وعاد مسرعا الى مركبته حيث وقف وأخذ يلوح لها بقبعته بينما كانت العربتان تسيران فى جهتين متضادتين

دقت الساعة العاشرة ولم تعد مونميه أو يظهر لها أثر ثم انقضت بضع دقائق أخرى فاخذ الحمال الذى كان سيرافقه الى الميناء يحثه على أن لا ينتظر بعد الان . ولما كان فى حالة اضطراب فكرى رأي أن يكتب اليها خطاب وداع من الباخرة يرسله مع الحمال

على انه لم يكد يهتدي الى عنبره فى السفينة و يرتب أمتعته حتى دق الجرس المؤذن بالسفر فهرع الحمال الى الرصيف واذ ذاك قال جان فى نفسه

ـ لا بد أن أرسل اليها رسالة برقية من مارسليا ولا اظن انها تهتم بي اقل اهتمام وعندي ان كل ما جرى كان منشأه العوامل المشجية التى كانت تحيط بنا ومع ذلك من الحماقة أن يحسر الانسان مخلوقة حقيقية كهذه ... ليتنى أعرف اسمها

الفصل الخامس

صاحب مزرعة افرسفيلد

يشبه فن الحياة الى درجة كبيرة فن دفن العظام وهذا ما يسمى بعلم الاقتصاد العقلي . فانه اذا صادف الانسان مشكلة عويصة لا يستطيع حلها أو بعبارة أخرى اذا أعطاه « القدر » عظمة لا يستطيع كسرها فانه كثيرا ما يسير بها دون قصد الى جانب ثم يدفنها كما يفعل الكلب وفي نفسه أمل غامض أن يعود اليها في وقت اخر و يستخرجها فيجدها اذ ذاك أكثر ليناً

كان هذا حال جان فانه دفن أثناء رحلته تلك الفكرة المحيرة عن مونيه . نعم كان شابا كثير الاهمال يستحق التعنيف ومع ذلك كان معروفا باغفال الواجب . ولما كان قد أخذ الان يسير ثانيــة في الطريق الاكبر الموصل الى بلاد أخرى واختفت أنوار تلك المدينة التي كان بها فقد نسي معها كل شيء

نعم كتب اليها في اليوم التالي لسفره كتابا طويلا والقى هذا الخطاب في صندوق البريد عند وصوله الى مرسايا ولـكن عقله كان مشتغلا بأمور أخرى لا تتعلق بها كما ان قلبه لم يرسل مع خطابه هـذا رسالة تنم على شغفه بها . واذ كانت عواطفه قد تحركت فانه قد حار أيضا في أمره ولم يحاول ابقاء تلك الذكرى الحلوة كما لو كانت حلما وانقضى

٭٭٭

ذهب جان في اليوم التالي لوصوله الى مكتب المحامين الذين نشروا

الاعلان فدهش عند ما قوبل بمظاهر الترحيب التي زعم انها ضاعت من « لنكولن اين » منذ خمسين عاما . فقد قابله المستر بيدل أحد الشركاء باحناء رأسه وفرك يديه والرجوع الى الوراء خطوة ثم أشار اليه بالجلوس على مقعد من الجلد بجانب المكتب الكبير

عرف جان المحامي بنفسه فقال هذا

ـ ارجو يا سيدي أن تقوم بخدمتك كما قمنا بخدمة عمك وجدك من قبل

فأجابه جان قائلا

ـ ارجو ذلك . اظن انك تعرف جميع دخل الاسرة وخارجها وجميع شؤونها

ابتسم المستر بيدل ولفت نظر الشاب الى عدد من الصناديق السوداء المصنوعة من الصفيح في زاوية المكان وقال

ـ في هذه الصناديق جميع مستندات اسرة تندريج وست مدة القرنين الماضيين

فقال جان

ـ حسن . اخبرني أولا عما يشتمل عليه ارثي وما هو مقدار الدخل

فقال المستر بيدل ان الضيعة الصغيرة تشتمل على نحو مئتي فدان معظمها مؤجر وعلى عشرين منزلا وكوخاً تؤلف منها القرية الصغيرة ، وعلى منزل صاحب الاملاك وهو منزل صغير ولكن تتوفر فيه وسائل الراحة ثم على عشرين الف جنيه مودعة في أحد المصارف

كان هذا الارث اكثر مما كان يتوقعه فابتهج وارتسمت على وجهه الاسمر الذي لفحته الشمس ابتسامة جلية

قال المحامى

ـ سيكون لديك دخل وافر يكفل راحتك . وأظن انك لا تجد مشقة فى القيام بواجباتك وستجد من المستأجرين احتراما ومعاملة حسنة وستؤدي واجباتك بصفتك صاحب الاملاك بسهولة

انتقل الحديث بينهما بعد ذلك الى ذكر الكوارث التى كانت سببا في تحويل الأرث عن مجراه الاول فعلم جان كيف توفى ابن عمه مارك فى الهند وكيف ان عمه وابن عمه الثانى جيمس ذهبا الى « البحيرات » لكى يسترد الشيخ قواه ففرق الاثنان معا بسبب عاصفة هبت عليهما وهما فى زورق انقلب بهما بعيدا عن الشاطيء وقد انتشلت جثتاهما ودفنتا فى افرسفيلد واذ ذاك أخرج المحامى صورة فتوغرافية للرمز الذي أقيم فى الكنيسة

نظر جان الى الصورة ثم اعادها بسكون فاستطرد المحامى فى حديثه قائلا

ـ أملي ان يقام لك تذكار هناك ايضا بعد أن تعمر مدة طويلة

فقال جان

ـ أرجو ذلك

تنهد المستر بيدل وقال

ـ لقد شعرت كأن صدمة شديدة أصابتنى فقد كان المرحوم عمك صديقا حميما لى

فقال جان

ـ حقا ما تقول ؟

وكان على وشك أن يسلك معه مسلك الغلظة ولكنه كبح جماح نفسه قائلا

ـ سأذهب الى هناك غدا وربما أمرت بتنظيم البيت قبل الاقامة فيه

ثم وقف استعدادا للانصراف فأكد المستر بيدل قائلا

ـ لا أظن انك ستجد شيئا كثيرا يحتاج الى تعديل . ان التغييرات التى تتم بسرعة لا فائدة لها غالبا ومتى اطمأنت نفسك الى المكان شعرت بواجب عليك نحو الماضى

ثم صافحه وحياه باحناء رأسه قائلا

ـ أرجو ان لا تغضبك نصيحة شيخ مثلي

ركب جان في اليوم التالى سيارة الى افرسفيلد وكان فى وسعه أن يركب القطار الى اكسفورد ومنها عربة الى القرية ولكنه أراد أن ينفق بعض أمواله الجديدة وأن يقطع مسافة ٤٥ ميلا مجتازا بركشير واكسفوردشير فى اشعة شمس الصيف الجميلة

وفى الواقع تاقت نفسه الى التمتع بجمال وطنه ومسقط رأسه . وكانت عيناه قد ملتا رؤية الصحارى القفرة ورمالها المحرقة فارتاحت الآن الى درجة تفوق حد الوصف برؤية الحقول الخضراء وأوراق الاشجار الناعمة والسماء الصافية

كانت مزرعة افرسفيلد تبدو كأنها نائمة في أحضان التلال الكثيرة الغابات وتجلت هذه الصورة تماما أمام عينيه عندما أخذت السيارة تقترب من ابواب منزله ورأي القرية الصغيرة كما رآها آخر مرة وهو صبي . فقد كانت الابواب الحجرية العتيقة لا تزال قائمة على أحد جانبى الطريق الضيق الذى يجتاز القرية وعلى الجانب الاخر الكنيسة الصغيرة وأحجار القبور المغشاة بالحشائش الخضراء

قال جان في نفسه عندما وقعت عيناه على هذا المشهد

ـ اظن انني سأجتاز هذه الابواب في السنين المقبلة في طريقي الى الكنيسة تتبعني زوجتي وأولادي ويهمس القرويون مع بعضهم بعضاً قائلين « ها قد اتي السيدوأولاده »

ثم صاح قائلا يا الهي

وكان صياحه هذا ناشئا عن شعور فجائي بأنه استدرج الى فخ أو شراك وانه وقع في عشرة هيئة عتيقة لا يلبث ان يتبع عادتها . وفي الواقع احس عند اجتاز السيارة لابواب المنزل برغبة في الوثوب والفرار طالباً النجدة

وصلت السيارة الى باب المنزل المشيد من الخشب وهنا نزل صاحب المنزل الجديد من السيارة معفر الثياب فقابله البستاني وامرأته وكانا قد ابيض شعرهما في خدمة عمه فرفع الرجل قبعته وحياه بضع مرات في حين حنت المرأة رأسها ثلاث مرات

قال جان بنشاط

ـ هل أنت البستاني ؟ ، ما اسمك ؟

فقال الرجل

ـ بطرس يا سيدي . بطرس لنجارم يا سيدي . انني اذكرك يا سيدي عند ما كنت صبياً صغيرا

ـ نعم بلا ريب ، انني أذكرك أيضاً . انك الرجل الذي اخبرت عمي عند ما كسرت آنية من الزجاج

فجمد الشيخ وقال

ـ لقد قمت بواجبي يا سيدي . أسألك المعذرة

قال جان في نفسه

ـ قام بواجبه . بدأت أعرف هذه الكلمة ولا أدري معناها الحقيقي

ثم تحول نحو المرأة وخاطبها قائلا

– أرجو أن تفتحي جميع أبواب المنزل وبعد ذلك دعيني أتفقد جميع الغرف منفردا

أراد جان أن يكون منفردا لكي يدرك قيمة أملاكه الجديدة ولكي يرى حلمه الخاص بالمستقبل بهدوء وسلام

نظرت المرأة اليه بانفعال هنيهة قبل أن تذعن لامره. وقد أبلغت زوجها فيما بعد. وعيناها مغرورقتان بالدموع. انها شعرت كما لو كانت تسلم المنزل الى لص من قطاع الطرق

وبينما كان جان ينتقل من غرفة الى أخرى اذ شعر بأنه قد تطفل على سر من أسرار حياة أسرة لا يدرك عنها شيئاً. وكانت امرأة عمه قد توفيت منذ ثلاثة أعوام أو اربعة ولكن كانت لا تزال هناك آثار لها فقد وجد مثلا ان غرفة الاستقبال منظمة بحيث تعيد الى الذكرى صورا قديمة ضاع أثرها تقريباً

وفي الواقع رأى المعزف الذي كانت توقع عليه أغانيها القديمة ثم منضدة التطريز التي كانت تطرز عليها وربما كانت هي التي اختارت الصورة المعلقة على جدران الغرفة التي كانت تمثل اسماعيل وهاجر في العربة وصورة الملكة الكسندرة أميرة بلاد الغال وهي في عنفوان شبابها ثم صورة « يعقوب وهو يبكي على قميص يوسف » وغير ذلك من الصور الأثرية الجميلة

دار جان برأسه فيما حوله فشعر برهبة وحبور ورجا أن لا تقلق روح عمته اذا ما وضع يده على هذه الأشياء. وكانت غرفة الطعام والقاعة ومدخل السلم مزينة بصور أفراد الاسرة منذ أجيال

دخل جان بعد ذلك غرفة المكتبة التى كان أفراد العائلة يتوارثونها ، ولما كان يحب الكتب العتيقة فقد وقف بها لحظة أخذ يقلب فيها صفحات الكتب المصنوعة من الجلد

صعد بعد ذلك الى غرفة النوم فى الطابق الاعلى فوجد بها من الدواليب المملوءة بالثياب والاحذية والقبعات ما ذكره بالذين كانوا يشغلونها من قبله . وقد رأى على منضدة بجانب منضدة عمه رواية حديثة اتفق أن قرأها هو أيضا فكانت حلية اتصال غريبة بين الحى والميت

قلب الطرف فيما حوله بعد ذلك ثم أطل من النافذة الى الطريق وامتد بصره الى الكنيسة والقبور التى تضم رفات أسرته وذ ذاك قال فى نفسه ماذا يقولون يا ترى لو رآه أحدهم

شعر جان بانقباض فذهب توا الى الحديقة وكانت يانعة بالازهار فجلس على مقعد من الصخر وتناول جزءا من الخبز والمربة ولم يلبث أن انتعشت روحه ثانية لان منظر الحديقة والمنزل كان بديعا فقط لو أمكنه التخلص مما فيه من الاحذية والملابس والصور !

خطرت بباله فكرة وهى أن يذهب الى راعى الكنيسة ويخبره أن يأخذ هذه الاشياء لفقراء هذه القرية فقد رأى أن لا مندوحة من التخلص من هذه الملابس ولو اضطر الامر الى أن يلبس كل رجل فى القرية قبعة سوداء عالية والا لا يستطيع المقام فى المنزل بالمرة . وفعلا ذهب الى بطرس البستاني وطلب اليه أن يدله على منزل القسيس فلما دله عليه هرع لتنفيذ خطته

غير انه التقي على مقربة من الكنيسة بقس أبيض اللحية فقال انه راعى الكنيسة بلا مراء فوقف فى وجهه وسد عليه الطريق قائلا

ـ أسألك المعذرة يا سيدى وأرجوك أن تخبرنى هل تريد أخذ قبعات عتيقة ؟ أعنى بالطبع هل يريد رجال كنيستك أن يلبسوها ؟ لدي قبعات عالية سوداء وأحذية أيضا اذا شئت

فامتعض الكاهن وقال

ـ كلا . شكرا لك . لا أريد شيئا اليوم

ثم سار في طريقه فناداه جان قائلا

ـ انها قبعات حسنة لا تحتاج الا الى تنظيفها من الغبار

وقف الكاهن اذ ذاك ونظر الى جان دهشا ثم سأله قائلا

ـ هل أفهم من قولك هذا انك بائع ثياب عتيقة ؟

فأسرع جان الى شرح المسألة قائلا

ـ كلا . كلا . انى أريد التخلص منها . أريد التخلص من جميع مثل هذه الاشياء ـ قبعات وسراويل وسترات وأقمصة وصدريات وأحذية وجوارب وصورا عتيقة ومظلات ...

نطق جان بهذه الكلمات في نفس واحد ثم سكت وهو يضحك في نفسه

وضع القس نظارته على أنفه باحكام ثم احدق النظر الى جان وقال

ـ أيها الشاب . هل هذه نكتة على حسابى ؟

ـ يا الهى ، كلا ! انى جاد كل الجد فيما أقول لانى لا أستطيع مطلقا أن أقيم فى المنزل وبه جميع هذه الاشياء . فأرجو مساعدتك . ماذا تقول اذا جئت غدا وطهرت المنزل من جميع هذه الاشياء ثم تدعو سكان القرية الى الكنيسة وتوزعها كمكافأة على الذين يواظبون على سماع دروسك الدينية ؟

فدفعه القس جانبا ثم أجابه برفق ولكن بحزم قائلا

ـ لا أدري علام تتكلم :

فأحدق جان النظر خلفه وسأله قائلا

ـ هل أنت راعي الكنيسة ؟

فالتفت الكاهن قليلا واجابه قائلا

ـ كلا . لست أنا

فصاح جان صيحة الضجر ثم هرع الى منزل القسيس

وكانت الخادمة التي فتحت له الباب على وشك أن تسأله عن اسمه ولكن اتفق ان كان القسيس يجتاز الرحبة الداخلية من المنزل — وهو شيخ حليق الذقن أشيب الشعر تدل ملامح وجهه على الشفقة والدعة — فتقدم نحو الباب فى حين تأخرت الخادمة ثم قال

ـ نعم . ماذا ؟

فسأله جان بحذر قائلا

ـ هل أنت راعي الكنيسة ؟

فأجابه الرجل قائلا

ـ نعم انا هو

ـ هل أنت حقاً ؟ حسن . أريد أن أسألك عن بعض ملابس عتيقة فانني ...

فرفع القسيس يده وقال وعلى فمه ابتسامة تنم على الحزن

ـ كلا . ليس لدي شيء أريد بيعه . أما ثيابي فانني ارتديها حتي تبلى

فأغرب جان فى الضحك وقال

ـ لقد ظن رجل قبلك انني أبيع ثياباً قديمة ثم تظن أنت انني

اشتريها . لا ريب في اننا أمة من التجار

فحار القسيس وقال

ـ لا أفهم شيئا . قل لي ماذا تريد ؟

فقال جان

ـ لدي كثير من القبعات والملابس القديمة والاحذية أريد التخلص منها وقد زعمت انك تريدها

فاستاء القسيس وقال

ـ انها مكرمة منك . لا انكر ان مرتبي قليل ولكنني لم أصل بعد الى درجة من الفقر بحيث ارتدي ثياب رجل أجنبي عتيقة

فاسرع جان قائلا

ـ أواه . لا أعنى ذلك . وهذه الثياب لبست لى بل ثياب أقربائي الذين توفوا . لقد أتيت للمقام في منزل صاحب المزرعة فرأيت ان فقراء القرية ربما ...

فقاطعه القسيس قائلا

ـ أسألك المعذرة . هل أنت ... ؟

ثم تردد و بدت عليه دلائل الحيرة فقال جان

ـ نعم أنا الوارث الجديد من أسرة « تلدر وست »

فمد الكاهن يديه وصاح قائلا

ـ مرحبا . لقد زعمت انك ...

ثم تردد . فضحك جان وقال

ـــ زعمت انني تاجر الثياب العتيقة

فصافحه الكاهن بابتهاج وهو يبتسم قائلا

— انني غني . ادخل بالله يا سيدي

تبعه جان الى غرفة الاستقبال حيث وجد سيدة نحيفة الجسم طاعنة في السن تعرف بها باسم الآنسة برودفوت ومعها رجل متوسط العمر مفتول الشارب تبدو عليه سيماء الضباط ولكن تبين انه الدكتور سبور طبيب الناحية وكانا مدعوين لتناول الطعام مع القسيس بلا مراء فقابلاه بشيء من الاهتمام لم يخف دهشتهما

سمع جان في خلال الدقائق العشر التالية شيئاً كثيراً عن « عمه المسكين العزيز » وعن ابني عمه والظاهر ان كارثة وفاتهم قد اسدلت على القرية ستاراً من الكآبة ولكن المسألة كانت في الواقع « مات الملك . ليحيي الملك » لانه رأى من الاشخاص الثلاثة الذين تعرف بهم كل احترام .

سأل الدكتور سبور جان من أي جزء من انكلترا أتى فلما أخبرهم انه جاء من احدى البلاد الاجنبية وانه لم يزر مسقط رأسه منذ سنوات عديدة دهشوا . وقد خطر بباله أن لا يخبرهم شيئاً عن مصر أو عن أي بلاد اخرى عرف فيها باسم جان ايستون لان فشاء مثل هذا السر قد يثير روح الشك والارتياب من نحوه وقد أراد أن يعيش في افرسفيلد دون ان يصادف شيئاً من المتاعب والعراقيل . وعلى ذلك لم يذكر لهم شيئاً عن البلاد التي زارها غير كاليفورنيا مشيراً اليها اتفاقاً كبلاد أقام فيها فيما مضى

تحولت الآنسة برودفوت نحو القسيس وقالت

— أليس من الغريب أن يتحمل شباننا المشاق و يذهبوا للعيش بين عباد الاصنام ؟

وكان المامها بعلم الجغرافيا سقيما بلا مراء ولكن لم يقدم أحد على تصحيح خطئها احتراما لجنسها وسنها فاستطردت فى حديثها قائلة

ـ أظن انك التقيت بارساليات الدينية هناك ؟ ان جمعياتنا الدينية تقوم بأمور مدهشة فى جميع انحاء العالم

لم يطق الطبيب السكوت عند ذلك فاعترض عليها قائلا

ـ ولكن ألا تعلمين أن كاليفورينا جزء من الولايات المتحدة الاميركية ؟

فابتسمت العجوز وقالت

ـ ما أجهلني . نعم ان الاميركيين شعب متعلم

فقال القسيس

ـ نعم لا يمكن القول الآن بأن أميركا « بالوعة انكلترا العامة » كما كانت تسمى وأنا صبى

أحدق جان النظر الى وجوههم الواحد بعد الآخر وقد تولته الدهشة ثم اعترض قائلا

ـ ولكن أميركا أكبر بلاد للجنس الانجلوسكسونى وأعظمها رخاء ويفوقنا الاميركيون الآن فى كثير من الامور

امتعضت العجوز بحالة جلية ثم قالت ببرود

ـ لا ريب في أنك تجهل انكلترا

فقال جان بلهجة التأكيد

ـ ان انكلترا هذه قد تموت ولكن الانكليز سيعيشون وأينما استقروا في مكان فانهم يظنون دائما انها بلاد الله ويظنون أنفسهم الشعب المختار

فنظرت العجوز اليه باهتمام وقالت

ـ أري انك عولت على الاقامة والاستقرار هنا ؟

فأجابها ان قائلا

ـ نعم . أظن ان رحلاتى قد انتهت

فنظرت اليه ثانية وقالت

ـ لقد وضعك الله في مركز عظيم التبعة فنتمنى لك النجاح في القيام بواجباتك .

فتنهد القسيس ـ وكان اسمه جلين ـ ثم قال

ـ نعم وأيم الحق ، اخبرني يا سيدي هل أنت متزوج ؟

فأجابه جان قائلا

ـ كلا

فوضعت العجوز يدها على ذراعه ثم ابتسمت وقالت

ـ سنبحث لك عن زوجة

دهش جان وغير موضوع الحديث في الحال قائلا

ـ الآن ما قولك فى الثياب العتيقة ؟

فاحمر وجه المستر جلين قليلا وقال

ـ لقد ارتكبت غلطة سخيفة . الآن اخبرني ماذا تريد مني عمله ؟

ـ سأعود اليوم الى لندن فأريد منك أثناء غيابي أن تتفقد جميع الاشياء التي كان يرتديها عمي فتعطي الفقراء كل شيء منها تراه غير لازم لي، واني ادعك تحكم رأيك فى ذلك

فقال القسيس

ـ ان هذه مهمة تثير الحزن

ـ لا ريب عندي في ذلك ولكن أقول لك صراحة انني سأحرق عند عودتي كل شيء أراه عديم الفائدة

فرفع القسيس يديه ونفخ الطبيب بأنفه ونظرت مس برودفوت اليه نظرة ملؤها الاستياء والامتعاض وقالت

ـ ان هذا عمل ينطوي على الشطط . أليس كذلك ؟

أحس جان بحرج موقفه وعلم انه أحدث تأثيرا سيئا في نفوس سامعيه فحاول انه يعبر عن رأيه قائلا

ـ ترون ان عمى مات فجأة وان أدواته مبعثرة فى المنزل . ولست أريد الاحتفاظ الا بأثاث المنزل والأدوات الفضية والكتب وغير ذلك ولكنى سأتولى كل هذا بنفسى

حولت العجوز رأسها فجأة ودهش جان اذ رآها تبكي وتمسح دموعها بمنديلها . واذ ذاك سخط على نفسه وتمنى لو ابتلعته الارض ثم نظر بيأس وقنوط فى القسيس والطبيب وقال متلعثما

ـ لم أر عمي منذ طفولتي وعلى ذلك أعد نفسى غريبا

فقال المستر جايلز

ـ كان عمك صديقنا العزيز

الفصل السادس

« الاستقرار »

بينما كان المحتشدون في كنيسة افرسفيلد الصغيرة يرتلون الترنيمة الاخيرة من صلاة الصباح ، مرت شمس شهر اكتوبر من خلف سحابة فسقطت أشعتها من خلال زجاج النافذة على جسم فتاة فى مقتبل العمر فاتجهت اليها أنظار كثيرين فى الحال . ولا عجب فقد بدت الفتاة وهى واقفة وسط هذه الاشعة البديعة مثل ملاك صغير هبط من السماء ، تحمل فى يدها كتاب التراتيل ، وترتل الترنيمة المعروفة بصوت رائق رخيم

كانت هذه الفتاة تدعي دوروثي دارلنج ولكن والدتها ، وكانت واقفة الى جانبها فى ظل الحائط ، تناديها باسم « دورا » تعزيزا لها منذ نعومة أظفارها فانطبق عليها هذا الاسم خصوصا الان وهى شابة فى الثالثة والعشرين من عمرها

لمع شعر الفتاة الناعم الاصفر فى أشعة الشمس مثل خياط ذهبية رقيقة و بدا جلدها كالمرجان و زاد شكل النور والظل في ملاحة قوامها فلم يختف تحت طيات ردائها . وكانت عيناها الزرقاوان الجميلتان تنمان على السذاجة فلم تبد منها التفاتة أو حركة تدل على انها ترتل بصوتها العذب الرقيق لكي تجذب اليها انظار صاحب المزرعة الجديد وهو جالس في المكان الخاص بأسرته

وكانت الكنيسة الصغيرة ، على رغم رجوع عهدها الى القرن الثاني عشر ، لا تزال حافظة لشكلها الأثري القديم وفى اجزائها ما يدل على

اهتمام أل تفدرنج وست بها وتمميزها كلما تتطرق اليها الخلل

لما فرغ المصلون من ترتيل الترنيمة وبارك المسترجلين ثم نزل من فوق منصة الوعظ ، لم يتحرك أحد من الحضور حتى خرج جان أولا تتبعه مسز دارلنج وابنتها والدكتور سبور وزوجته والعجوز مس برودفوت

وقف جان فى الخارج فى هواء شهر اكتوبر تحت شجرة من شجر السنديان ثم تحول لكى يحيى السيدة وابنتها . وكانت دورا قد أثارت اهتمامه وجذبت قلبه نحوها خلال الاشهر الثلاثة التي أقامها في القرية . على انه كان مشتغلا باعداد ما يلزمه لكي يستقر فى منزله الجديد فلم يستطع أن يعيرها الاهتمام اللائق بها بعد أن تجلت له محاسنها الآن وهى واقفة في ضوء الشمس فى الكنيسة

حياها جان بابتهاج كما لو كانت لقية جديدة ثم سار الى جانبها وجانب والدتها في الطريق الذي يجتاز القبور المغشاة بالحشائش

وكان جان قد تغير الآن تغيرا عظيما منذ عودته الى انكلترا فعادت اليه كثير من الطباع العادية ونزعت العيشة الهادئة الريفية كثيرا من أفكاره الغريبة

ولا عجب فقد كان يبحث عن الافكار الغريبة في الشرق المملوءة بالغرائب أما الآن وقد استقر فى الغرب الهادىء فان أفكاره تحولت نحو الحياة الهادئة الساكنة

تحول جان نحو الام وقال بابتهاج وحماسة

ـ ما أجمل الصورة التى ظهرت بها ابنتك وهي واقفة ترتل في أشعة الشمس

فتنهدت المرأة وذكرت انها كانت منذ عشرين عاما صورة جميلة

كذلك ثم قالت

ـ نعم ان دورا ذات صوت جميل

فقال جان

ـ انه صوت عذب رخيم ولم اكن من قبل أعلم ان الترانيم ترتل بمثل هذا الصوت البديع

فنظرت اليه الفتاة نظرة تشبه نظرة أمهات جداتنا عند ما يقلن « اخسأ » في نظرة ملؤها البساطة ثم سألته قائلة

ـ ألست مواظبا على الذهاب الى الكنيسة ؟

فضحك جان وقال

ـ لا أستطيع أن أقول ذلك لأن كل هذا جديد لدي كما تعلمون ولكن لا بد لي من أن أشغل المقعد الخاص بأسرتي في الكنيسة

فقالت مسز داراج

ـ ان الحياة هنا جميلة

أظن انني سأتعود العيش هنا ولعمري بدأت أستقر في هذه القرية

وكانوا يبتعدون عن أبواب صاحب المزرعة المقابلة للكنيسة ويقتربون من المنزل الصغير الذي تقطنه السيدة وابنتها فوقف جان واذ ذاك شعرت دورا فجأة بانقباض فقد كانت ترجو ان يرافقهما الى باب المنزل وان تغريه على الدخول لكي تريه غرف المنزل الجميلة والحديقة والكرم

كانت مقابلاتهما الى الآن عرضا وأحاديثهما التافهة القليلة تدور في الطريق أو على باب الكنيسة أو خارج المنزل ولذا اعتقدت الفتاة أنه رجل من الصعب استمالته . ولما كانت أفكارها قد اشتغلت به في خلال الأسابيع القليلة الماضية فقد شعرت بانها فشلت في مساعيها لتسميه

صداقتها . وقد يكون الفشل نصيب المرأة ولكنه كثيرا ما يكون المغري لها على العمل وهي في شبابها . وفي الواقع قالت الفتاة

- هل لك في القدوم منا ورؤية منزلنا الصغير ؟ انه في نظري مثل كنز

فهز جان رأسه وقال

- أخشى أن لا أستطيع ذلك لانني وعدت البستاني بتفقد المكان وأظنه في انتظاري الان ولكن

ما تقولان في القدوم الليلة لنتعشي معا ؟

ابتهجت الفتاة ، وفي طرفة عين اختارت الثوب الذي ترتديه والحلي التي تتزين بها في حين تمتمت والدتها قائلة

- اننا نقبل الدعوة بكل سرور . اليس كذلك يا دورا ؟

فتظاهرت الفتاة بالارتياب وقالت

- لا أدري ماذا يجب علينا عمله الليلة فقد أعطينا شبه وعد بالسفر الى اكسفورد لمهمة خيرية

فقال جان

- لا تخيبي رجائي . لقد فرغت من تنظيم المنزل وأود أن تريه

وكانت دورا في الواقع لا تحتاج الي ضغط أو الحاح وعلى ذلك لم يلبث أن حياها الشاب وعاد في طريقه الي منزله وهو يعجب كيف قضى ثلاثة شهور حتى علم ان هذه الفتاة جميلة فتانة بينما كانت الفتاة تضغط على ذراع أمها وهما سائرتان وتقول

أليس جميلا يا أماه

فقالت أمها عند دخولها المنزل

- نعم ولكن لماذا قلت اننا على موعد آخر لم اسمع به الا من فيك

فتبسمت دورا وقالت

ـ لقد فعلت ذلك لانني زعمت انك قبلت الدعوة بسرعة اكثر مما يجب ألا تعلمين ان الرجال لا يطلبون الا من أظهر لهم التمنع ؟

نفخت مسز دارلنج بأنفها . وكانت امرأة سمينة الجسم قصيرة القامة قليلة الحركة وكثيرا ما كانت تسأم من أعمال ابنتها المنطوية على الحذق والمهارة في معالجة مثل هذه الامور لأنها كانت وهي الان في الخامسة والاربعين من عمرها اكثر تساهلا في قولها « نعم » و « لا » ولا غرابة فقد عاملها العالم بقسوة بحيث كانت تميل الان الى قبول كل شيء فيه شيء من السرور دون القيام بأي مناورة

وكان زوجها قد غادرها وابنتها في الخامسة من عمرها وكل ما تعرفه عنه انه مات . وقد مكثت بضع سنين تكافح الحياة بشجاعة فعاشت في غرفتين بسيطتين في « كنسنجتون » مما كانت تكسبه من كتابة مقالات عن الحياة الاجتماعية ودور الملاهي في الصحف الاسبوعية الصغيرة واستمرت في عملها هذا الى أن أدرك محررو الصحف انها لا تكتب ما تعتقد فاستغنوا عنها

أخيرا اتبعت نصيحة ابنتها وفتحت محلا صغيرا في ميدان « سلون » سمته « المخزن القرمزي » حيث أخذت تتجر في بضائع كلها ذات لون قرمزي كمظلات المصابيح والمتكات والكتب الشعرية المجلدة بلون قرمزي وغير ذلك . على ان اللون القرمزي لم يعد من الالون الحديثة فانحطت ارباحها الى لا شيء تقريبا فجاءت ببضائع ذات الوان أخرى مثل اللون الارجواني والبنفسجي

انحطت حالتها المالية بعد ذلك و بعد مراوغة دائنيها بضع شهور

سمعت قرية افرسفيلد وهذا والمنزل الصغير الذى تقطن فيه الان ففرت اليه مع ابنتها دون أن تترك عنوانها . وكانت تأخذ مرتبا سنويا صغيرا من ضيعة شقيق توفى لها فعادت الان الى الكتابة في صحيفة شهرية حقيرة باسم مستعار هو « الكونتس » و بذا حصلت على مبلغ ضئيل أخذت تعيش به و بالمبلغ الاخر مع ابنتها

وكانت قد مضى عليها الان ثمانية شهور وهى على هذه الحال في هذا المكان المنعزل. بيد انها كانت أحسن فأخذت تهتم بشئون منزلها الصغير وتزور قليلا من اصدقائها في لندن ولم يعد اللون القرمزي يرعد جسمها

أما دورا فقد وجدت في هذه العزلة التي اكرهت عليها اكراها محنة لها وكثيرا ما احمرت عيناها الجميلتان من البكاء . وفي الواقع سئمت نفسها هذه الحياة العقيمة التي فرضت عليها افتراضاً ولكن لما كانت صاحب المزرعة الشاب قد جاء الآن فقد ذهبت أحزانها وتغيرت أطوارها وعرف الابتهاج سبيلا الى قلبها . فكانت تحب وجهه الاسمر وعينيه الحادتين وظنت انه يبدو كرجال الفن وأصحاب المدارك الواسعة

وعلى ذلك قضت دورا الوقت بعد الظهر في حالة قلق مقرون بالفرح والابتهاج . تهيء الثوب الذى استقر رأيها على لبسه وتغير فيه أشياء معينة لكي تزيده جمالا

و بينا كانت الفتاة تشتغل في تنميق ثوبها كانت والدتها جالسة بجوار نافذة منخفضة تطل على الكومة . تكتب مقالها الشهري . وكانت تبتسم بكسل لما تكتب ولكنها تنهدت مرة تنهيدة عميقة فسألتها دورا هل هناك شيء يؤلمها فأجابتها أمها قائلة

ـ كلا . انى أعجب فقط في نفسي قائلة هل يوجد أ.ض حافظون

لقواهم العقلية فى وسعهم أن يفهموا ما أكتب . لقد تلقيت أمرا من رئيس التحرير يوصينى بأن أصبغ رسالتى بالصبغة الفرنسية ويهددني بالاستغناء عني اذا كتبت كتابة انكليزية واضحة

فتنهدت دورا وقالت

ـ أواه يا أماه . ما أشق العيش . لا أدرى هل تستطيعين الاستغناء عنها .

فقالت أمها بتألم

ـ انني مرغمة علي مواصلة هذا العمل الشاق الى أن تتزوجى

فقال الفتاة

ـ نعم هذا ما تقولينه دائما

واذ ذاك عادت كل منهما الى التزام الصمت والسكوت

كان الليل قد أرخى سدوله عند ما خرجت دورا وأمها من منزلها وسارتا فى طريقهما الى منزل صاحب المزرعة ، وكانت الظلمة حالكة على أنهما استرشدتا بالنور الذى كان منبعثاً من النافذة المجاورة لباب المنزل الخارجى وقد رافقهما البستاني من هذه النقطة الى المنزل وهو يحمل مصباحاً .

قابلهما جان اذ ذاك ـ وقد رأت دورا مما ارتسم على وجهه أن ثوبها نال اعجابه ـ ثم سار أمامها الى المكتبة المتيقة ومنها الى غرفة الطعام حيث جلسوا حول منضدة مضاءة بنور ساطع

قدمت الخادمة الطعام فلما شرعوا فى الا كل وجد جان ان بعض الاصناف لم يكن متقنا فاضطر الى تقديم المعاذير قائلا وهو يضحك

ـ عليكما أن تحتملا قائمة الطعام لان هذه أول مرة صنعت فيها الخادمة

الطعام . وقد قدمها الى المستر جاهن راعى الكنيسة قائلا انها فتاة قابلة للتعليم ولكن رأيت فيما بعد أن لا فائدة من هذا الكلام اذ لا يوجد من يعلمها

فقالت دورا

ـ دعنى أعطها بعض دروس قليلة

فنظرت اليها أمها دهشة لأنها كانت تعلم أن ابنتها لا تقل في أمور الطهى جهلا عن تلك الخادمة

على أن دورا لم تكن تشعر أن فى قولها هذا خداعاً ولا كانت تعلم بانها تمثل دورا لمصلحتها الخاصة . وفي الواقع كانت تتمثل نفسها ربة منزل صغيرة وتتصور انها زوجة صاحب المزرعة تدير شؤون منزله بكل هدوء وعقل وتعد نفسها مصباحا ينير هذا المنزل الكبير العتيق . ومنبعاً لراحة زوجها لا يعرف قيمتها الا اذا عادت للاقامة مع أمها واذ ذاك يكتب اليها و يقول لها ان جميع شئون المنزل ارتبكت بعد ذهابها

وكانت دورا قد لعبت أثناء حياتها مثل هذه الادوار فى ظروف مختلفة . فكانت فى « الحزن القرمزي » المصورة الصغيرة ذات الاحلام التى هيأتها الطبيعة للرقى الى درجة أعلى ولكن الفقر القاسى أكرهها على أن تكون مساعدة لأمها البائسة وأن تبتسم بشجاعة فى وجه العالم . ولو أن قلبها كان يتألم فى داخلها

ولما وصلت مع أمها الى قرية افرسفيلد وقعت تحت تأثير الحقول والغابات الخضراء فأخذت تتنقل بين الحقول والمروج وتوسلت الى أمها لكي تشترى لها آلة موسيقية من ذوات الاوتار . وكانت قد التحقت بجمعية من جمعيات النساء فى اكسفورد لاحياء الرقص بين القرويات

وأخذت بعد ذلك تتوغل داخل الغابات ثم أرسلت شعرها فكان يبدو في ضوء الشمس مثل خيوط دقيقة ذهبية وهي تنتقل من شجرة الى أخرى وترقص وتغنى وتناجي الطيور

كانت دورا تفعل ذلك فيما مضى أما الان فقد أخذت منذ وصول صاحب المزرعة الجديد تلعب دور الشريكة الصغيرة والزوجة الحريصة في منزلها وتظهر فى ذلك حاجة عظيمة

لم يكن هذا هو المظهر الوحيد الذي اظهرت به اهتمامها بشئون جان المنزلية فقد طلبت اليه بعد فراغهم من تناول الطعام وانتقالهم الى غرفة المكتبة أن يريها غرفة الاستقبال التى لم تكن قد أعدت بعد لجلوس الزائرين فلما قام لمرافقتها أشارت الى أمها من طرف خفى لكي لا ترافقهما

وبينما كانت سائرة بخفة فى الردهـة بجانب جان وضعت يدها فى ذراعه التى قدمها اليها واذ ذاك دهش لخفة أصابعها . وكانت الغرفة مظلمة فلم تكد الفتاة تخطو داخلهـا حتى اضطربت وصرخت صرخـة صغيرة اخترقت قلبه كما أرادت فمد يده الأخرى وامسك يدها التى كانت تريد الاحتماء به ثم قال

ـ لا تخافى . انتظري لحظة . سأنير المصباح

ـ كلا . لا تفعل . ان المكان رهيب وغريب

تقدمت الفتاة الى وسط الغرفة التى كان لا يضيئها غير النور الضئيل المنعكس من الرحبة الخارجية ثم وقفت فتبعها ووقف على مقربة منها ولو كان معهما ثالث لسمع دقات قلبيهما الشديدة

أخيرا أمسك يدها فوجدها باردة تضطرب فقال دهشا

ـ ماذا . أراك ترتعدين خوفا

فقالت متلعثمة

ـ كلا . لا ارتعد خوفا

شعر جان اذ ذاك بصوت الحكمة يناديه قائلا

ـ احذر . انك على مقربة من منطقة الخطر

فأرخى يده في الحال وأشعل عودا من الكبريت وأنار المصباح

فصاحت دورا بشيء من التألم قائلة

ـ لقد أفسدت الامر

ثم أسرعت قائلة

ـ لقد ذهبت الاشباح

رفع جان المصباح فى يدة واخبرها ان تلقى نظرة على الغرفة و بينما كانت تفعل ذلك القي نظرة على وجهها من الجانب لو رآها لادركت فى الحال انها كانت على وشك الفوز

الفصل السابع

دورة الحياة

جاء المستر جابن بعد ظهر اليوم التالى لزيارة المنزل . وكان جان قد أعطاه بصفته أقرب أصدقاء عمه . جميع الخطابات والمذكرات والاوراق الاخرى وطلب اليه يبحث عما فيها ولما كان قد فرغ من هذه المهمة فقد جاء بها الآن ملفوفة بعناية على شكل رزمة كبيرة

وبينما كان الكاهن يدخل المنزل اذ سمع صوت غناء ونغمات آلة موسيقية ذات أوتار فوقف وسأل الخادمة قائلا

ـ ما هذا ؟

فابتسمت الخادمة وكانت صديقة له منذ طفولتها وقالت

ـ لا شيء . ان السيد يوقع على قيثارته وهذه عادته . وقد قالت الطاهية ان عادته هذه ترجع الى ما يجرى فى عروقه من الدم الاجنبى

فاعترض المستر جابن على قولها هذا قائلا

ـ ولكن ليس فيه دم أجنبى

فقال الخادمة .

ـ ان أطواره وصفاته مثل الاجانب ..

ثم سكتت وقد ذكرت واجبها

دخل القس غرفة الاستقبال حيث وجد جان جالساً على المتكأ وفى يده قيثارته فلما وقع نظره عليه تملكه الحياء وقال

ـ أسألك المعذرة

وكان جان لا يدرك ان الغناء انما هو صياح أعدته الطبيعة ليكون مخرجاً للشعور والعواطف . وكانت هذه العواطف الآن على شيء من الشدة لانه كان مغرماً ولو انه كان يجهل ورطته

وكان جان قد خرج قبل عودته الى المنزل للرياضة في الغابات المجاورة لكي يزيل انقباضاً في نفسه قال في نفسه انه ناشيء عن هذا المنزل العتيق الذي خيل اليه انه فخ نصبه الأجداد لايقاع الأحفاد ليعلموهم طرقهم وأخلاقهم .

تبسم المستر جلين وقال

– سأنتفع بصوتك هذا في الكنيسة

فأراد جان أن يستبدل الموضوع بآخر فسأل الكاهن عن ماهية الاوراق التي كان قد وضعها على المنضدة فقال المستر جلين انها تشمل خطابات عمه ثم فك الجزمة وقال

– لقد فحصتها كلها عدا هذه الربطة الصغيرة وأظن انه يجدر الاحتفاظ بها لانها تدل على أخلاق عمك النبيلة بطرق مختلفة

فقال جان

– أري انه كان شيخا صالحا

فقال الكاهن

– نعم هو ما تقول وايم الحق فقد كان عنوان الحياة الصالحة

ثم استطرد في ذكر فضائل الشيخ المتوفى وجان يصغي اليه باهتمام أخيرا نظر الكاهن الى الربطة التي لم يفتحها وقال

– لقد خطرت ببالي اشياء كثيرة فيما يتعلق بما يجب عمله بهذه الاوراق لانه مكتوب عليها كما ترى « يجب اتلافها عند وفاتي » . ولا

ريب في ان هذه الكلمات لا تدل حتما على انه يجب عدم قراءة ما فيها ولكنى رأيت أن أستشيرك في الامر أولا

فقال جان

ـ شكرا لك . سأنظر ما فيها فيما بعد

ثم فتح درج مكتبه ووضع الخطابات به في حين كان الكاهن يراقبه وهو يشعر باستياء لان الشاب لم يدعه الى فتح رزمة الأوراق التي لا تزال مربوطة أمامه

وجد جان نفسه منفردا فيما بعد تناول هذه الحزمة الغريبة من درج مكتبه ثم جلس على مقعد بجانب المدفأ وقطع الاربطة

تجلت ماهية هذه الاوراق في الحال فقد رأى انها تتضمن ذكرى عواطف قلبية ولاحظ من نظرة صغيرة الى خطابين أو ثلاثة منها ان الكاتبة ليست امرأة عمه فقال بلهجة تنم على الارتياح

ـ لقد كان الشيخ الذى يدعونه انموذجا للكمال . رجلا من البشر مثلنا

تتبع جان ما جاء في الصحائف المكتوبة بخط ردىء فرأى ان القصة يرجع عهدها الى نحو عشرين عاما ولاحظ ان السيدة ، وكانت تدعى أميلي ، وهبت قلبها لحبيبها وكان اذ ذاك متوسط العمر ، وانها كانت مبتهجة بالمنزل الصغير الذى أعده لها في احدى ضواحي لندن . وقد صارت أما بعد عامين أو ثلاثة ولكن الطفل مات اذ عثر جان على كتاب بثت الام فيه حزنها . ثم تقوى مركزها وصارت الامرة الناهية في المنزل الثاني وقد انتهت القصة بأن تزوجت اميلي هذه وهي في اربعين من عمرها بشاب كاتب في لندن . أما عمه فلم ينل عند نهاية حياته

المزدوجة غير منديل صغير لاميلي هذه ووردة جافة

قال جان عند ما فرغ من تلاوة الاوراق

ـ حسن يا اميلي . انني أتمنى لك السعادة اينما كنت

ثم القي الاوراق في الموقد

مال جان هنيهة في مقعده الى الوراء في نور الموقد وذراعاه خلف رأسه ثم أخذ يفكر في هذه القصة التي عثر عليها فقال في نفسه ان في وسع الانسان أن يفعل ما يشاء على شرط ان يخفي نقائصه عن جيرانه . فهل يعد هذا رياء يا ترى ؟ أو هل هناك مبدأ مستتر ؟ ألم يقل بالاتو : يجب أن يبذل الانسان جهده لكي لا يظهر في عين أحد انه من معدن وضيع ؟

حار جان في الامر وقال في نفسه ما يقول المستر جلين اومس برود فوت لو علم ان عمه كان يعيش عيشة مزدوجة ؟ أين يكون اذ ذاك النموذج الجميل للحياة الصالحة الذي خلفه عمه لجميع جيرانه ؟ ألم يكن من الملائم كتمان السر ؟

القى جان علي نفسه كل هذه الاسئلة ولكنه لم يجد جوابا وكل ما لاحظه ان العشرة الجميلة ليست قائمة على الحقيقة بل على اخفاء الحقيقة وانه كلما زاد الغلو في الادعاء ارتفع المستوي الذي نعيش فيه

اخيرا تمتم الشاب قائلا

حقا اننا معشر الانجلوسكسونيين مراؤن ولكن رياءنا هذا هو الذي يقينا من الاقذار والاوساخ !

فاه جان بهذه الكلمات ثم عاد الى قيثارته

* * *

رافق جان بعد بضعة أيام دورا الى الحقول . وكانت شمس الخريف

ترسل اشعتها بعد الظهر من سماء صافية ومع ذلك كانت الرياح تهب باردة منبئة بقرب هطول الامطار والثلوج

سار الاثنان وسط المروج الخضراء الى أن جلسا فوق مقعد خشبي تحت شجرة بلوط فبدأ جان الحديث قائلا

ـ لا ادرى كيف استطيع احتمال برد الشتاء في انكلترا . انظري الى أغصان هذه الشجرة . لقد أخذت تتساقط أوراقها

ثم ارتعد جسمه من البرد فنظرت الفتاة اليه نظرة تنطوي على اللوم وقالت

ـ يحزنني ان اسمعك تقول ذلك . انني أحب الشتاء لانني ابنة « الشمال » كما تعلم . انني أجد في السماء الملبدة بالغيوم وأغصان الاشجار العارية معني لا استطيع شرحه . فكر في الليالى الطويلة المظلمة . فكر في انكماش الانسان في فراشه

نظر جان اليها فابتسمت له بعينيها اللتين تنمان عن البساطة والسذاجة ثم استطردت في حديثها قائلة

ـ فكر في الثلوج التي تغشى الارض وستراني عندما أسير فوقها بحذائي الضخم

فقال جان

ـ أظن ان منزلى ليس دافئا

ـ ان في وسعك أن تفعل ذلك فائت بكتل ضخمة من الخشب . ولو كنت مكانك لاشتريت بعض ستائر ووضعتها خلف المقاعد وحول النيران فيكون لديك زوايا صغيرة تستكن فيها وتدفأ مثل السلحفاة

ـ هذه فكرة حسنة

فسألته قائلة

ـ هل لديك صدرية من الصوف ؟

فلما أجابها سلباً قالت

ـ سأحبك لك صدرية جميلة

وبينما كانا يسيران معاً أفاضت دوراً في الكلام على مناظر الفتاة الجميلة وأخذت تصف محاسنه بحيث زعم جان أنه سيجد فيه سعادة غير منتظرة

وكانت الفتاة تحاول أن تزج بنفسها في جميع المناظر التي وصفتها فكانت تمثل نفسها تارة كفتاة كثيرة الضحك والتنقل في الهواء وأخرى مثل فرخ صغير يميل الى الدفء والانكماش فقالت

ـ أري مما شهدته تلك الليلة أن لديك مورداً جميلا للمياه الساخنة ففي وسعك أن تتمتع بحمام ساخن جميل: انى مغرمة بالحمامات الساخنة قبل الذهاب الى الفراش والانكماش تحت الغطاء في حضن أمي

ألقى جان عليها نظرة أخرى وهو يعجب من قولها . على أنه رأى ثانية دلائل السذاجة في عينيها

وصلا في طريقهما الى حقل كانت ترعى به بعض الابقار فلما رأتها دوراً ترددت وقالت بشيء من الارتباك

ـ قد ترميني بالسذاجة المتناهية ولكني أخاف من البقر

فتبسم جان وقال

ـ لاتخافي : خذي ذراعي

ثم وضع ذراعه في ذراعها ووضع يده على أصابعها

نظرت الفتاة بقلق الى بقرة كانت تتحرك نحوهما وقالت بصوت خافت

ـ هل تظن أن البقرة مثل الثور ؟

ثم جذبت ذراعه واستحثته على السير الى الامام فشدد الضغط اذ

ذلك على يدها وجذبها نحوه

كانت هذه حادثة عادية لا يظن أحد أنه يتأثر منها لأن حماية رجل لفتاة خائفة ، من الحوادث المألوفة ولكن تلك القوة الغشومة العنيفة التي تسمى « الطبيعة » قد استخدمت مرة أخرى حيلتها العادية لايقاعه وفي الواقع كان جان مبتهجاً بقوته الحامية ، فرحا بدقات قلب فتاة خائفة

وكانت البقرة تتقدم نحوهما في خلال ذلك الى أن ضربت الارض برجليها الخلفيتين واندفعت نحوهما فصرخت الفتاة اذ ذاك وأمسكت بسترة جان وقالت

ـ انني واثقة من أنها ستنطحنا . هيا بنا نفر من وجهها

على أن جان لم يحفل بقولها هذا وتقدم بشجاعة نحو البقرة وضربها بقبضة يده على كفلها فذعرت وفرت الى الحقل

قالت الفتاة اذ ذاك بصوت خافت

ـ ما أشجعك !

ولكنه أجابها بدون اكتراث قائلا

ـ قول هراء . انك تعلمين أن الفلاحين لا يضعون مواشيهم على مقربة من طريق يجتازه الناس مالم يكونوا واثقين من أنها أليفة

ولكن مهما يكن من أمر هـذا الحادث فقد استخدمت الطبيعة في نصب شركها القديم فزادت علاقته بالفتاة بطريقة غامضة بحيث شعر بالاستياء عند توديعها وطلب اليها مقابلتها ثانية بعد مدة وجيزة فقالت

ـ أريد الذهاب الى اكسفورد غداً مساء لسماع محاضرة . ولكن أمي ستذهب الى لندن ولا تعود في وقت يسمح لها بمرافقتي فهل ترغب في مرافقتي؟

فسألها قائلا

ـ ماهو موضوع المحاضرة

فأجابته قائلة

ـ عن تربية الطفل . انني أحب كل شيء يتعلق بالاطفال . والجميع يقولون أن الاستاذ روبرتس غريب لانه يعتقد أن طباع الطفل تتكون في الثلاثة الاعوام أو الاربعة الاولى ويرى أن على الفتاة أن تتعلم مايجب عليها عمله بحيث عند ماتلد أولادا .

وقفت دوراً عن الكلام وقد ارتسمت على وجهها دلائل الاحلام وتجلت في عينيها نظرة يسميها علماء النفس « حنان الأم »

رأى جان ماتجلي فى عينى الفتاة فشعر بالعاطفة نفسها . وقد سئل بوذا يوما عما يجب عمله وهو فى حضرة المرأة فأجاب سائله جوابا ينطوى على الحكمة قائلا : يجب أن تكون شديد الحذر

قال جان

حسن سآمر السائق باعداد المركبة

فأخبرته أن المحاضرة تبدأ الساعة التاسعة مساء فغادرها بعد أن وعدها بالذهاب اليها في الوقت المناسب

وجد جان نفسه منفرداً في غرفته فلم يستطع أن ينبذ فكرتها من مخيلته . وربما لم يكن في ذلك مايدعو الى العجب لانها كانت فتاة جميلة رقيقة تمثل الملاحة النسائية وهو شاب في مقتبل العمر . على أنه لم يستطع على كل حال أن يتتبع مناورتها وسمح لنفسه بالاذعان لعواطفه ولو أنه لم تكن هناك طريقة مقصودة فى حركاتها ولم تستخدم غير الحيل التي جاءت اليها اتفاقا

كان يجدر بجان أن يعرف من تجاربه ان المرأة التى تخاطب الرجل

بسذاجة فى مواضيع مألوفة دون غرض أوغاية انما هى رسول الطبيعة المغريه وانهـا تقود أفكاره في تلك الجهة التي هي الغرض الذى ترمي اليه فى حياتها طبقاً لوحى الطبيعة التى لاتحفل بشيء يتعلق بالجسم أو الروح أو النفس

كانت أشهر الصيف والخريف الهادئة التى قضاها جان فى بلاد الريف في انكلترا قد زادته رزانة وذهبت عنه تلك التصورات الطائشة . وفى الواقع قال في نفسه

ـ لقد ورثت هذا المنزل العتيق فيجب على أن أبحث عن زوجة تساعدنى في الحياة

كانت الفتاة قد حركت عواطفه . ولا عجب فقد وجدهافتاةجميلة قروية تعلمت فى مدرسة الماقه ، رقيقة حسناء ستنتقل في بيتها وهى تضحك وتغني ، تهيء منزلها وترتب غرفه وفي المساء تجلس على مقعدها تشتغل بالتطريز . وسيكون من دواعي السرور أن تتزين بالملابس الجميلة والحلي البديعة وتنتقل معه فى لندن لكي يريها العالم ويعطيها مفاتيح الحياة . لقـد عانى كثيراً من آلام الوحشه بسبب وحدته ولكن متى صارت الى جانبه ذهب عنه هذا المرض النفسانى وتلاشي لأنه لم يكن يمثل هذه الترهات الفارغة ، عند مالا يكون هناك حب صحيح ، تحجب الطبيعة التي لاضمير لها شيئا كهاوتخفي ماتريده وراء ستار جميل ولا ريب في أن جميع الشبان والفتيات مثل أحجار شطرنج على رقعة الحياة المروعة . وسواء كان نصيبهم السعادة أو الشقاء فان هذه مسألة لاتهم « اللاعب » ولكن لحسن الحظ هناك أرواح كما أن هناك أجساما يفوق بعضها الطبيعة قوة

والحقيقة البارزة هي أن جان كان لا يصلح مطلقاً للحياة الهادئة . وفي الواقع كانت نفسه متشبعة بحب التجول والنفور من مخالطة الناس. وقد ضاعت هذه الغريزة أو بالحرى خفت قليلا بسبب الاملاك التي ورثها وشعوره بالعزلة والانفراد منذ جاء للاقامة في المنزل العتيق بعد الذي أصابه في المنزل المهجور ببلدة « كوم السلطان » . وكان كما يقولون رجلا بدوياً خشناً من سكان الصحاري والقفار ، هبط الى هذه القرية ثم جاءت هذه الفتاة فأسدلت ستاراً على حياته الماضية وأنسته رحلاته البعيدة وتجولاته .

وقد أحدثت حقول اكسفورد ومناظرها الطبيعية تغييراً في نفسه كذلك فانه لا يقيم رجل تحت تأثيرها وتكون له حريته العقلية . وفي الواقع تعد هذه البلاد مثل عقاقير ملطفة أو مثل أشعار تعلم النفس غرور الحياة وما فيها من الكد والنضال وتدفعه الى السير في طريق هادئة تؤدي الى الاستقرار والزواج والتناسل

* * *

في مساء اليوم التالي جاء السائق هولك بعربته وأقلهما الى اكسفورد وكان الليل شديد البرد فسارت العربة وسلط الظلام وقد جلس جان ودورا جنباً الى جنب وعلى أرجلهما غطاء من الفرو

قال جان عند ما وصلت العربة الى المكان الذي يقصدانه

ـ لا أظن أنني سمعت محاضرة في حياتي كلها

فاجابته دورا قائلة

ـ ولا أنا حتى جئنا للمقام في أفرسفيلد . ولكن يلوح لي أن هذه هي الخطة القويمة التي يجب اتباعها في اكسفورد

ثم عادت فقالت

أعني ألذ شيء يمكن القيام به

القيت المحاضرة في قاعة من احدى الجامعات وقد أثار المحاضر حماسة الحاضرين ومعظمهم من النساء بقوله أن اليد التي تهذب الطفل وتربيه تحكم العالم وأن معركة ووترلو ربحت بفضل الام

انتهت المحاضرة بعد الساعة العاشرة فركب جان ودورا العربة وسارت بهما عائدة الى القرية . على أنه لم تكد تصل المركبة الى أطراف اكسفورد حتى أخذت دورا تتثاءب قائلة

ـ لقد تنقلت اليوم بين الغابات وأكاد الآن لا أستطيع أن افتح عيني

وضع جان غطاء الفرو حولها وأمرها أن تمد رجليها الى المقعد المقابل ثم مد ذراعه خلفها وأسند ظهرها ثم رفع قبعتها وأمرها أن تسند رأسها على كتفه وتنام . ففعلت الفتاة ما امرت به دون تردد وبكل سذاجة لأنها كانت تشعر بتعب مثل الطفل

لم يكن داخل العربة غير نور ضئيل منبعث من المصباحين المعلقين على جانبي السائق ولذا لم ير غير خيال شعرها الناعم على كتفه وطرف أنفها

شعر جان بسعادة غريبة وأحس بعاطفة وحنو لا يمكن التغلب عليهما . ولا عجب فقد أظهرت الفتاة سذاجة وايماناً به

وبينما كانت العربة تسير بهما في طريقها أخذ جان يستسلم لأحلامه التي استسلم لها جميع الشبان منذ بدء الخليقة الى الآن . فخيل اليه أنه فقد ألذ شيء في الحياة لانه قلما وجد رفيقا يشاطره الحياة

لم يفكر بالطبع أثناء رحلاته باتخاذ شريكة تشاطره الحياة . أما الآن

وقد انتهت تجولاته فانه ليس ثمة مشاكل تمنعه من الزواج . وقد ذكر ما قاله له أحد المصريين عن الخليفة عمر اذ قال ما معناه : ليست في الحياة نعمة بعد الدين خير من زوجة صالحة

على أن مثل هذه الأفكار ليست الا مجهودات ضعيفة يبذلها العقل لكي يجارى الشعور . فكان مثله كمثل رجل سكران يتكلم بتؤدة وروية لكي يبرهن على أنه ليس ثملا

وفى الواقع لو كانت مداركه سمحت له بأن يكون أميناً مع نفسه لاعترف بأن الاعتبارات الزواج تأثيراً قليلا فيه الان . فقد كان يريد دورا لنفسه ، يريد أن يعانقها ويقبلها وهي نائمة ، يريد أن يشعر بدقات قلبها تحت يده وأن يسمع أنفاسها وهى تتردد بجانب اذنه ..

مال جان برأسه حتى كادت تمس شفتاه جبينها ، واذ ذاك رفعت الفتاة وجهها . وكان غارقا فى حلمه اللذيذ بحيث لم يستطع أن يدرك أن الفتاة ، على رغم ما تشعر به من التعب ، كانت الغالبة وانها استخدمت كل حيلة ووسيلة لكي تفوز بما تاقت اليه نفسها

مكث جان بضع دقائق جامداً وقد تملكه الحياء على ما يظهر الى أن رفعت الفتاة رأسها أخيراً وقالت

ـ آواه لقد نمت هل اقتربنا من المنزل ؟

فأجابها وهو لا يريد أن يصحو من حلمه قائلا

ـــ نعم

رفعت الفتاة بعد ذلك يديها الى رأسها ثم فعلت شيئاً بأصابعها لم يره فى الظلام ولكنه أحس بشعرها وقد سقط على يده وسمعها تقول

ـ آواه لقد انحلت جدائل شعرى

تنفس جان بشدة وقال وهو يلهث

ـ لا تستيقظي . ضعي رأسك كما كان

تنفست الفتاة ارتياحا وأسندت رأسها الى كتفه ثانية ولكن أصابعه العشرة كانت تتخلل شعرها . ثم رأى على نور العربة الضئيل عينيها تنظران اليه وفيهما شيء من الحزن ثم ثغرها وهو مفتوح قليلا فمال وقبلها

الفصل الثامن

الزواج

يقول مثل قديم ان الزواج يتم فى السماء وهو من الاقوال المضحكة والخرافات المنقولة عن القدماء . والواقع أن الزواج فى مظهره المادى من أعمال الطبيعة التى لا روح لها ، التى تنصب الشراك وتدس الدسائس لهذه الغاية ولا تهتم بغرض آخر غير انشاء الجيل المقبل

لا يستطيع أحد أن يلوم دورا اذا كانت قد استخدمت شراك جنسها فى اقتناص الرجل الذى أرادته ، ولا أن يلوم جاك لاستسلامه لشعوره واذعانه لاتحاد الامل فيه بالسعادة ضعيف لان الطبيعة قد نصبت حبالها فى كل مكان وغررت بجميع الشبان والفتيات بهذه الاحلام والوعود

تضع الطبيعة المشروعات وتنصب الشرك لغاية واحدة فقط وهي لا تفكر بالاتحاد الروحي الذى هو النوع الوحيد من الزواج الذى يتم في السماء

ان البشر وهم في عنفوان الصبا آلة في يد الطبيعة تحركهم كيف شاءت ، فضحاياها يترنحون ويتخبطون بعوامل الاشواق والرغبة والوجد والغيرة والافراح والاحزان لانها تعمل في كل مكان للوصول الى غاية واحدة تهمها — هى المحافظة على الجنس البشرى

والغريب أن كثيراً من المتزوجين سعداء اذا راعينا أن الشبان والفتيات يدفعون معاً بقوة غشومة يتوقف على عدم مقاومتها كيان

الجنس البشري بأجمعه . ولا عجب فان الطبيعة تدرك تماما انه اذا استطاع الرجال والنساء أن يقاوموا عواطفهم وماتت قوة الاغراء في الجنسين فان الجنس البشري يتلاشى

* * *

كان جان ودورا في خلال الاسبوع الذي تلا رحلتها هذه يلتقيان يومياً . ومع أن علاقتهما زادت قوة فان جان لم يطلب الزواج . والظاهر أنه فضل البقاء على هذه الحال على أن يرضخ للمبادىء الاجتماعية المرعية

ظلت علاقتهما على هذه الحال مدة الى أن جاءت دورا ذات يوم وقالت

ـ أظن يا عزيزي أنه خير لنا أن نخبر والدتي بالامر الآن . أليس كذلك ؟ انها تتألم اذا وجدت أننا لم نشركها في سعادتنا

لم يعارض جان في طلبها ولولاه وجوم اذ خيل اليه ان الذهاب الى مسز دارلنج وطلب يد ابنتها عمل سخيف مثل السير للوقوع في الشرك وفضل الذهاب الى مكتب تسجيل عقود الزواج وعدم رؤية صديق أو قريب مدة عام

على أنه وجد المهمة أخف مما كان يتوهم بفضل ما أظهرته مسز دارلنج من الحذق والمهارة فان المرأة لم تكد ترى ابنتها تقود أسيرها بابتهاج حتى وضعت حداً لكل ما كان على وشك أن يقال بقولها ان جان جاء لكي يختار لها طرازاً من الكراسي وخاطبت ابنتها قائلة

ـ هل لك أن تأتي من الغرفة العليا بذلك البرنامج لكي ننتقي نوعاً جميلا من الكراسي ؟

لم تكد الفتاة تغادر الغرفة حتى تحولت نحو جان وقالت

ـ لا أدرى هل يتفق ذوقك مع ذوق دورا

فاجابها بلهجة ذات معنى قائلا

ـ هذا ما أظنه

فتبسمت المرأة وقالت

ـ هذا ما أرجوه اكراماً لك

ثم اقتربت منه وأسرت اليه قائلة

ـ أخبرني سريعاً قبل أن تعود ، هل تريد فعلا الزواج بها أو هل لى أن أساعدك على التخلص منها ؟

انتفض جسم الشاب لهذا السؤال وشرع يجيبها على سؤالها بتلعثم فقطعت عليه الحديث بأن وضعت يدها الغليظة على منكبه وقالت

ـ لقد تبين لى منذ مدة طويلة أن دورا مغرمة بك غراماً شديداً وقد جاءت بك الآن لتسوي الامر . على أنى خبرت العالم يا ولدي فلا أريد أن أدفعك على شيء لا تريده . والواقع أني أحبك كثيراً

أجابها جان الجواب الوحيد قائلا

ـ ولكني أريد الزواج بها . وقد أتيت لاطلب يدها منك فهل تقبلين ؟

نظرت المرأة اليه نظرة طويلة ثم قالت

ـ عليك أن تسوسها فانها فتاة طائشة أما أنت فقد جبت العالم وتنقلت فى جميع أرجائه . ولعمري ستستخلص منها كل شيء حسن وعلى كل حال ستكون موضع اهتمامك

لما عادت الفتاة بعد مدة ليست قصيرة نظرت أمها اليها وقالت

ـ دورا ، لا أدرى هل تعلمين ولكن اعلمي أنك مخطوبة للزواج

ضحك الثلاثة اذ ذاك بابتهاج وسعادة

سارت دورا مع جان فيما بعد حول المزارع المحيطة بمنزله وهي تتأبط ذراعه وتلقي نظرة على ما حولها

فقال جان

ـ انى أحب والدتك . أنها سيدة صالحة

فنظرت دورا اليه في الحال وقالت

ـ مسكينة أمي . لا أدري ماذا نفعل معها لأنها لا تريد مغادرة أفرسفيلد

فسألها جان قائلا

ـ ولماذا تغادر القرية ؟

فاجابته الفتاة بلهجة تنطوى على الحزم قائلة

ـ لا يليق بها البقاء لأن الحماة مهما كانت طيبة فانها عقبة في الطريق ولا أريد أن تكون سبباً في غضبك يوماً ما

ـ حسن سنستأجر لها شقة في لندن وسأدع لها المنزل هنا أيضا بحيث يمكنها القدوم اليه متى شاءت

هزت الفتاة رأسها وقالت

ـ كلا . ان لديها أموالا تكفي سد حاجاتها والظاهر أن الفتاة تأثرت من شعور جان نحو أمها فارتسم على وجهها مادل على تأثرها ولكنها تمنت أن لا يكون قد لاحظ شيئاً . وعلى ذلك حاولت أن توجه أفكاره الى مسأله أخرى فاستطردت فى حديثها قائلة

ـ لا أريد أن تكون أمى عبئا على كاهلك ويكفي أنك ستشتري

لى جميع ثيابى

فقال جان بحماسة

ـ بكل ابتهاج

ـ انك لا تدرى كم تكلفت من الثمن

ثم تردد قليلا وقال

أن الأمر لا يتعلق بالملابس الخارجية فقط بل وبالثياب الداخلية أيضاً . أن ثياب النساء غريبة كما تعلم

نطقت دورا بالكلمات الأخيرة بصوت خافت ثم تبسمت حياء وفي تلك اللحظة كان زواجها في نظره شيئاً تتوق اليه النفس

مرت الحوادث سراعاً وتقرر أن لا تطول مدة خطبتها . وقد أثار نبأ زواجها اهتماما عظيما في القرية فكانت الانظار تتجه نحوهما فى أيام الاحاد بالكنيسة ـ نحوه وهو جالس فى المقعد الخاص بأسرته : ونحوها وهي جالسة على مقربة بجانب أمها

وكان الفرق شاسعاً بينهما ؛ فكانت الفتاة تجلس بوجهها الذي يشبه وجه الطفل وشعرها الناعم الجميل وقوامها المعتدل الصغير ، فى حين كان يجلس هو بوجهه الاحمر وعينيه السوداوين الزائغتين وثيابه الغير أنيقة

وكان الناس يعجبون قائلين هل يكونان سعيدين يا ترى ؟ ويعتقدون أن الحمل الصغير قد وقع فى مخالب الذئب . والواقع أن سكان القرية لم يشعروا بميل نحو صاحب المزرعة الجديد ولا نحو طرفه « الاجنبية »

مرت الاسابيع بسرعة وجاء عيد الميلاد فتقرر أن يحتفل بزوجها فى نهاية شهر يناير فقام جان فى خلال هذا الشهر بترتيبات وانظمة جديدة

في اثاث المنزل طبقاً لرغائب دورا التي قالت له ذات يوم

ـ ان الرجال لا يفهمون كثيراً في هذه المسائل . واذا كنت تريد سروري دعني اكتب قائمة بالادوات المنزلية التي يجب التخلص منها جميعها ببيعها

كانت النتيجة أن شحن جان عربة كبيرة من اثاث المنزل بعد أيام قليلة

أخيراً جاء يوم الزواج فشعر جان بملل لأن المستر جلين قام أثناء الحفلة بانظمة عديدة فصف تلاميذ المدرسة عند باب الكنيسة في البرد ووقف الشمامسة في الداخل يرتلون ونثرت كمية كبيرة من الارز عند ما غادر العروسان الكنيسة

اقيمت حفلة استقبال بعد ذلك في منزل العروس وكان جان يرتدي سترة سوداء طويلة وياقة صلبة لأول مرة في حياته فتحمل آلاما شديدة لم تنته عند ما استبدل ثيابه فيما بعد بثياب أخرى

وكانت مسز دارلنج في خلال هذه الفترة التي قضاها في التعذيب والآلام تسليه وبفضلها وصلت السيارة التي كانت ستنقلهما الى محطة اكسفورد قبل المعياد بساعة

وكانت دورا كملاك وهي ترتدي ثياب العرس فلما استبدلتها الآن بثياب السفر بدت مثل غصن جاف من أغصان الغابات بحيث تحول جان نحو أمها وقال بشيء من الغضب

ـ لم أر في حياتي مثل هذه الثياب

فابتسمت مسز دارلنج وقالت بلهجة الاعتقاد واليقين

ـ انني قوية الايمان بالملابس الجميلة . . ألم يخطر ببالك أن الشبان

الاشراف استنعوا تقريباً عن الزواج لأن الفتيات الساقطات اصبحن يقلدن نساء الاشراف فى ثيابهن ؟

قضى العروسان شهر العسل على « الرفيرا » اذ ذاك أدرك جان لأول مرة واجبات الزوجية واعباءها فقد رأي انه لا يستطيع أخذ عروسه الى الفنادق العادية التى تعود الذهاب اليها وعلى ذلك اضطر الي تحمل اعباء الحياة الراقية في الفندق مع ما فيهامن مظاهر العظمة التى فرضت عليه القيام بواجبات لم يتعودها

وفى الواقع عافت نفسه البدوية جميع هذه المظاهر ولولم يكن اسير حب لثار عليها في الحال . وقد لاحظت دورا حزنه ولكنها زادته حزنا على حزنه باكراهها اياه على السير في الطريق التى يجب اتباعها . وعلى ذلك كم كان ارتياحه عظيما عند ما وجد نفسه ثانية فى افرسفيلد، في بداية فصل الربيع وقد تفتحت الازهار واكتست الأرض بحلة خضراء

* * *

لم تكن اعمال جان الخاصة بمزارعة شاقة . على انه لم يلبث أن وجد كثيراً من المسائل الصغيرة المختلفة تطلب اهتمامه دائما وانها طالما كانت سبباً فى كدره فكانت الاجور لا تدفع دائما فى الحال واذا شدد وكيله فى دفعها قال المستأجرون أن جان صاحب مستبد

وكان بين المستأجرين رجل يدعي المستر (هوبكنز) اشتد النزاع بينه وبين جان الى أن حدث مرة أن هدم المستر هوبكنز قنطرة صغيرة يملكها جان عند مرور عربة له من فوقها فسقطت وتهشمت فطالب الفلاح صاحب المزرعة بأن يعوضه من عربته التى تحطمت بحجة ان جان هو صاحب القنطرة . على أن جان لم يقبل هذه الحجة وطالب المستر

هو بكنز باصلاح القنطرة وانتهي الامر بأن أعلن الفلاح عزمه على رفع قضيته الى المحكمة .

على أنه اتفق بعد بضعة أيام أن التقي الخصمان عند مكان الحادثة ودار الجدال بينهما وأقسم المستر هوبكنز مرة اخرى بأن يرفع أمره الى القضاء فثار غضب جان اذ ذاك وقال :

ـ اذا ذكرت كلمة « القضاء » لى ثانية فانك لا تلبث أن تجد وجهك مهشما .

فصاح الرجل وقد احتدم غيظاً قائلا :

ـ في وسعي أن أفعل بك كذلك .

فخلع جان سترته ودفع قبعته الى الوراء ثم شمر عن ساعديه وقال :

ـ أخلع سترتك . سنسوى الامر فيما بيننا .

خلع الفلاح اذ ذاك سترته ولم تمض لحظة حتي اشتبك الرجلان وكان المستر هوبكنز أضخم جسما من صاحب المزرعة ولكن جان كان يتفوق عليه بصغر سنه وخفة حركته .

انتهى الشوط بين المتخاصمين بأن لكم جان الفلاح في فكه لكمتين فسقط على الارض .

نظر جان الى خصمه وقال :

ـ هل ترضى الآن باصلاح عربتك وتدعني أصلح قنطرتي ؟ أوهل تريد مواصلة النزاع ؟

فكان جواب الفلاح أن وثب على غريمه ولكمه بيده اليمني على عينه ولكنه لم يواصل فوزه هذا فيشفع هذه اللكمة بلكمة اخري وعلى ذلك اصابته في عينه لكمة مماثلة تماماً من يد جان

في تلك اللحظة سمع صراخ من الخلف وشوهدت دورا وقد برزت من خلف احدى الاشجار . وكان من عاداتهـا الغريبة أن تقتفي دائماً أثر زوجها لتعلم ماذا يفعل ، وكانت رغبتها هـذه هي التي جاءت بها الى هذا المكان .

وكانت دورا تدعو زوجها منذ زواجهما باسم « جيمس » فصرخت قائلة :

ــ جيمس ! ماذا تفعل ؟ مستر هوبكنز !

ــ هل أصابكما جنون ؟

فأجابها جان قائلا :

ــ نعم انني مجنون .

في حين وضع الفلاح يده على عينه وقال :

ــ هل تدعو نفسك رجلا فاضلا ؟

فقالت دورا بلهجة التوسل :

ــ اذهب بالله يا مستر هوبكنز الى منزلك قبل أن يقتلك . أما أنت يا جيمس فيجب أن تخجل من نفسك وأنت تقاتل كرجل منحط . لقد ألحقت بي العار .

وكان جان قد تناول سترته فنظر الى زوجته بعينيه السليمة دهشة ثم تحول الى خصمه وقال :

ــ لا بد من تسوية حسابنا هذا فيما بعد اذا شئت .

سار جان بعد ذلك حاملا سترته على كتفه وشعره الاسود يغطي جبينه في حين جلس المستر هوبكنز على جذع شجرة وأخذ يبصق دما

مكثت دورا بعد هذا الحادث أياما عديدة لا تحدث زوجها الا لتخبره عند ما يغادر المنزل بعينه المصابة أنه لا يستحى

وقد أصلح المستر هوبكنز عربته كما أصلح جان فنطرته والى هذا الحد انتهت المسألة اذ استثنينا روح الاستياء والامتعاض التي تولدت في نفوس أهل القرية نحو صاحب المزرعة

وفي الواقع كانت الحادثة تدعو الى الاسف وكان الرأى العام في القرية أن جان رجل يجب تجنبه فكانت مس برودفوت تكاد لا تحييه اذا ما التقت به أثناء الطريق وكذا المستر جنين الذي اتصف بالوداعة والمسالمة فقد نظر اليه يوم الاحد الماضي للحادثة وعلى وجهه علامات التأثر الشديد

تعود جان بعد هذه الحادثة المؤلمة أن يقطع مسافات طويلة وحيداً أو يتوغل داخل الغابات المحيطة بعزل المزرعة

وكثيراً ما كان يجلس ساعات طويلة في الحقول يحدق النظر الى أبراج الجامعة القديمة وهى بارزة بين السحاب أو يستلقى على ظهره فوق الحشائش ينظر الى السماء ويصغي الى دق النواقيس البعيدة ، مسنداً رأسه بذراعيه وكان يأخذ أحياناً كتابا عتيقاً من مكتبة عمه ويذهب به الى الغابات حيث يجلس من الظهر الى الغروب يطالع في كتابه أو في كتاب « الطبيعة »

وكان لهذه الغابات تأثير غريب في نفسه فكان يشعر عند توغله فيها انه يدخل معبداً من المعابد

وكان قلبه مفعما عطفاً نحو دورا فلما رأى ان سلوكها أخذ يسبب

له الحزن سلك في البداية مسلك العزلة والانقباض ومع ذلك شعر وهو بين الاشجار انه كان يلتجيء الى مأوى يقيه شر خطر لا يدرى ماهو

كان جان يشعر شعوراً جلياً بالحبوط والفشل وأحس انه شخص لا فائدة له فى الحياة

وكان يستخدم عقله وقلمه الى درجة محدودة فى كتابة الاشعار التي كان يجد فيها تسلية ولكنه قلما كان يفرغ منها أو ينظم قصيدة طويلة

وكانت أخلاقه لا تتفق مع الحياة في انكلترا فقد كان فيما مضى محب الالعاب الرياضية ولكن تنقله في البلاد وأسفاره العديدة سلبته مهارته في هذه الالعاب بحيث لم يجد الان رغبة فى العودة اليها

أما عاداته فكانت هادئة معتدلة لا يميل الى شرب الخمر ، حسن المعاشرة متى وجد أناساً يتفقون مع ذوقه على انه كان كثير التغيب عن المنزل بحيث قلما وجده زائروه فيه واذا اضطر الى مرافقة زوجته الى منازل الناس رأى عيني زوجته شاخصتين اليه دائما مخافة أن يظهر حقيقة نفسه ـ شاذاً ثائراً على قوانين الحياة

واتفق مرة أن أغراه المستر جلين فى احدى حفلات القرية أن يغنى على قيثارته ولكن كان غناؤه كارثة فلم يعد أحد بعدها يطلب اليه الغناء

وكان جان قد سبح في عالم الخيال والاحلام وهو يغنى فلم يلاحظ دورا وهى مقطبة الجبين ولا المستر جلين وعلامات الحزن بادية على وجهه ولما فرغ من أغنيته أفاق من احلامه فجأة وتولاه الخجل لما شاهده من الفتور

لما خرج جان بعد ذلك اوقفه رجل رث الهيئة أحمر الشعر يلقبونه

« بالضحاك » ويسمونه بابله القرية فخاطب جان قائلا

ـ شكراً لك يا سيدي على أغنيتك هذه انك تغني غناء جميلا

فأجابه جان قائلا

ـ يسرني أنك أحببت غنائي

فتمتم الضحاك قائلا

ـ انها تشبه الاحلام

نظر جان الى الرجل نظرة سريعة وشعر كأنه وجد صديقاً : ولا عجب فقد كان يحلم وهو يغني فوجد في هذا الرجل رفيقا له سبح مثله في عالم الاحلام ـ ثم يدعونه بابله القرية !

الفصل التاسع

فى الغابات

توجد حوادث كثيرة من حوادث القران يظن فيها خطأ ان التجاذب الظاهري هو الحب الصحيح . وقد كان زواج جان ودورا من هـذا النوع فكانت نهايته الفشل التام . وفي الواقع لم تمض أسابيع قليلة عن زواجهما حتى دبت بينهما روح النفور ولـكن مضت شهور عديدة قبل أن يواجه جان هذه الحقيقه دون أن يحاول خداع نفسه . وقد علم في بدايه عهد زواجه بأن ليس لديه ما يقوله لزوجته ولا أفكار يتبادلها معها . وكان حاول فى البداية الاعتقاد بأن السر في ذلك يرجع الى شيء من الخفول الطبيعي ولـكن اتفق أن فتح ديواناً الشاعر « ماثيو ارنلد » فوجد عزاء في الأبيات التالية

« وا أسفاه . هل يعجز الحب »
« عند فتح القلب وانطلاق اللسان ؟ »
« وهل يعجز المحبون عن افشاء »
« حقيقة ما فى قلوبهم يشعرون ؟ »
« لا أجهل ان كثيراً من الرجال »
« يكتمون ما به يشعرون »
« ولـكن هل هناك ايها الحبيب »
« ما يمنع قلوبنا عن الـكلام »
« وهل لابد لنا ايضاً »

« أن نكون من البكم الذين لا ينطقون ؟ »

قال جان اذ ذاك عن نفسه

ـ اذن شعر كثير من المحبين بهذا الشعور من قبل فهو من الامور العادية

بيد انه لم يلبث أن أدرك ان المشكلة الخاصة به خطيرة وانه ليس ما يقوله لها ولا هي تستطيع أن تفهم اخلاقه أو تحيي ثقته بها

مكث جان شهوراً يناضل فكرة خطرت بباله وهي انه ارتكب غلطة مروعة ولكن استفحلت مصيبة زواجه وارثه وحياته بالاجمال كما شهدها في انجلترا بحيث لم يستطع اخفاءها في زوايا فكره المظلمة

برزت هذه الحقيقة من الظلال وواجهته في النور فرآها شبحاً خطيراً يحلق فوقه ويتهدده ويحاجبه أينما ذهب وسار . ثم تصوره وأطال فيها الامعان والنظر حتى اتخذت لها شكلا واضحا فرأى لها عيناً زرقاء وجسماً غليظاً هائلا يتهدده ويدين ضخمتين تحثانه على مرافقتها له قهراً وقصارى القول كانت مثل جلاد وصديق معاً

أخيراً بينما كان جالساً ذات يوم من أيام الخريف في الغابات وسط أوراق الاشجار المتساقطة اذ سلط عينيّ فكره على هذه الحقيقة المروعة وأخذ يمعن النظر في الحالة التي تجسمت فيها فوجد أولا أن دورا ذات آراء تمركزها الزوجي تؤلمه فكانت تعتقد اعتقاداً وطيداً أن الزواج قبل كل شيء وسيلة اراد الله أن يحول بها الرجل عن التصورات والاوهام وأنها تقضي على الزوج بواجبات بحيث تسير حياته في طريق خالية من عوامل الاضطراب وتقضي على الزوجة بأعمال خاصة بها وهكذا كانت تعتقد ان على الزوجين واجبات محدودة لا تتغير

كتدريب الجندى أو كطعام المريض دون أن يفكر بشيء ما يتعلق برابطة الحب التي تربطهما معاً

وفوق ذلك استاء جان استياء شديداً لان زوجته لم تكن لديها رغبة في أن تلد طفلا لها . وكانت قد أخبرته في أول عهد زواجهما أن الطبيب أخبرها بان هناك خطراً عظيماً يتهددها اذا صارت اماً . على ان جان أدرك ان الخوف وحب الذات والغرور هي الاسباب الحقيقية التي جعلتها لا تميل الى الامومة فقد كانت تخشى دائما الالام والموت لا تفكر الا براحتها شديدة الغرور بشبابها

كانت هاتان الحقيقتان ـ وهما تمسكها بحقوقها كزوجة له ثم نفورها من أن تكون أما ـ قد أوجدتا حالة آلمت جان في جميع حواسه

وكانت هناك مشكلة أخرى وهي ان دورا كانت تعد الزواج لا يتفق مع الوحدة والانفراد فكانت كلما رأت زوجها يكتب في غرفة المطالعة ادت أن تكتب هناك ايضاً ، واذا جاءه زائر مكثت معهما وابت الخروج لا لانها تميل الى الجلوس مع الزائر بل لانها تريد ان تثبت مركزها كزوجة وشريكة لزوجها في جميع اعماله ، واذا ذهب الى اكسفورد او لندن اصرت على مرافقتها اياه ، واذا اتفق وراته يتحدث حتى مع البستانى جاءته من خلفه ووضعت ذراعها تحت ابطه ثم اشتركت معهما في الحديث في الحال

وكانت في البداية تبكى وتنتحب عند ما كان يقول لها انه ذهب الى اكسفورد لمقابلة بعض اصدقائه في النادي والتحدث معهم قليلا ثم اخذت تتهمه فيما بعد بأنه على صلة باحدى خادمات النادى وقد اضطر جان اخيراً الى العدول عن مثل هذه الزيارات حباً في استتباب

السلام بينه وبين زوجته على انه لم يلبث أن رأى حياته صارت تدريجياً مثل حياة أسير

تمادت دورا في اثبات حقوقها الزوجية الي حد مؤلم لا يطاق، فكانت كلما شاهدته يكتب خطابات تأتي من خلفه وتنظر الى ما يكتب واذا منعها من ذلك أو خفى عنها رسائله غضبت . وقد جاءته مرتين أو ثلاثاً وهي تبتسم حاملة اليه خطاباً مفتوحاً وقالت له

ـ اني آسفة يا عزيزي لانى فتحت هذا الخطاب خطأ اذ زعمت انه لى

لم يستطع جان أن يخفى شيئاً عن عينيها ومع ذلك وجد لدهشته أنها لا تهتم مطلقا بحياته قبل زواجه وهي حقيقة دلت دلالة واضحة على ان اهتمامها بعشرته كان قاصراً عليها فقط وانها كانت لا ترغب في الوقوف على شخصيته

وكان جان قد أراد في بداية زواجها أن يخبرها عن رحلاته السابقة ولكنها أظهرت مللا او بالاحري امتعاضا من سماع قصته وقالت له ان مخاطراته لا تقع في أذنها موقعاً حسناً وعلى ذلك كانت تجهل على رغم مراقبتها لحركاته ـ كل شيء يتعلق بحياته الاولى ولا تدري الا القليل عن البلاد التى عاش فيها وانه كان معروفا في تلك البلاد « جان ابستون »

شعر جان بشيء من الحزن عند ما وجد ان حياته الماضية ثقيلة على السمع أو انها خالية من العوامل التى تبعث الاحترام له في نفس سامعيها

قال جان في نفسه مرة

ـ من المضحك أن تعرف تلك الفتاة « مرغيه » التى التقيت بها

فى الاسكندرية من تاريخ حياتي ما لا تعرفه زوجتى مع ان عشرتنا لم تطل أكثر من ساعات قليلة

ورأي جان في العهد الاول من زواجها أن اعمالها التى تظاهرت فيها بتعليم الطاهية واجباتها أو بأعمالها هي المتعلقة بالتطريز والحياكة كانت كلها غشاً وخداعاً فقد كانت مجردة من جميع الامتيازات المنزلية ـ وهي حقيقة زادت في آلامه لأنها كانت تصر على أن تقوم بنفسها بشئون منزلها

وقد قامت بضعة أشهر بدور المحسنة الكريمة فكانت تزور الشيوخ وفى ذراعها سلة معلقة وتسير في الازقة لزيارة الاكواخ ولكن سرعان ما سئمت نفسها هذه الاعمال فعهدت بها الى الخدم . ثم التحقت بعد ذلك بحزب الكنيسة العليا فى اكسفورد ولكنها زادت حالة الزواج السيئة سوءاً بان عدته عملا مقدساً سرياً

ومن الحوادث الاخيرة التي دلت على أخلاق دورا أن سألت جان أن يسمح لها باحضار بنتين يتيمتين من أقرباء أمها احداهما فى الرابعة من عمرها والاخرى فى الخامسة قائلة

ـ من دواعي السرور أن نسمع ضحكهما الجميل يتردد صداه في جوانب هذا المنزل العتيق ويكون وجودهما بمثابة تسلية لى على حزني الشديد لحرماني من أطفال لي

أجاب جان سؤالها لانه كان مغرماً بحب الاطفال ولم تمض مدة وجيزة حتى وصلت الطفلتان فاظهرتا شيئاً من الحياء أولا ولكنهما لم تلبثا أن أظهرتا الفرح والابتهاج وقد قالت دورا انه ليس ثمة حاجة الى مربية واظهرت ابتهاجاً فى الاهتمام بامرهما بنفسها وفعلا مكثت أسبوعين

تلعب دور الام ولكن سرعان ما جاء اليوم الذي وجد جان فيه أن لا مندوحة من المجيء بمربية في المنزل

كان وجود هاتين الطفلتين سبباً في ادخال السرور الى قلب جان ولكنه كان من جهة أخرى سبباً في تألمه من نحو زوجته . وكانت في بعض الاحيان تذهب اليهما لتسمع صلاتهما فكان يجد في أعمالها وحركاتها وهي تقوم بدور الام ما يؤلمه . واتفق ان كان بغرفة الطفلتين مرآة في الحائط فكانت دورا تنظر الى نفسها بابتهاج وارتياح وهي تظهر بهذا المظهر الكاذب

جاءت الفتاة الكبرى ذات يوم الى جان بعد تناول الفطور واخبرته انها رأت حلماً مروعاً قائلة :

ـ كان هذا الحلم كله عن الاطفال

ثم سكتت حياء وقالت

ـ والآن يجب أن لا أخبرك عنه شيئاً لأنه خبيث جداً

وكان جان منفرداً مع الطفلتين في الغرفة فسأل الفتاة واستدرجها الى أن علم منها في النهاية أن دورا اخبرتهما ليلة أمس « كيف ينمو الطفل » ولكنها حذرتها من أن تذكرا شيئاً مما قالته

ثار غضب جان ولما نزلت زوجته ضحى ـ لانها كانت دائماً تتناول فطورها في فراشها ـ امسكها من ذراعيها وسألها عن معنى ما قالته لفتاتين لا تتجاوز اكبرهما الخامسة من عمرها . فأجابته بحدة قائلة

ـ ليس هذا من شأنك . ويجب أن تدع للمرأة أن تعرف بغريزتها متى يجب افشاء سر الامور للبنات الصغار

اشتد النزاع بينهما وبعد أن تبادلا قوارص الكلام غادر جان الغرفة

وذهب الى الغابات منقبض النفس حزين الفؤاد وهو يعلم ان حياته قد تعلقت بمظهر كاذب فى شخص زوجته

تاقت نفس جان الى الابتعاد عنها وعن « افرسفيلد » والعودة الى الفيافى والقفار بعيداً عن هذه الحياة الجامدة القاسية

لما رأى جان زوجته بعد ذلك وجدها في الحديقة تلعب مع البنتين كانها قد صممت على ان تريه قدرتها على استمالتهما . والظاهر ان دورا لم تشأ أن تواصل النزاع فاخبرت زوجها قائلة

ـ اننا نلعب معاً لعبة العفاريت

فخاطب جان الطفلتين قائلا

— اذا ما فرغتما من اللعب اتنيا الى غرفة المطالعـة لتساعدانى على ترتيبها

فطلبت الفتاتان الى دورا أن تسمح لهما بالذهاب ثم دخلتا المنزل وغادرتاها وحدها فى الحديقة تتنهد

كانت مثل هذه الافكار والذكريات تمر بخلد جان ذات يوم وهو جالس فوق جذع احدى الاشجار داخل الغابات وكان الجو هادئاً جافاً بعد الظهر وكانت أوراق الاشجار تتساقط الواحدة بعد الاخرى كانها تلبي دعوة الارض . وكانت أفكاره العميقة تتحول من وقت الى آخر بصراخ طائر أو بفرار أرنب بين الاعشاب

ولم تكن الغابة شاسعة الاطراف ولكنها كانت تعد مع الحقول المجاورة لها مكاناً لائقاً للصيد فيها . وكان هناك رجل يدعى « بيجت » يقطن فى طريق الغابة لمنع الصيادين ولهـذا السبب أعطاه جان كوخا بدون أجرة مقابل خدماته

وكانت الشمس قد غربت وبدأت الظلمة تخيم على الغابة عند ما قام جان في النهاية ليعود الى منزله . وكانت أفكاره العميقة وتصوراته لم تسفر عن رأى بات اللهم الا انه ارتكب غلطة فاضحة وان عليه أن ينظم حياته في وجه هذه الحقيقة الساطعة ولو تطلب الامر أن يمس كرامة دورا

وبينا كان جان واقفاً يمد ذراعيه كانما استيقظ من سبات عميق اذ شعر فجأة بأغصان تتكسر وسمع حفيفاً بين الاوراق فتحول نحو مصدر الصوت فشاهد بيجت حارس الغابة وهو يحمل بندقيته وقد برز من خلف بعض الاشجار

هرع الرجل الى الامام ولما عرف جان وقف ثم رفع قبعته وقال، وهو يلهث

ـ أسألك المعذرة يا سيدى . اني أطارد ذلك اللص الذي يسمونه « الضحاك » فقد شاهدته من نافذتي

فاجابه جان قائلا

ـ لم يأت الى هذه الناحية لانى كنت جالساً هنا مدة طويلة

فتمتم الرجل قائلا

ـ انه ماهر يا سيدى ولكن لا بد أن أقبض عليه يوما ما . لا بد من ذلك يا سيدى ولا بد أن الهب رجليه « بالرش »

فسأله جان قائلا

ـ يقولون انه معتوه العقل . فهل هذا صحيح ؟

فاجابه الرجل قائلا

ـ انه صحيح العقل وهو يعيش من صيد الارانب التي يصيدها

من مزرعتك وهذه عادته منذ كان شاباً فلم يقم فى حياته بعمل شريف

وكان أهل القرية يعدون « الضحاك » كما قلنا معتوهاً ولكن جاك وجد فى المرات القليلة التى التقى فيها به انه يجيبه بعقل ولو ان هناك سراً فى الابتسامة الدائمة التى ترى على فمه . والظاهر انه لا يوجد أحد يعرف كيف يعيش هذا الرجل بالضبط

وكان يقطن فى غرفة فوق سطح كوخ منفرد صغير لعجوز تشبه العرافات تدعى باسم حنا العجوز

والمظنون انه كان يقوم لها بأعمال غريبة مقابل سكنه معها

بيد ان هذه العجوز كانت هي الاخرى لغزاً من الالغاز لا تميل الى مخاطبة الناس

وكان كوخها واقعاً بين قرية « افرسفيلد » وقرية « يدلى » فكان سكان القريتين يجفلون منها ولا يجرأون على الاقتراب من كوخها

وكان الحارس بيجث يريد أن يقتفى أثر الضحاك ولذا لم يلبث أن اختفى بين الأشجار يبحث وينقب عنه

وكان جاك في خلال ذلك شرع يسير على مهل نحو منزل المزرعة يقف من وقت الى آخر ليصغى الى حارس الغابة وهو يبحث عن طريدته

لم تكد تقع عينا جاك على الباب الكبير الذى يؤدى بين الغابة والجزء الخلفى من حديقة المنزل حتى شهد غصناً فى شجرة من أشجار البلوط يتمايل على مقربة من الطريق فوقف وهو يعجب فى نفسه من أمر هذه الحركة التى كانت سبباً فى سقوط وابل من أوراق الأشجار الى الارض على أن عجبه هذا تحول الى دهشة عندما شاهد قدم رجل فوق الغصن . اختفى جسمه خلف جذع سميك فخطر بباله في الحال انه

عثر على الضحاك

ولما كان جان يشعر بميل نحو هذا الرجل ناداه بلهجة رقيقة لكي ينزل . وعلى انه لم يتلق جوابا على ندائه هذا فذهب الى جذع الشجرة ونظر الى الرجل وخاطبه مرة أخرى قائلا

ـ لا فائدة من اختفائك أيها الضحاك

انزل في الحال والا رميتك بحجر

وكان الضحاك رجلا متوسط العمر أحمر الشعر قذره على فمه ابتسامة عريضة تمتد من احدى أذنيه الى الاخرى وكان أفطس الانف . تشبه عيناه خرزتين صغيرتين زرقاوين

مد الضحاك وجهه المضحك الى الامام من فوق احد الاغصان ونظر الى جان وهو واقف تحته ثم تمتم قائلا

ـ هذا أنت يا سيدى لقد أخفتنى اذا زعمت انك المستر بيجت بندقيته ؟ لقد قال انه سيقتلنى وقد جاهر بهذه الحقيقة في وجهي فهل تصدق ذلك ؟

فأجابه جان قائلا

ـ نعم اخبرني بانه سيطلق عليك نصف أوقية من « الرش » ولكنه سيطلقه على رجليك فقط

فصرخ الضحاك قائلا

ـ ألا يكفني ما بقدمي من الاشواك ؟

فنصحه جان قائلا

ـ خير لك أن تنزل ؟ انه يطاردك الآن ؟ وفى وسعك أن ترى أن بندقيتي ليست معي والا لاصبت رجليك كذلك

أخذ الرجل يهبط من فوق الشجرة وكان يتكلم بسذاجة وهو يتراوح من غصن الى غصن الى أن وصل الى الارض ثم وقف أمام جان بحالته القذرة الرثة وقال

ـ اذا أردت الهرب فهل في وسعك أن تمسكني يا سيدى ؟

فأجابه جان بان مد ذراعه فجأة وأمسك بالمنديل الذى كان يلفه حول عنقه فأراد الضحاك التملص ولكن جان ضيق عليه الخناق ثم ألقاه أرضاً وجثا فوق صدره

ضحك جان اذ ذالا وقال

ـ ما قولك أيها الضحاك ؟

فأجابه الرجل قائلا

ـ انه شيء مدهش ؟ لم يخطر ذلك ببالي قط

وقف جان على قدميه ثم خاطب الرجل قائلا

ـ قف ودعني اسمع ما تريد قوله دفاعا عن نفسك

وقف الضحاك اذعاناً للامر

فقال جان

ـ اذا جاء بيجت فني وسعك أن تنسل من هذه البوابة الحديقتي فلا يستطيع أن يراك أحد

فرفع الرجل يده الى رأسه وقال

ـ شكراً لك يا سيدى . لا أشك في انك رجل رقيق القلب

فقال جان بحدة

ـ كفى هذياناً . ماذا تعنى بصيدك أرانبي

فحك الضحاك جلد رأسه الاحمر بأصابعه ثم قال :

ـ يا الهي . هل هي لك ؟

ـ انك تعلم جيداً انى صاحب هذه المزرعة الا تعلم ؟

ـ وهل أنت صاحب الارانب أيضاً ؟

ـ بالطبع

ـ أظن ان الارانب تجهل ذلك

ـ لا تكن أبله

فقال الرجل بلهجة الندم

ـ انى فقير يا سيدى

ـ كلا . انك لص

فقال الضحاك مؤكداً

ـ كلا . لست لصاً ياسيدي

ـ ولكنها أرانبي

ـ ولكنى فقير

ـ هل هذا قولك ؟ ليست هذه حجة

فهز الضحاك رأسه وقال

ـ انك لاتفهم معنى الفقر . انك رجل صاحب منزل كبير ومزرعة واسعة

فقال جان

لقد عانيت آلام الفقر مثلك . ونمت فوق الغبراء وتجولت فى البرارى والقفار

هل فعلت ذلك ؟

نعم فعلت

فصاح الضحاك قائلا

ـ يا الهى ! اذن « تعرف » ...

فسأله جان قائلا

ـ أعرف ماذا

ـ ليس لى أن أقول ماتعرف ولكنك تعرف فعلا

فأبدي جان علامة تدل على الضجر والقلق ثم قال

اصغ الى ... اذا تركتك هذه المرة فهل تعدنى أن لاتصيد أرانبى

فهز الضحاك رأسه ووضع يده على رأسه مرة أخرى ثم قال

لا أستطيع ذلك ياسيدى . انها عادة قديمة لى وزوجتى العجوز تحسن طبخ الارانب ياسيدى وتأكل معى أيضاً . لاتغضب ياصاحب السمو

فثار غضب جان وقال

ـ لاتقل « ياصاحب السمو » ولا « أيها اللورد » . انني رجل بسيط مثلك

فتبسم الضحاك وقال

هل أنت كما تقول ياسيدى ؟ وهل جبت الاقطار وتنقلت فى الفيافي والقفار والتحفت الغبراء . اذن « تعرف » لماذا تطلب الى أن لا اسرق صيدك ؟ انك لاتستطيع أن تفعل ذلك ياسيدى ..

فقال جان

ـ لنفرض انني سمحت لك بسرقة صيدى فماذا تفعل

ـ ماذا ؟ ثم لاتدع المستر بيجوت يصيرنى ! كلا . لايكون ذلك صيد

فرفع جان يده وقال

ـ اصغ الى أيها الضحاك . انك تفعل اشياء تضرنى قليلا ولكن

حبك . فلنكن اصدقاء

فارتد الرجل الى الخلف قليلا وقال

ـ ان صداقتي لاتدوم طويلا مع الناس ياسيدي ؛ فان الاصدقاء يضحكون من الاصدقاء

ومع ذلك أمسك الضحاك اليد التي امتدت الى مصافحته

قال جان

ان قولك هذا بعيد عن الصواب فان الأصدقاء هم الذين يعاونوك في السراء والضراء والأصدقاء هم الذين لديهم شيء مشترك يدافعون عنه ، فأنا وأنت لدينا شيء مشترك ايها الضحاك

فسأله الرجل قائلا

ـ وما هو هذا الشيء ؟

فضحك جان وقال

ـ كلانا شقي في الحياة ، وكلانا وطئته الطبيعة تحت قدميها ، كلانا « يعرف » كما تقول

أحدق الضحاك النظر الى جان وقد ادرك تماما معنى ماقال

قال جان

ـ خير لك ان تأتي معي الآن الى الحديقة

فهز الضحاك رأسه وقال

ـ كلا ياسيدي . سأختبيء هنا ثم اعود من خلال الغابة

ـ ولكن ألا تعلم ان بيجت هناك مع بندقيته ؟

فزمجر الضحاك وقال

ـ لن يقبض علي فلا تخف

تحول جان وسار نحو البوابة ولم يلبث صديقه الضحاك أن انسل بين الاشجار واختفى في الظلام

الفصل العاشر

انتهاء القيد

انقضى العام الثالث على زواج جان وجاء فصـل الربيع وجان يتجول حسب عادته وسـط الغابات والحقول فتمتم فى نفسـه ذات يوم قائلا :

ـ لا بد أن كسلى هو السبب في ذلك .

وكان قوله هذا جوابا على سؤال طالما ألقاه على نفسه وهو . لماذا لم يفلت من القيود التي تربطه .

وكان جان يمقت « المناظر » ويأسف على تلك الحرية التى نعدها بدون تصور . نعم زار لندن كثيراً فى المدة الأخيرة ولكن كان غيابه كما قلنا يسبب له دائماً الحزن من جراء سلوك زوجته بحيث اضطر الى ترك هذه الزيارات لانه لم يجد فيها من أنواع السرور والتسلية مايعادل الحزن الذى كان يصيبه بعد ذلك .

ولم يكن لدي دورا ما يبرر غيرتهـا على زوجها لان جان لم يكن من الرجال الذين يفكرون كثيراً بالنساء على أنها كانت شديدة الغيرة على مركزها بصفتها زوجته فكانت كلما شاهدت شيئاً يمكن أن يفهم منه أن جان لا يعتمد عليها أو رأت شيئاً من امور المعيشة ليس لها فيه نصيب ، ثارت واثبتت حقوقها الزوجية بحالة مروعة . وفى وسـع الرجال والنساء أن يفعلوا اموراً كثيرة تنطوى على الخشونة وعـدم اللياقة ولكن ليس ثمة أدهي من أفكار المرأة السخيفة عن روابط

الزوجيـة .

وبينا كان جان سائراً بين الاشجار قاصـداً منزله ، يسمع نداء الربيع يتردد صداه في قلبه الكئيب اذ تمني من صميم قلبه لو لم يرث ضيعة عمه وكان الجو بعد الظهر دافئاً وأشعة الشمس الجميلة تنير عينيه بحيث خيل اليه أن نورها الباهر يتخلل فكره وينعش نفسه الخاملة ويكرهه على النظر الى ما حوله .

كان فشل جان من وجهة زواجه تاماً ، ونجاحه من نحو اعماله في المزرعة تافها يمكن اهماله ولم يكن له أصدقاء أوفياء غير « الضحاك » . ومع أنه لم يكن بينهما شيء كثير يقال الا أنه كان دائماً بينهما روح تفاهم صامتة .

وفي الواقع كثيراً ما تتولد الصداقة الصحيحة بالعطف المتبادل الذي يتخلل الجلد الخارجي الذى طبعت عليه المظاهر الصناعيـة المدنية ثم يصل الى القلب في الداخل حيث يوجد « ادراك » خلف « ادراك » « وذكاء » خلف « ذكاء » و « نعم » الجلية الواضحة التي تتغلب على اصرار العقل على قوله « لا »

نعم كان جان والضحاك يفهمان بعضهما بعضاً وكان هذا التفاهم فيما يتعلق بالاخـير مقروناً بالامتنان والاقرار بالجميل لان جان كان قد أنقذه مرة من القبض عليه والحبس .

وليس ثمة ما يدعونا الى ذكر الظروف التي وقعت لانهـا ظروف لا يحسن ذكرها لان « الضحاك » مرق واضطر جان الى الـكذب لـكي ينقذه وكانت الحادثة كلها خطراً على القانون والامن العام .

وكان جان كلما شعر بانقباض في النفس أو ضيق ذهب الى الغابات

وصفر صفيراً معيناً مثل البوم وهو رمز بينه وبين الضحاك فيأتى اليه صديقه ثم يسيراً معاً . وقد سمع سكان القرية هـذا الصفير غير مرة فظنوا أن المكان مسكون وازداد هذا الاعتقاد فيما بينهم فشجعهم عليه جان خصوصاً لانه رأى أن مثل هذا الاعتقاد هو خير سلاح يستخدمه لمنع زوجته من اقتفاء أثره داخل الغابات .

لم يكن لجان ، اذا استثنينا هذه الصداقة ، من يميل الى وده في قرية افرسفيلد . نعم كان فريق من القرويين لا يبغضونه ومعظمهم من الاطفال ، لكن السواد الاعظم من السكان كان يسيء فهم حقيقته وكان بينهم من ينظر اليه بعين العداء الظاهر .

التقى جان ذات يوم بعدو من هؤلاء الاعداء فى شخص مسز سبور زوجة الطبيب وكانت راكبة دراجتها . واتفق أن كانت أشعة الشمس في عينيه فمال الى جانب الطريق لكى يفسح لها الطريق ولكن لسوء الحظ تحولت السيدة الجانب عينه فكادت تصدم به اصطداماً شديداً لولا أن أظهرت مهارة في ضبط دراجتها .

رفع جان قبعته وخاطب السيدة قائلا :

ـ انى آسف جداً

وكانت مسز سبور هذه امرأة نحيفة الجسم لفحت الشمس وجهها فنظرت اليه نظرة حادة وقالت :

ـ لقد كنت سائرة فى الجانب الذى يجب السير فيه من الطريق ولكن يلوح لى أنك لا تعرف شيئاً من نظام السير فى الطريق

فدهش جان ولكنه اعتذر اليها ثانية قائلا :

ـ انى آسف جداً يا سيدتى وأخشى أن أكون اثرت غضبك

فقالت بحدة

ـ غضبي ! ليس ثمة فائدة من الغضب معك وفوق ذلك يجب على زوجة الطبيب أن تكون دائماً هادئة الطباع. ثم انك صاحب المزرعة ويجدر بالانسان أن لا ينازع صاحب المزرعة التى يعيش فيها

فسألها جان قائلا :

ـ وهل أنا رجل سيء الطباع ؟

فكشرت المرأة عن أنيابها وقالت

ـ كلا ولكنك لست حريصاً على واجباتك ويلوح لي أنك لا تفهم عادات الانكليز وانك لا ترعى الجوار لانك أرسلت في طلب طبيب من اكسفورد لمعالجة البنتين اللتين في منزلك عند ما مرضا ولم ترسل الى زوجي . ان عملك هذا لا يمكن أن يعد من الادب واللياقة

فقال جان

ـ هل هذا هو السر فى غضبك ؟ أقول أنني آسف جداً . . .

فقاطعته قائلة

ـ كلا ان هذا من ضروب الاعمال التى تقوم بهـا . ان أخلاقك العامة هي التي نشكو منها . ولعمري ليس لك أصدقاء الا « ابله القرية »

فسألها جان قائلا

ـ أتعنين الضحاك

ـ نعم الضحاك اللص الذي يعيش من صيد حيوانات الغـير . انه يحبك حباً عظيما . وقد كاد يضرب بارنز المسكين منـذ بضعة أيام لانه جاهر بما يعتقده فيك . فأهنئك بمحاميك !

وكان بارنز هذا ساعي البريد فقال جان

ـ وماذا فعلت مع بارنز ؟

ـ لقد عضه كلبك ولم تهتم بالامر

ـ لم أسمع بهذه الحادثة الا منك الان . وعلى كل حال فان الكلب لزوجتي وليس لى

فزمجرت المرأة وقالت

ـ آه ، ضع اللوم على كاهل زوجتك . أرى أن المسكينة تتحمل اللوم فى كل شيء . ان هذا ظلم واجحاف !

فحملق جان في وجهها ونظر اليها غضباً ودهشاً ثم قال

ـ ما ذا تعني بقولك هذا ؟

ـ ان في وسعنا أن نلاحظ ما تعانيه زوجتك ! لقد كادت تبكي فى منزلى الاسبوع الماضي . ولكن لا تظن أنها أفشت الى سراً وبالعكس قالت المسكينة أن الزوجة يجب أن لا تشكو . انها ملاك ، انها روح الاخلاص . اننا نلاحظ كل شيء يامستر تندرنج وست !

حك جان جلد ذقنه بظفره ثم تمتم قائلا

ـ وهل كل هذا لانى كدت أصطدم بدراجتك !

فرفعت المرأة صدرها وقالت

ـ ان القشة الاخيرة هي التى تقصم ظهر الجمل . وعلى كل حال كفى ما قلته

ثم ركبت دراجتها وسارت وهى شامخة بانفها في الهواء !

سار جان نحو المنزل وهو يشعر بألم كأنه ضرب فى عدة أجزاء من جسمه ولم يلبث أن صاح قائلا

ما ذا أصابني ؟

أدرك جان بعد قليل أن دورا بعد أن فشلت فى الدور الذى لعبته لكي تكون الزوجة والشريكة التي لا يمكن الاستغناء عنها أخذت الآن تظهر بمظهر للشهرة وشرعت تبث أحزانها الى جيرانها . وكانت هذه فكرة مؤلمة ، فعول جان على أن يقاصصها على هذ الغلطة . على أنه عند ما وصل الى منزل المزرعة وجدها جالسه في غرفة الاستقبال مع المستر مريفال مستأجر « الكوخ الوردى » . وكان جالساً في مقعد يدخن سيجاراً كبيراً جاءته به دوراً من غرفة المطالعة بلا مراء

كان جورج مريفال هذا رجلاً أعزب غريب الاطوار لم يستطع جان أن يسبر غوره . وكان ضخم الوجه مستدير العينين خفيف الشعر عاش فى « الكوخ الوردى » مدة العشر سنوات الاخيرة أو أكثر يتلقي كل شهر حوالة مالية من شخص أو أشخاص يريدون بقاءه دائماً فى الريف

ولم تكن عليه شكاية الاهم الا أنه كان ينزوى فى كوخه على أثر استلامه الحوالات المالية . وكان الاعتقاد عاماً بأنه يكون اذ ذاك في حالة سكر شديدة على انه لا يبعد أن تكون كل هذه مجرد اشاعات لا حقيقة لها

وكانت دورا قد تعرفت بالمستر مريفال هذا قبل أن تلتقى بجان فكان أحد الزوار القلائل الذين يترددون على منزل المزرعة . على أن جان كان لا يحبه ولا يثق به ولذا استقبله بشيء من البرود ولم يلبث أن اعتذر قائلا أنه يريد استبدال ملابسه ثم غادر الغرفة

لو رأي أحد جان بعد خمس دقائق من هذه الحادثة وهو يسير فى الحديقة لزعم أنه مجنون . فقد كان يحمل قيثارته على كتفه ويمشى

بخطوات خفيفـة بحيث كان يخيل الى كل من يراه أنه يريد أن يفتك بفريسة له

وفي الواقع كان جان يلتجيء دائماً الى قيثارته كلما اضطربت أعصابه ولكن رغبته هذه في تخفيف آلامه كانت اليوم مقرونة برغبة أخرى هي الافلات من زوجته ومن ضيفها . وفوق ذلك كان الجو في الخارج جافاً كأيام الصيف في حين كان المنزل يدعو الى السآمة والانقباض فلا عجب اذا انس من نفسه رغبة في الانسلال كحيوان مريض الى غاباته المحبوبة لكي يستأنس هناك بالقمر عند طلوعه لان الوقت كان مساء

اجتاز جان الابواب الخلفية من الحديقة ودخل تحت ظلال الاشجار الهادئة ثم واصل السير بين جذوع الاشجار المتلاصقة الى أن وصل الى بقعة اتخذها له ملجأ حيث يريد جذع شجرة ملقى على حافة غدير

جلس جان ثم رفع عينيه فرأى القمر وهو يبدو من خلال الاغصان وقد برز فوق الافق ثم أخذ يصغي الى خرير المياه وهي تجري تحت قدميه والى صوت الطيور التي التجأت الى أوكارها الى أن سكنت واستقرت

نظر جان فيما حوله فرأى أغصان شجر البلوط تمتد الى فوق والى كل جانب كأنما تمد مخالبها الكبيرة تبحث عن ضوء الشمس التي اختفت وكان جان يشعر في نفسه بانقباضه ولكنه لم يبلغ حد الحزن وخيل اليه أن قلبه ميت منسحق تحت تلك اليد الثقيلة المروعة التي تمثل الحياة العائلية ولم يشعر بميل نحو مناظر الربيع الجميلة

كان جان يشعر بوحدة قاسية بحيث لو كانت في محاجره دموع لانحدرت الآن على خديه كالسيل ولكن محاجره كانت جافة . ولم يكن

لديه شعور أو عاطفة نحو نفسه ولا رغبة فى بث أحزانه ولوعاته الى غيره ولا قوة له على الضحك من نفسه أو البكاء عليها

مكث جان ثلاثة أعوام طويلة يحمل حزنه بين حنايا ضلوعه، فكان معه فى تنقلاته أو سيره أثناء النهار ، فى جلوسه ، وفى نومه، وفى سيره في رواحه وفي غدوه . وكان فيما مضى يستمد العزاء من الداخل ، من موارد عقله أما الآن فقد نضبت هذه الموارد وصار مثل صحراء قاحلة بلا شعور ، بلا حب ، بلا ميل الى كتابة أشعاره المحبوبة ، بلا قلب . وكان دائماً يرثى لأحزان غيره ويعطف عليهم فتمنى الآن من الله أن يرثى لأحزان نفسه ولكنه لم يفز بطائل

أخيراً تناول جان قيثارته وأخذ يوقع عليها الأغنيـة الأولى التى خطرت بباله وكانت أغنية ايطالية قديمة فأخذ يوقع على الأوتار بأنامله بخفة ومهارة وارتفع صوته الشجي بحيث كان يخيل الى كل من يسمعه أنه عاشق دنف من عشاق فلورنسا التجأ الى غابة « فيزول » — ومع ذلك كان قلبه خالياً

وبينما كان يغنى اذ تمثلت أمام عيني قلبه صورة الأراضي التى تجول فيها فيما مضى ، فرأى المنازل البيضاء وقد انعكست صورتها ثانية على سطح ماء البحر المتوسط ، وأشجار الزيتون المغروسة على جوانب التلال ، والطرق المارة التي تجتاز القرى، والفلاحين السمروهم يسوقون قطعان الغنم فى الطرق الجبلية ، ثم شاهد أنوار مدينـة الاسكندرية وهى تتلألأ من وراء المياه وسمع صوت اصطدام الأمواج بالصخور وأخيراً تمثل له من خلال هذا المنظر البديع الهادىء ذاك الوجه الغريب وجه تلك المرأة التي زعم انه نسيها . فعادت الى ذاكرته صورة شعرها

الاسود وخيل اليه أن عينيها الجميلتين تحدقان النظر الى عينيه في حين تردد في جوانب قلبه الداخلية صدى كلمة « مونميـه » . ولم يلبث أن شعر فجأة كأن باباً فتح في داخله على مصراعيه وتدفقت منه عواطفه المقيده وشعوره وأفراحه التي نسيها فغمرته وأغرقتـه في لجة عميقة لا يدري من أمرها شيئاً

وضع جان قيثارته جانبا ثم جلس هنيهة كانمـا أصابه شيء من الذهول وخيل اليه انه قام من بين الأموات وان قلبه عاد الى الحياة ثانية

وقف بعد ذلك على قدميه ورفع وجهه الى السماء وأخذ ينظر الى القمر ويضرب على صدره بكلتا يديه ولم يلبث لدهشته أن شعر بدموعه الغزيرة تنحدر على خديه ـ دموع لم تذرف منذ كان صبياً صغيرا . ثم ضحك ولكن ضحكته هذه انقطعت اذ خنقته العبرات وخارت قواه

القي جان نفسه على الارض ثم مد ذراعيه أمامه ودفن وجهه وسط الحشائش الخضراء ولم يكترث بظهوره على هـذه الحال بمظهر الضعف والحماقة قائلا انه هنا وسط الغابة وحيداً لا يجد من يتلقي دموعه غير الارض

مكث جان ملقي على وجهه مدة الى أن غادرته النوبة التي أصابته فرفع رأسه واذ ذاك علم ان هناك من يراقبه

أحدق جان النظر الى الاشجار وصاح قائلا

ـ من هناك ؟

فسمع أغصاناً تتكسر ولم يلبث أن شاهد الضحاك وقد خرج من خلال الاشجار الى نور القمر ووقف أمامه وقد وضع يده على جبينه

وقف جان على قدميه اذ ذاك وسأل الضحاك بغضب قائلا

ـ ماذا تفعل هنا ؟

وكان جان قد شعر بخجل عند ما رأى ان الضحاك يراقبه فصعد الدم الى عينيه غضبا

قال الرجل

ـ أسألك المعذرة ياسيدي . لقد سمعتك تغني على قيثارتك فأتيت لأسمع غناءك وبعد ذلك رأيت أنك في أضطراب ياسيدي ثم ..

خطا الضحاك الى الامام خطوة واحدق النظر في وجه جان ثم استطرد في حديثه فقال بصوت ينم على التأثر

ـ اي سيدي عزيزي ، ما ذا جرى ؟ اخبرني كل شيء ولا تكتم عن صديقك شيئاً . أن الاصدقاء يتمسكون ببعضهم بعضاً في السراء والضراء . هذا ما قلته أنت يا سيدي بنفسك وهذه كلماتك التي فهت بها عند ما صافحتني . أني لا أحجم عن القيام بأي عمل في العالم لاجلك ياسيدي . اني اعيش من الصيد وقد أكون لصاً ايضاً كما قلت ولكني لا أستطيع أن أراك تبكي ووجهك في الارض . لا أستطيع أن أرى ذلك ثم أعقد لساني . اخبرني يا عزيزي . اخبر صديقك . اذا كنت فقدت جميع أموالك فاني أشتغل لأجلك يا سيدي لاني لست في حاجة الى أجر . واذا كان لك عدو قل كلمة واحدة أقتله . أني أموت لاجلك وأموت بفرح

نظر جان الى الرجل دهشة . وكانت الكلمات تتدفق من فمه بسرعة لاتدع مجالاً لشك . اخيراً قال جان

ـ لماذا أيها الضحاك ؟ ما الذي جعلك تشعر من نحوي بمثل هذا الشعور ؟ اني لا أستحق شيئاً من ذلك

فاغرب الضحاك في الضحك وقال :

ـ اذا صادفت رجلا اتخذته لي صديقاً . وقد فعلت معي أموراً لا أستطيع أن أذكرها لك . أنك أول رجل عاملني بعدل وحنان . أنك تسحق قلبك وتسحقه دون أن تخبر احداً . اخبرني يا سيدي اتوسل اليك أن تخبرني

فتبسم جان ووضع يده على منكب صديقه وقال

ـ ليس هناك ما يقال . الامر يتعلق باناس مثلي ومثلك فشلوا في الحياة . والظاهر أننا لا نصلح للحياة في انكلترا . وأظن أنني أخذت أفكر ببلاد أخرى ، بالطرق القديمة والبحر والصحراء وغير ذلك من الاشياء ولكنك لا تفهم لانك لم تغادر افرسفيلد طول حياتك

جلس جان ثم اشار للضحاك أن يجلس فجلس الرجل ثم قال

ـ أخبرني عن تلك الاماكن والبلاد يا سيدي مثل التي ذكرتها في أغنيتك

وكان الضحاك يعلم بغريزته أن الخوض في حديث طويل هو أحسن دواء لصديقه وفعلا أخذ يستدرجه الى الكلام حتى خاض جان في الكلام على البحار والبلاد البعيدة .

وفي الواقع أخذ جان يتكلم عن الطرق الملتوية التي تؤدي الى تلال سيلان حيث تغشى الارض ازهار حمراء وطيور الببغاء تصطف على جانب الطريق والقردة تقفز من غصن الى غصن ثم تكلم عن جزر روية حيث يشتغل السكان بجمع اللآلىء ثم منظر المياه الهادئة والنجوم تتلألأ من سطحها

انتقلت به الذكرى بعد ذلك الى شاطىء ايطاليا الجنوبي حيث

كانت ميناء برنديزي الصغيرة تبدو جميلة فى أحد ليالى الصيف ونغمات الموسيقى تنبعث من وراء الماء وأهلها يسيرون فى الشوارع والخلوات ترويحاً للنفس

ثم أنتقل الى جبال لبنان حيث تنحدر المياه الصافية فوق جوانب الصخور وتسير الى أن تصب في البحر المتوسط : وتكلم عن أشجار التوت وكروم العنب والأزهار الجميلة المختلفة التى تبهر الابصار وتأخذ بمجامع القلوب

وأخيراً وصل فى حديثه الى مصر والصحراء تذكر اثار الذئاب وبنات آوى التى تمتد من النيل الى التلال حيث يموت الانسان من العطش : وهو على مسافة قصيرة من الابار المختفية، وحيث يرى السراب وهو يبدو كبحيرة من الماء فيغتر به السائح ويحسبه ماء ،وحيث تحلق الطيور الجارحة فى الهواء تنتظر حيواناً أو أنساناً يموت لكى تنقض عليه

مكث جان مدة طويلة يتكلم على هذه الحال في حين ان القمر قد علا في السماء فوق الأشجار ، الى أن شعر ببرد الليل فذكر أن عليه أن يعود الى منزل المزرعة وفعلا التقط قيثارته ووقف على قدميه

على أن الضحاك ظل جالساً في مكانه ولم يتحرك وكان يحدق النظر الى ماامامه ويداه قابضتان على الحشائش

قال جان

ـ هيا بنا . يجب أن أعود الى المنزل الآن

فرفع الضحاك وجهه وقد ارتسمت عليه صورة غريبة ثم قال

ـ ألا تنوى أن تخبرني عما يؤلمك يا سيدى ؟

فهز جان رأسه ثم قال

ـ كلا . لا استطيع أن أخبرك بشي لسبب ما . ولكني أقول لك أيها الضحاك اني اذا اضطررت الى بث حزني فانى لا ابثه الا لك

***

ولما وصل جان الى المنزل وجد انه تأخر عن ميعاد العشاء ولم يكد يصل الي مدخل السلم حتي وجد دورا في وجهه فثار غضبها عند ما رأت انه لا يزال يرتدى ثياب النهار وصاحت قائلة

ـ أواه . يا جيمس . أين كنت ؟ لقد أبقيت الطعام لاجلك ربع ساعة بعد الميعاد

فقال جان

ـ انى آسف . لا استطيع تناول الطعام بثيابى هذه . لا تنتظرى . سأعود بعد قليل

فاجابته دورا بتردد قائلة

ـ لا تعجل . سيتعشى المستر مريفال معنا وعلى ذلك لا اكون وحيدة

الفصل الحادى عشر

السفر

مكث جان ثلاثة أعوام ، ثلاثة أعوام طويلة لا نهاية لها ، متحملا حياته الزوجية الخاملة فى افرسفيلد ، وقلبه مغلق فى وجه الاصوات الهامسة التى كانت تأمره بنبذ ارثه والذهاب الى العالم الحر الطلق مرة أخرى . ولكن الامور كانت الآن قد بلغت أزمة نفسية وكان قد أصابه شىء فتح أبواب قلبه المغلقة

وبينا كان جالساً فى غرفته ذات ليلة اذ خيل اليه ان هذه الاصوات أخذت تحمل عليه من كل ناحية . تحرضه على مغادرة انكلترا وتتوسل اليه تارة وتسخر منه أخرى لكسله وجموده وتغريه بما ينتظره من الأفراح والمسرات فى البلاد الاخرى

كانت هذه الاصوات تتمتم فى أذنه قائلة

ـ انبذها . لم تخلق لمثل هذه الحياة . انك لن تجد السعادة هنا . فكر فى صوت البحر وأمواجه فكر فى البواخر التي تمخر عبابه ، فكر فى أصوات الركاب وهى ترتفع عند ما تلقى الباخرة مرساها ، فكر في الاصوات المألوفة التى كنت تسمعها في القرى الصغيرة ، فكر في أشجار النخيل ووقع خفاف الابل وهي تسير فوق الرمال وفي عواء الذئاب من بعيد ، فكر فى الحياة السعيدة المطلقة التى يتمتع بها الرحالة . فكر فى الحرية من قيود هذه المظلمة الكاذبة ، انبذ هذه الحياة الشاقة أيها الأحمق وتنقل بجسمك هذا الخامل فوق التلال وما بعدها . ان أمنيتك

المفقودة تنتظرك فيما وراء الافق ولكنها لا تعود اليك في هذا الوادي الراكد

مكث جان يطلق لافكاره العنان على هذه الحال الى ساعة متأخرة من الليل . ولما التجأ في النهاية الى اليوم رأى أحلاما مملوءة بأشياء بعيدة ومناظر غريبة . ثم مكث في الصباح الباكر ساعة مستيقظاً في فراشه قبل أن يحين الوقت للذهاب الى الحمام

أخيراً سمع قرع النواقيس البعيدة في اكسفورد فوثب من فراشه قائلا — سحقاً لهذه الاجراس فقد خدرت أعصابي مدة طويلة . أما اليوم فقد أفقت ولا يمكن أن أعود الى النوم ثانية

استقر رأيه في الحال على أن يسافر وحيداً مدة شهرين أو ثلاثة مهما أقامت زوجته في سبيله من العراقيل أو اتهمته من الاحتجاجات وفوق ذلك عول على أن يضع مشروعاً آخر بحيث يكون لديه نظام آخر للحياة يعود اليه في المستقبل كما مل الحياة في المنزل

لقد عاش عمه حياة مزدوجة ففي وسعه أيضاً أن يفعل ذلك ولكن ليس بمعاشرة امرأة أخرى غير زوجته بل بمعاشرة تلك السيدة الجميلة التي يعشقها الجميع والتي يسمونها (الحرية)

استقر رأيه على أن يبيع من أملاكه ما تعادل قيمته بضعة آلاف من الجنيهات وأن يودع هذا المبلغ باسمه المستعار القديم (جان ايستون) في جزء آخر من العالم لا يعرف أحد آخر عنه شيئاً .

وكان جان قد عاش الاعوام الثلاثة الماضية من دخل أطيانه وعلى ذلك يجب أن يستخدم هذا المبلغ في سد نفقات زوجته ونفقاته مادام موجوداً في انكلترا ولكن معظم ثروته الاخرى التي لم تمس يجب

تحويلها شيئاً فشيئاً الى حساب جان ايستون الرحالة

وكان جان غارقاً في مشروعه هذا وقت تناول الفطور فلم يكترث بسكوت زوجته المؤلم واخبرها انه ينوى السفر الى لندن لقضاء بضعة أيام وانه يحتمل أن يقوم هناك بالتدابير اللازمة للسفر الى الخارج لترويح النفس ببرود قائلة

– كما تريد . انى فى حاجه أيضاً الى ترويح النفس ولكنى لا أستطيع أن أقوم بدور الهارب اذ يجب البقاء هنا والقيام بواجبى

ركب جان عربته الى اكسفورد وفي أثناء الطريق أخذ ينعم النظر في مشروعه بدون انقطاع ولما ركب القطار لم يفكر تقريباً بأمر آخر وفي الواقع لم يقلب صفحات جريدة واحدة من الصحف التي اشتراها. وكانت المشكلة هي الاهتداء الى وسيلة يستطيع بها أن يضع رأس ماله باسم جان ايستون ثم يضيف اليه فيما بعد بدون استخدام دفتر حوالاته أو استعمال أوراق مالية يمكن اقتفاء أثرها اذ لا فائدة من مشروعه اذا كان من الممكن الاهتداء الى تغيير شخصيته. وقصارى القول كان يريد أن يقول لزوجته كل سنة : (انى مسافر وسأعود في اليوم الفلانى ولا يمكن العثور على قبل هذا التاريخ أو أن أتحمل بأية وسيلة متاعب الحياة المنزلية)

لم يكد يصل الى الفندق حتى استقر رأيه على حل بسيط . وكانت رغبته في تنفيذه شديدة بحيث شرع فى القيام بالمهمة على أثر وضع حقيبة ملابسه فى غرفته بالفندق . وكان قد اشتهر وهو فى جنوب افريقا بالخبرة فى أحجار الماس وتقدير قيمتها فاستقر رأيه الآن على أن يستخدم معلوماته هذه وكان يعرف تاجرين أو ثلاثة يشتغلون

بتجارة الاحجار الغير المرصعة فذهب جان اليهم بعد الظهر وكانت النتيجة أن اختار نحو عشرين حجراً من الماس حجزت على ذمته حتى تصل الحوالة المالية

استأنف جان أعماله في اليوم التالي ولم يأت المساء حتى أضاف الى رأس ماله الفي جنيه واشترى بالجميع صندوقاً صغيراً مملوءاً بأحجار غالية تزيد قيمتها على الثمن الذى دفعه فيها كثيراً

عول جان على بيع هذه الاحجار ثانية واحداً بعد آخر في البلدان الاجنبية المختلفة ثم يودع أثمانها باسم جان ايستون فى مصرف بروما مثلا . ولما كانت هذه الاحجار صغيرة ذات قيمة قليلة فانه لا يمكن اقتفاء أثرها الى أبعد من المكان الذي باعها في لندن اذ فرض وامكن الاهتداء اليه

استقر رأى جان قبل عودته من اكسفورد أن يزور مسز دارلنج لكي يطلب اليها السفر الى افرسفيلد لتقيم مع ابنتها أثناء غيابه . وكان يعدها امرأة قادرة . رضية الاخلاق . أما هي فكانت تظهر له الحب وتقضي معظم أيامها في المكان الذى استأجرته بلندن

وجد جان حماته فى منزلها عند ما زارها فاستقبلته بابتهاج وسرور ولامته لعدم مراسلتها كثيراً وقالت

ـ أظن انك كنت تريد السفر الى افرسفيلد دون زيارتي

فتبسم جان وقال

ـ لو فعلت ذلك لأبلغتك دوراً

ـ كيف حال دورا ؟

ـ انها بخير

قالت مسز دارلنج عند ما جلسا معاً في غرفة الاستقبال

– لاحظت فى المدة الاخيرة انك تأتي الى لندن بدونها . أرجو انك لا تعيش حياة مزدوجة

– كلا

هذا حسن . هل تعودت على الشرب بعد ؟

فضحك جان وقال

– كلا . ولماذا ؟

– ان معظم المتزوجين يفعلون ذلك وكان زوجي واحداً منهم . وكان يجتهد فى اخفاء ذلك عني ولكني كنت أراه يستيقظ مبكراً ثم يغتسل بالماء البارد ويشرب ثم يعود الى فراشه ثانية

فقال جان

– انني في الواقع أفكر في أن أضم حبلي على غاربي مدة وجيزة . وهذا هو السبب فى زيارتي هذه لك . انى أريد نصيحتك

فصاحت المرأة قائلة

– نصيحتي ؟ لماذا يا ولدي . ان نصيحتي لا قيمة لها مثل صفر على اليسار

– لا أطلب نصيحتك بالضبط بل أطلب مساعدتك والحقيقة هى انى أريد السفر فقد سئمت نفسي المقام في افرسفيلد وأظن ان دورا تشعر في بعض الاحيان بضيق من نحوي وعندي اذا سافرت الى الخارج مدة وجيزة عاد ذلك علينا بالفائدة

نظرت مسز دارلنج اليه نظرة تنطوي على القلق ثم قالت بلهجة الجد

– أرجو ان لا يكون بينكما شيء من النزاع ؟

فأسرع جان قائلا

— كلا . كلا . ان كل شيء بيننا على ما يرام

— أرجو ذلك . ولكني أعرف دورا شديدة الالحاح

فقال جان

ـ ان هذه غلطتي . لا بد أن أكون زوجاً شاذ الطباع

فصاحت المرأة حزناً وقالت

ـ اذن لا بد ان يكون بينكما شيء من الشقاق ؟ هـذا ما خطر ببالي من تلاوة خطاباتها

شعر جان بحرج مركزه فقال

ـ كلا . اني اريد السفر لاني اشعر بشيء من الضعف ثم اريد ان أنقح شيئاً من اشعاري القديمة

فنظرت المرأة اليه بجد وقالت

ـ لا فائدة يا عزيزي من ارضاء ستيرتين اذا كنت قد فقدت سرورك . فاذا كنت لا تشعر بسعادة في منزلك فلا فائدة من انتحال الاعذار للسفر

فقال جان

أؤكد لك . . .

ولكنها قاطعته قائلة

ـ تعال الآن . قل لي ماذا تريد ان افعله ؟ هل تريد ان احمل دورا على ان تسمح لك بالسفر ؟

فهز جان رأسه وقال

ـ كلا اني مسافر على كل حال . لا أريد منك شيئاً غير أن تتولى

الاهتمام بها أثناء غيابي . سافرى معنا الى بلدة أخري ترويحاً للنفس اذا شئت ويسرني أن أقوم بجميع نفقاتكما

فسألته قائلة

ـ الى متى يطول غيابك في الخارج ؟

ـ بضعة شهور ليس الا . لا أدرى بالضبط ...

فنظرت اليه نظرة باحث مدقق وقالت

ـ هل يتعلق الامر بامرأة أخري ؟

فضحك جان وقال

ـ كلا . كلا . انني أمقت النساء

فتبسمت المرأة وقالت

ـ شكراً لك . أقول بالنيابة عن نفسي وبالاصالة عن ابنتي شكراً لك

ثم لزمت الصمت هنيهة واستطردت في حديثها فقالت

ـ لا أدري لماذا تزوجت ؟

فأجابها جان قائلا

ـ لكل انسان غروره وأوهامه

فرددت المرأة صدى كلمته قائلة

ـ غروره وأوهامه ! ما هو الغرور ؟ انه سلاح الطبيعة . انه شيء يستخدمه الشباب لكي يخفي شيئاً آخر . ان الشباب كارثة . ولعمرى كم أشكر الله لتقدم سني لان الشيخوخة تسبغ على الانسان نعمة عدم الاكتراث والاهتمام بالحياة . اني سعيدة بشيخوختي

فأجابها جان قائلا

ـ لست عجوزاً . ولعمرى لا يتجاوز سنك الاربعين انك في

ريعان الصحة

فقالت المرأة

ـ نعم يا عزيزي . ليس لدي ما أشكوه من هذه الوجهة وكل ما أحتاج اليه القوة في رجلي والنقاوة في قلبي

فوضع جان يده عليها وقال

ـ ان قلبك نقي

فأجابته قائلة

ـ كلا . انني امرأة عجوز شريرة اكتسب قوتي بالكتابة عن ثياب النساء وكيف يرتدين ثيابهن ليقضين على فضائل الرجال وأجلس في النوادي أثناء الليل والعب الورق في أيام الآحاد وأتعشى مع أي رجل يطعمني ويقدم الي زجاجة من الخمر ، ولا أذهب الى الكنيسة فماذا تقول افرسفيلد في ذلك ؟

ـ ألا سحقاً لافرسفيلد . انك طيبة القلب عن كثير من أهل أفرسفيلد

فقالت المرأة

ـ لست واثقة من ذلك

ثم هزت كتفيها وخاض الاثنان في حديث آخر

أخيراً وقف جان ليستأذنها بالانصراف قائلا

ـ لا أراك قبل عودتي من السفر

فاضطربت المرأة وسألته عن معنى ذلك فقال

ـ سأسافر غداً الى اكسفورد ثم أبحر بعد غد

فنظرت اليه بقلق مرة أخري وسألته ثانية قائلة

ـ أخبرني ، أليس بينك وبين دورا نزاع ؟

فأكد لها قائلا

ــ كلا مطلقاً . فقط تاقت نفسي الى السفر الى ايطاليا ....

فقاطعته قائلة

ــ حسن . اذا نزلت في كوخ من القش فلا تخش فيه شيئة

فضحك جان وقال

ــ ماذا تعني ؟

ــ أعني ... لا يهمك ماذا أعني . لا تطل غيابك في الخارج لئلا يقع شيء من النزاع . لا تنس تقاليد بلادك ولا تنس ما كتب على قبر عمك . ماذا يقول ؟ — انه يقول ان الرجل الذي يحافظ بنبل على تقاليد أسرته ...

فقاطعها جان قائلا

ــ نعم . انه هذيان . ألا تعلمين أنني عثرت على بعض خطاباته وفي وسعي أؤكد لك أن جميع المظاهر الخاصة باحترامه ليست الا مظهرا كاذباً وأن جميع حياته اكذوبة ؟

فمدت المرأة يدها الى اليد التي امتدت لمصافحتها ثم أمسكتها وقالت

ــ اعلم ياولدي اني امرأة عجوز شريرة ولكنني أجل كل فضيلة ولو كانت مظهراً كاذبا كما تقول

لما عاد جان الى اكسفورد وأبلغ خبر سفره العاجل الى دوروثا قابلته بهدوء لم يكن يتوقعه وفي الواقع أجابته بفتور قائلة

ــ اذا كان قد استقر رأيك على الذهاب فانه لا فائدة من التلكؤ هنا . لقد آلمتك عشرتي أخيراً فربما تقسو أعمامي معك اذا ما خلوت بنفسك

فأجابها جان قائلا

ـ لا ريب في ذلك يا عزيزتي

سألته دورا بسكون عن التدابير التي قام بها لكي تحصل على ما تحتاج اليه من النقود فلما سويت هذه المسألة على ما أرادت قالت

ـ أرجو أن لا تذهب الى أى مكان خطر . لا تعرض نفسك الى أى خطر

ـ ثقى أنه ليست لدى نية للتعرض الى أى شيء من ذلك

فلم تكترث بقوله هذا واستطردت في حديثها قائلة

ـ ولكن لنفرض أنه أصابك شيء فماذا يكون من أمرى ؟

فضحك جان وقال

ـ سأكتب لك وصيتي اذا شئت

فصاحت دورا رعباً وتمتمت قائلة

ـ يالها من فكرة مروعة !

لزمت دورا السكوت لحظة وهي تحدق النظر من النافذة ثم قالت دون أن تنظر اليه

ـ أظن أن سطراً واحداً على ورقة صغيرة يكفي وعليك أن تقول أنك تركت كل شيء لى لانى على الاقل لا أريد أن تترك شيئاً لاحد غيرى

ثم نظرت اليه وعلي فمها ابتسامة ساذجة فقال جان

ـ ثقي أن كل شيء سيؤول اليك بعد وفاتى

فابتسمت له مرة أخرى وأمسكت يده بلطف وقالت

ـ حسن . الصواب ان تكتب هذه الووقة قبل ان تنسي

ثم اشارت الى مكتبه فى زاوية الغرفة وقالت

ـ ليس عليك الا ان تكتب هذه الكلمات ثم تختمها وتكتب على

الغلاف : « تفتح فى حالة وفاتى » ثم ترسلها الى محاميك . هـذا كل ما هنالك

فسار جان الى مكتبه لينفذ ارادتها ثم ضحك وقال

ـ يلوح لى انك قتلت الموضوع بحثاً

فصاحت دورا منبهتة قائلة

ـ ما هذه الاقوال القاسية التي تقولها يا جيمس ؟

سافر جان في صباح اليوم التالى دون ضجة . ولم يأخذ معه غير حقيبة واحدة ووضع أحجار الماس الغالية في منديل دسه في جيبه وحمل عصا غليظه . وكانت دورا أخبرته انهـا ستركب معه الى اكسفورد لـكي تودعه فى المحطة ولـكن لمـا كان القطار الذي عول على السفر فيه يكون مبكراً ولم ترتد دورا ثيابها في الوقت المناسب فقد اضطرت الى « توديعه عند نهاية السلم »

الفصل الثاني عشر

النجاة

وصل جان الى باريس ولم تكن أفكاره قد هدأت بعد ولكنه ضطر الى الشروع في بيع الاحجار التي معه حجراً بعد حجر بطريقة سرية لكي لا يلاحظ أحد عليه شيئاً الى أن استطاع فى نهاية اليوم التالى لوصوله التخلص من ربع ما معه فارتاح عند ما وجد محفظة نقوده ملأى بالاوراق المالية التى سينفقها في رحلاته

سافر جان من باريس الى مرسيليا ومونت كارلو وفي أثناء طريقه باع ما لديه من الاحجار الباقية بفائدة قليلة . وقد شعر في أثناء تنفيذ مهمته هذه انه اشبه شيء بلص ولكنه كان مصمماً على اخفاء أثره والتمتع بالحرية التي سلبته اياها دورا فلم يكترث بشيء

أخيراً سار على طول الشاطيء وهو يحمل رزمة ضخمة من الاوراق المالية الى أن اجتاز الحدود وهو لا يزال حاملا اسمه فنزل فى سافونا وجنوى وسبيريا حيث استبدل نقوده بمشقة بنقود ايطالية وبعد ذلك سافر الي روما حيث أودع نقوده في مصرف مشهور وفتح حساباً باسم « جان ايستون »

انتهي جان من عمله هذا فشعر انه خطا الخطوة الاولى فى سبيل تحرره اذ صار فى وسعه الآن أن يعود الى روما ليقضى شهراً أو شهرين كلما شعر بضيق من حياته في افرسفيلد وأن يذهب شرقاً أو جنوباً متي شاء

وكان قد مضى الآن نحو أسبوعين على سفره من انكلترا ولكن روما كانت المدينة الاولى التي غير فيها اسمه . وكان تغيير اسمه يعد شيئاً عظيما فى نظره . وفى الواقع كان له تأثير كبير في نفسه بحيث تمنى لو يقابله واحد ممن يعرفونه في انكلترا لكي يقف أمامه وجها لوجه ويقول « اخشى يا عزيزى أن تكون قد أخطأت فان اسمي « جان ايستون » وقد جئت من مصر

لما كان قد تم الآن لجان ما أراد من الظهور بهذا المظهر الجديد قد أخذ يعمل لاسترداد شعوره القديم بالحرية وذلك بالعودة الى رحلاته القديمة . وعلى ذلك اختار فى الحال فندقاً صغيراً في الحي الوطني فى جوار « بونت ستو » فنزل فيه باسم جان ايستون واستأجر به غرفة لمدة أسبوعين وبعد أن وضع حقيبته ذهب في الحال الى المحطة وسار مسافة طويلة الى « بيزا » وكان غرضه السير جنوباً من تلك النقطة على طول الشاطىء الجميل حيث تمتد أشجار السنوبر الى الشاطىء

وكانت موارد شعوره قد جفت فى خلال الأعوام التى قضاها فى افرسفيلد وتجرد عقله من جميع الأفكار العالية . أما الآن فقد انتعشت افكاره وعادت اليه روح الابتهاج التى كان قد فقدها منذ زمن بعيد وفي الواقع صار اليوم رجلا آخر فعاد اليه النشاط وعادت اليه رغبته في الاصغاء الى صوت الآمال وصار فى قدرته أن يحلق بأفكاره ثانية الي الشمس والنجوم

على انه اصيب بعد يومين بحادث خطير غير مجرى حياته كلها

كان جان قضى طول يومه متنقلا بين أشجار الصنوبر على طول الشاطىء فسأل عابر سبيل عما اذا كانت هناك بلدة صغيرة قريبة يستطيع

المبيت فيها فاخبره الرجل ان الطريق الذي يسير فيـه جان يؤدي الى فندق صغير لجماعة الصيادين حيث يمكن الحصول عادة على غرفة للمبيت وشيء من الطعام . أما البلدة القريبة فانه لا يستطيع الوصول اليها الا بعد مدة ليست قصيرة . ولما كانت الشمس حارة وكان جان يشعر بتعب شديد عول على أن يذهب الي هـذا الفندق الذي أخبره الرجل انه لا يبعد غير مسيرة عشر دقائق

وصل جان الى المكان فوجده بناء عالياً مربعاً عتيقاً يدل مظهره على أنه شهد اياماً سعيدة كغيره من المنازل العتيقة في ايطاليا . فكان السطح في حاجة الى اصلاح ودرف النوافذ أخذت تتكسر وجدرانه مصدعة . ولم تكن هناك علامات تدل على انه فندق غير منضدة طويلة ومقعد خشبي على جانب الباب وبعض صور بالفحم معلقة على الجزء الجنوبي من الحائط الامامي

وكان المنزل قائماً على ربوة مقابل شاطيء البحر تحدها أشجار الصنوبر من الخلف ، والي الجانب بقعة من الارض المزروعة . وكان هناك زورق صغير مقيد الي الشاطيء بحبل طافيا على وجه الماء الهادىء في حين شاهد جان على صخرة قريبة رجلين من الصيادين جالسين يدخنان . ولما وقع نظر أحد الرجلين على جان نادى صاحب الفندق فخرج الرجل الى الباب وكان طويل القامة ضخم الجسم اشيب الشعر مجعد الجبين ، غائر العينين

وقف جان حائراً لا يدري هل يقضي ليلته في هذا المكان الموحش أو يواصل السير في طريقـه وعلي ذلك طلب زجاجة من النبيذ فقط وطلب الى صاحب الفندق أن يشرب كأساً معه فاجاب الرجل الدعوة

بدون تردد ولم يلبث أن ذهب وعاد حاملا زجاجة الخمر

على أن الرجل تردد قليلا قبل فتح الزجاجة وذكر الثمن فوضع جان يده في جيبه فزادت التجعدات التي على جبين الرجل عمقا عند ما وقعت عيناه على النقود ولكن بدت على وجهه دلائل الامتعاض لان النقود التي أخرجها جان من جيبه لم تكف لدفع الثمن فابتسم جان وطيب خاطره ثم أخرج محفظة نقوده الضخمة من جيبه واختار ورقة مالية منها وطلب اليه أن يصرفها فانبسطت اسارير وجه الرجل وفتح زجاجة الخمر في الحال فصرف الورقة وعاد ببقيــة النقود وجلس يحيي ضيفه بابتهاج

مكثا يتحدثان هنيهة وسرعان ما وجد جان رفيقه جبان يدعي الشجاعة وعلم انه كان في الجيش وانه قام باعمال تنطوي على الاقدام والشجاعة ثم قص عليه أيضاً حوادث حب وغرام وكيف انه قتل رجل زاحمه على حب فتاة

وكان جان يصغي اليه فلما انتهى من حديثه أخبره جان انه رجل انكليزي معتدل ينتقل من قرية الى أخرى على الشاطيء طلباً لترويح النفس فدهش صاحب الفندق وأخذ ينظر اليه بدقة من وقت الى آخر ويصغي اليه باهتمام حتى نسي أن يشرب كأسه وظل جالساً ينظر الى البحر ويداه على صدره

كانت الشمس قد أخذت في الغروب عند ما قام جان في النهاية ليرى هل يواصل السير أو هل يمضي ليلته حيث هو : على انه كان يشعر بتعب في ساقيه ولما دعاه صاحب الفندق ليتفقد غرفة الضيوف في الدور الثاني. لبي جان الدعوة في الحال ولما رآها ملائمة قرر في الحال المبيت فيها الى

الصباح .

ذهب صاحب الفندق اذ ذاك الى الجزء الخلفي من البناء ليعد الطعام في حين سار جان الى شاطيء البحر الرملي يستنشق هواء المساء العليل فتسلق الصخور المستديرة التي ربط الزورق باحداها

جذب جان الزورق من حبله ثم نزل فيه وجلس هنيهة يجدف وينظر الى البحر ويصغي الى صوت الامواج وهي تتلاطم وتندفع الى الشاطيء ويلاحظ أنوار السماء وهي تتلاشى وتختفي الى أن رأى في ضوء المساء الضئيل صاحب الفندق يبحث عنه فعاد الى الصخور ومنها الى الشاطيء

تناول جان الطعام في الغرفة الامامية في الحال فلما فرغ عاد ثانية الى المنضدة في الخارج فوجد مضيفه جالساً مع ثلاثة رجال آخرين فجلس معهم وأمر باحضار زجاجة أخرى من الخمر على ان منظرهم كان مما لا ترتاح اليه النفس وفي الواقع كانت تبدو عليهم سيما قطاع الطريق ورجال العصابات . ومع ذلك استمر الحديث بينهم الى ساعة متأخرة من الليل لان الجميع كانوا سيقضون الليلة في الفندق الى أن قام جان بعد منتصف الليل وحياهم ثم ذهب الى غرفته مع صاحب الفندق

أخيراً وجد جان نفسه منفرداً في الغرفة فذهب الى النافذة . وأخذ يحدق النظر الى الظلام . وكانت السماء تتلألأ بالنجوم التي كان نورها ينعكس في البحر على انه استطاع ان يرى بمشقة الصخور والزورق الصغير

مكث على هذه الحال غارقا في لجة عميقة من الافكار الى أن شعر فجأة بالخوف يتسرب الى قلبه فعاد الى نور الشمعة الضئيل ووقف

وسط الغرفة متردداً

على أن هذا الشعور لم يلبث أن ذهب عنه ولكنه أراد أن يشغل أفكاره بامر آخر فاخرج من جيبه بطاقة بريد وقام بذلك الواجب الذى كان يجب عليه القيام به قبل الآن وهو الكتابه الى زوجته فكتب سطراً أخبرها فيه انه بخير ثم عنون البطاقة باسمها ثم وضعه جانباً على أمل أن يضعه فى صندوق البريد في احدى القري التي لم تسمع دورا عنها شيئاً . ولما فرغ من ذلك كله جلس على حافة سريره وتأهب لخلع ملابسه

وبينما كان يميل لفك سيور حذائه عاد اليه خوفه القديم فجلس جامداً في مكانه هنيهة ينظر الى الشمعة ويعجب من أمر هذا الشعور الغريب. على انه قال في نفسه انه قضى مدة طويلة في افرسفيلد أنسته الظروف العادية لحياة التجول والانتقال

على انه لم يلبث أن ذكر فى لمح البصر ان صاحب الفندق رأى رزمة الاوراق المالية التي يحملها معه وان الرجل يعرف انه عابر سبيل لا علاقة له باحد وعلى ذلك يعد ضحية ملائمة للسرقة ان لم يكن للقتل

اشتدت دقات قلبه لهذه الفكرة بحالة مزرية فاخذ يقاومها بشدة ومع ذلك ذهب الى الباب وأغلقه بالمزلاج ثم جس جيبه لكى يتحقق من وجود علبة الكبريت معه ووضع الشمعة بجانبه واطفأ النور وتأهب للنوم

رقد مدة على فراشه هادئاً وهو يرتدي ثيابه وعيناه نحو النافذة المفتوحة التى كانت نجوم السماء اللامعة ترى منها ولكن أخذ النوم يتغلب عليه في النهاية فلم يشعر بشيء

استيقظ جان وهو يعتقد انه سمع صوتاً أقلقه من نومه ومكث

هنيهة يشعر بدقات قلبه الشديدة وهو يصغي باهتمام . وكانت النجوم قد سبحت في السماء أثناء نومه ورأى من موضعها الآن ان الفجر ليس بعيداً وهي حقيقة ابتهج له قلبه لانه كان يتوقع خطراً لا يدرى ماهو

هم جان باضاءة الشمعة ولكن سرعان ما دب الهلع الى قلبه اذ شاهد رأس رجل ترتفع ببطء فوق مستوى قاعدة النافذة فلزم الصمت والسكون وأخذ يجهد فكره بشدة لكى يتغلب على الموقف الذي وجد نفسه فيه . وبينا كان يفعل ذلك ارتفع الشبح الذى كان خارج النافذة بسكون حتي ظهر الجزء الاعلى من صدره فعرف جان انه صاحب الفندق

وكان القمر قد اختفى وراء الافق والظلمة مخيمة على المكان فرأى جان ان الرجل لا يستطيع رؤيته كذلك فمد ذراعه حتي قبضت يده على « الشمعدن » وكان مصنوعاً من النحاس الاصفر

تحول اضطراب جان الى ثورة القتال فوثب مثل النمر وحمل على خصمه فى هذه اللحظة كان الرجل قد وثب من النافذة الى الغرفة ولم تمض لحظة حتي وقف الرجلان وجهاً لوجه

وكان صاحب الفندق رافعاً ذراعه فضربه جان « بالشمعدان » فسقطت السكين التي كان يحملها الى الارض فمال الرجل ليلتقطها فصوب جان اليه ضربة أخرى ولكن قبل أن يهوى بها ضربه غريمه بيده اليسرى فى وجهه فترنح الى الخلف والدم يتدفق من أنفه

استرد جان توازنه واندفع الى الامام ثانية وقبل أن يلتقط صاحب الفندق سكينه هوى الشمعدان على رأسه وكانت الضربة صائبة فهوى الرجل الى الارض فاقد الشعور

وقف جان فوق غريمه رافعا ذراعه بسلاحه الحقير لكى يعيد الضربة واذ ذاك شعر بالدم يتدفق من أنفه فأخرج منديله من جيبه وحاول عبثا حبسه وفى الوقت نفسه تولته الحيرة فيما يفعل بعد ذلك

كان جان يرى جسم غريمه بشق النفس وهو ملقي تحت قدميه فى الظلام ولكنه لم ير حركة بحيث زعم انه مات

أشعل جان عوداً من الكبريت فرأى على نوره الشمعة ملقاة على الارض فاضاءها ثم وضعها فى الشمعدان الذي أحسن الدفاع عنه وبعد ذلك أطل من النافذة فرأى سلما مستنداً الى الحائط ولكنه لم يشاهد أحداً عند نهايته ولو انه كان يسمع أصواتا في المنزل

رأى جان ان هذه خير وسيلة للنجاة فاختطف قبعته ووضع حقيبته الجلدية الصغيرة على كتفه ثم هرع الى النافذة ولم يكد يصل اليها حتى أظهر الرجل الملقي على الارض دلائل الحياة فالتقط جان السكين وكان الدم لا يزال يقطر من أنفه عليها وعلى غريمه وعلى قاعدة النافذة الخشبية

وبينما كان يتسلق النافذة سمع دقاً على باب الغرفة ورأى المزلاج يتحرك فهبط الى الارض بواسطة السلم بسرعة عظيمة وأطلق ساقيه للريح وجري الى شاطىء البحر الى أن وقف فوق الرمال فتردد لحظة اذ رأى ان الناحية التي جاء منها أمس خالية من السكان الى مسافة أميال عديدة فى حين يوجد مصب نهر عظيم فى الجهة الاخرى علم أمس انه يحول بينه وبين البلدة المجاورة

سمع جان خلفه صيحة في المنزل ورأى شبحا فى نافذة الغرفة التى هجرها وعلى ذلك لابد أن يكون الرجال الاخرون قد دخلوا الغرفة عنوة وانهم سيقتفون أثره بعد قليل

ذكر جان الزورق فجأة فتنفس الصعداء وهرع الى الصخور فزلت قدمه وسقط على الارض وبذا ضاعت سكين صاحب الفندق من يده ولكنه قبض بيده الملطختين بالدماء على الصخور وقام ولم تمض بضع دقائق حتى فك الزورق ونزل فيه واندفع به الى البحر

مكث يجذف باقصى ما لديه من القوة بعيداً عن الشاطيء بضع دقائق ثم مال نحو المجاذيف وأخذ ينصت الى أصوات اللعن والسباب التي ترسل اليه من الشاطيء وسط الظلام

ابتهج جان اذ كان قد لاحظ من قبل انه لا يوجد زورق آخر في الجهة المجاورة وانه لا تمضي مدة وجيزة حتى يصل به الزورق الى البلدة المجاورة وكان يشعر الآن بابتهاج الى هذه المخاطرة لانها كانت بمثابة خروج من قيود تلك الحياة الجامدة التي قضاها في افرسفيلد وبداية حياة أخرى جديدة

استأنف جان مجهوده وشرع يجذف بطمأنينة متجهاً نحو الانوار القليلة التي كانت تنبعث من النقطة التي كان يرمي اليها فوصل بزورقه عند طلوع الفجر الى الشاطيء الرملي مقابل منازل البلدة ثم خرج من الزورق الي الشاطيء . وكان التيار شديداً ومضاداً له فاستغرق في الوصول الى المكان وقتاً أطول مما كان ينتظر . على انه كان يشعر بابتهاج وهو يجذف في الهواء الجميل تحت نجوم السماء اللامعة . وزاد اضطرابه في نشاطه

خطرت ببال جان اذ ذاك مشكلة أخرى وهي هل يذهب الى البوليس تواً أو يلزم السكوت . فقد وجد انه اذا ابلغ الحادثة وظهر أمام المحكمة اضطر الى افشاء سره واظهار اسمه الحقيقي على انه كان من جهة أخرى

يتوق الى القصاص من صاحب الفندق وعصابته

جلس جان على الشاطىء الرملي في ضوء النهار الضئيل وأخذ يقلب المسألة من جميع وجوهها الى أن استقر الرأي في النهاية على أن يمسك لسانه . ولم تكد ترسل الشمس أشعتها الاولى حتى عزم على القيام ومواصلة السير بعد أن خلع حذاءه وجوربه ودفع الزورق الى الماء ثانية فحمله التيار نحو مصب النهر

ذهب جان الى البلدة بعد أن أصلح ثيابه وغسل وجهه ثم قصد محطة السكة الحديد وركب القطار دون أن يلاحظ أحد عليه شيئاً فارتاحت نفسه لان غرضه الوحيد كان الابتعاد عن مكان الحادثة والمحافظة على سره ولم تمض نصف ساعة حتى سار القطار به عائداً الى بيزا ومنها الى فلورنس دون أن يخسر شيئاً في مخاطرته هذه غير عصاه ومنديله وجزءاً كبيراً من الدم وثقته بالفلاحين الايطاليين

وصل الى فلورنس فاستأجر غرفة باسم ايستون في فندق صغير هادىء حيث قرر المقام بضعة أيام ينسى فيها سخطه الشديد على صاحب الفندق . على انه دهش في صباح اليوم التالى اذ قرأ في احدى الصحف انهم يعتقدون انه قتل

أما الحادثة فقد عرفت اتفاقاً اذ اتفق ان قوة من رجال البوليس كانت سائرة على شاطىء البحر الرملى قبل الفجر بساعة فسمع رجالها صاحب الفندق يصيح من النافذة مخاطباً أصدقاءه قائلا « هل اجهزتم عليه ؟ » فكان عمله هذا سبباً في تفتيش المنزل وفحص غرفة النوم الملطخة بالدماء والعثور على عصا منقوش عليها اسم «ج. تدونج وست» ومنديل عليه الاحرف الثلاثة الاولى من اسمه وبطاقة بريد معنونة

باسم مسز تندرنج وست

قبض رجال البوليس اذ ذاك على صاحب الفندق ورجاله ثم شوهدت لطخ من الدم على ثياب صاحب الفندق . ثم قام رجال البوليس ببحث آخر فرأوا آثار الدم المؤدية الى الصخور التى حملت اليها الجثة بلامراء وعثروا على سكين ملطخة بالدماء ملقاة على الشاطيء واثاراً دلت على ان اللصوص اجهزوا على الرجل قبل القائه في البحر

وقد اعترف الرجال بانه كان لهم ضلع فى حادثة اعتداء ولكنهم اقسموا ان الرجل فر في الزورق وان رفيقهم الذى ارتكب هذا العمل هرب على أن هذه كانت اكذوبة ظاهرة لان الزورق وجد فيما بعد عند مصب النهر واذا كان قد استخدم كان الذى استخدمه هو رفيقهم الذى يقولون انه هرب . وقد بحث البوليس فى الاماكن المجاورة فلم يعثر على جثة .

قرأ جان هذه الاقوال فى احدى الصحف فشعر بشيء أشبه بدوار في رأسه ومكث هنيهة يحدق النظر أمامه وهو غارق في لجة عميقة من الافكار المتضاربة الى أن استقر رأيه علي فكرتين أساسيتين وهما أن يخطر زوجته بانه لا يزال على قيد الحياة وأن يحول دون الحكم على صاحب الفندق بأقصى عقوبة وهي الاعدام

نزل جان من الفندق قبل الغروب فذهب الى مكتب التلغراف ولكنه عدل عن فكرته هذه وسأل عن مركز البوليس . وبينما كان سائراً فى طريقه التقي بصبي يحمل احدى صحف المساء فابتاع نسخة منها لكى يطلع عن الانباء الاخيرة الخاصة بمقتله فرأى ان الحادثة

تطورت تطوراً عظيما فقد حفر البوليس في الغرف الارضية من الفندق فعثر على جثة رجل ايطالى اختفى منذ بضعة شهور . وقد اعترف الجانى بجريمته فيما يتعلق بالرجل الايطالى قائلا انه أهان سيدة يعرفها . أما الرجل الانكليزي فانه لم يقتله بل طعنه بالسكين طعنة غير قاتلة بعد أن ضربه هذا على رأسه بالشمعدان ثم فر من النافذة فصاح الرجل اذ ذاك من النافذة مناديا أصحابه لكي يجهزوا عليه ويلقوه في البحر ليكون طعمة للاسماك

ابتهج قلب جان عند ما قرأ هذا النبأ وأغرب في الضحك . ولا عجب فقد رأي ان ليس ثمة ما يحمله على انقاذ عنق هذا الوحش من الشنق باظهار حقيقة الامر وباخبار البوليس بانه حي يرزق لان ظهور جثة الايطالى واعتراف الرجل قد وضعا حداً للامر ويمكن الآن أن تتخذ العدالة مجراها

علي أثر استقراره على هذا الرأى خطرت بباله فكرة أخرى كانت تتعاوده منذ قرأ الانباء الاولى عن الجريمة فتمتم قائلا

ـ جيمس تندرنج وست صاحب مزرعة افرسفيلد «مات» ! ولكن جان ايستون الرحالة « حي » !

ضرب جان صدره بقبضة يده ثم سار فى الشارع على غير هدى بعيداً عن مكتب التلغراف ولم يلبث أن شعر فجأة بان كابوساً قد ارتفع عن صدره واعنى به ذاك الشبح المخيف التى تمثل له عن الحياة فى قرية افرسفيلد وانه اندك كما تندك الجبال . وكان هذا الشبح قد حملق في وجهه لآخر مرة ولكنه صرخ وسقط كومة واحدة تحت قدميه فتفني

قلب جان قائلا

ـ ان جان ايستون الرجل الطليق حي أما زوج دورا فقد غاص في قاع البحر

الفصل الثالث عشر

الحرية

ليس من السهل وصف الافكار العديدة التي ازدحمت في عقل جان في خلال الايام التالية في بضع كلمات وجيزة . ولا يستطيع الانسان أن يقول انه ذهب ضحية وجدانه لانه كان يعتقد من صميم قلبه انه يقوم باجل عمل لزوجته ولنفسه بكتمانه حقيقة حياته وعدم التعرض لنقض الانباء التي ذاعت عن وفاته ، ولو كان هناك ارتياب فيما يتعلق بامكان معرفته لكان الامر غير ذلك ولكن خبر وفاته قوبل بالتصديق ولا يحتمل أن يقوم البوليس بتحريات جديدة بعد أن اعترف صاحب الفندق بجريمته

رأى جان انه « مات » وانه لن يعود الي الحياة ثانية وبذا تستطيع « أرملته » أن تنفذ ما تشاء من التدابير التي عولت على القيام بها في المستقبل اذ لو فرض وعرفه أحد معارفه في المستقبل فان في وسعه أن يضلل كل من يقدم على البحث عنه باقامة البرهان على انه ليس الا جان ايستون .

على ان الخوف من افشاء سره وعمله بأنه يسلك طريقاً لا تتفق مع القوانين المرعية وغير ذلك من الاعتبارات الاخرى سلبته شيئاً من الطمأنينة . وكان واثقاً من أن دورا لا تحزن عليه وان الطريقة التى مات بها ستقع فى نفسها وقعاً شديداً وانه يوجد شخصان وهما مستر دارلنج والضحاك — سيشعران بفقده على انهما سينسيانه بعد قليل

ذكر جان زوجة الطبيب عند مسز سورب ما كاد يصطدم بدراجتها وكلماتها القاسية لا سيما قولها له (انك لا تشعر بالواجب عليك) .وكان الشعور بعدم التبعة وهو ما يشكو الناس منه يزداد قوة في نفسه ولكن اذا نظرنا الى المسألة من وجهة أخري ألا نراه يعمل لخير كل شخص له به علاقة توضع حد لزواجه التعس وترك تلك الثروة التي ورثها ؟

على أن الطمأنينة عادت الى قلبه تدريجياً . ولما عاد أخيراً الى روما ونزل بالفندق الصغير الواقع في حي تراستيفر أخذ يشعر بابتهاج عظيم بحريته التي استردها

كان جان يجهل انه فار هارب وان هذا ما يدعوه به جميع العقلاء ومع ذلك فان هذه الفكرة في نفسه لم تقلقه

أخذ اهتمام جان بخطته وسلوكه يقل مع مرور الايام ولم يلبث أن رأى أن أفكاره بدورا وبالحياة الجامدة في انكلترا لم تعد تضايقه بل كانت تخطر بباله نادراً وفي الواقع قال جان في نفسه مرة

ـ ان دورا ستكون بدوني أكثر سعادة . لانى اذا تركتها وهي تعلم انى على قيد الحياة آلمتها ألماً شديداً . أما الآن وهي تعتقدانى في عداد الاموات فانها ستكون أكثر سعادة لانها ستتخلص من زوج لا تريده وتتمتع بالسرور الذى تحتاج اليه وتعيش حرة في منزل كبير مع دخل عظيم يرفع مكانتها ومن جهة أخرى سأكفي نفسى مشقة عار لا مندوحة منه يتعلق بفشلى في الزواج . بموتي قبل أن اندفع في شرب المسكرات والانهماك في الرذائل

مرت هذه الذكرى في فكره في يوم من أيام الاحاد . واتفق في

يوم آخر ان كان جالساً تحت ظلال الاشجار في حدائق (بنكيان) يراقب الاسرات الفنية من أهل روما عند خروجها لاستنشاق الهواء فعادت به أفكاره مرة أخرى الى تلك الذكريات القديمة فقال في نفسه

ـ لما كنت الآن قد قدمت في اعتقاد دورا فانها ستمتع بعربتي والجوادين وستلعب دور الارملة الكبيرة في عربتها الكبري. وسيدخل هذا السرور الى قلبها أكثر من رؤية زوج رث الهيئة

ولم يكن جان يبدى أى اهتمام بميراثه أو تخطر بباله أية فكرة عن الكيفية التى ستنفق بها أمواله وقد كان لديه نحو الفى جنيه في المصرف وهو مبلغ كاف لسد حاجته العادية مدة ثلاثة أعوام أو أربعة ولم يحسد دورا على الضيعة . وفي الواقع كان يمقت افرسفيلد وكل شيء يتعلق بها بحيث كان يتمني لالد عدو له أن يذهب الى تلك القرية الممقوتة ويعيش هناك

جلس جان يحدق النظر من خلال الاشجار الى قبة كتدرائية القديس بطرس وقد ارتفعت عن المنازل والقصور المحيطة بها ثم تنفس الصعداء لانه وجد وسيلة للنجاة من القفص الذي كان مسجوناً فيه ثم قال فى نفسه

كنت أظن ان من الامور الغريبة أن تكون لي زوجة ، تكون ملجأ لي ومعبداً ولكني رأيت الان ان هذا ضرب من الاوهام والضعف ولعمرى خير للانسان أن يقف على رجليه وأن يجعل قلبه ملجأ لعزائه وما يراه من خلال نوافذه موضع لذته وتسليته

ومع ذلك كان جان يعلم ان قوله هذا لا يتناول المسألة كلها فقد مرت عليه أوقات بلا ريب كان يشكو فيهما مر الشكوي من الحرية

والانفراد

جاءت بعد ذلك محاكمة صاحب الفندق فاضطر جان الى الرجوع بالذكري الى الماضي ولو انه كان ينظر الى الامور كانه بمعزل عنها وكأنه لم تكن له أية صلة بجيمس تندرنج وست ولا علاقة له به الآن

قرأ جان في الصحف بدون اكتراث كيف ان زوجته عرفت عصاه ومنديله وبطاقة البريد التي أرسلت الى انكلترا لهذا الغرض فشعر بارتياح لانه علم ان تجارته باحجار الماس لم تظهر شيئاً من اثره وان حركاته في باريس ثم في جنوى وبيزا لم تكن ذات تأثير يذكر في الجريمة الاصلية . على انه غضب عند ما رأى ان الحكم الذي صدر على صاحب الفندق غير كاف

انتهت المحاكمة فكانت بداية تحرير جان التام . وفي الواقع طرد قصة زواجه من سجل حياته بابتسامة فاترة على ثغره وهزة من كتفه وحول كل اهتمامه الى وقته الحاضر فلم يعد يفكر بأنه صاحب تلك المزرعة الصغيرة التي تحيط بها الاسوار الصخرية والاشجار الخضراء بل قال انه جان الرحالة صاحب العالم كله

شاء ابتهاجه بتحريره أن يغادر روما . والرحالة الحقيقي لا يتنقل من مكان الى مكان بحثاً وراء ما يكسبه شيئاً من الخبرة أو المعرفة وانما يسير على غير هدى فليست له غاية أو قل ان غايته الطرق يسير فيها كيف يشاء . فاذا وجد ان اتجاهه نحو الشمال مثلا يؤلمه أو يعرض وجهه لهبوب الاتربة والرياح ، حول وجهه شطر الجنوب

وفي الواقع لما غادر جان مدينة روما سار على غير هدى . ولا عجب فانه لم تكن لديه روابط ولا واجبات ولا أعباء يهتم بأمرها بل أخذ

يتجول في ضيعته الجديدة (العالم) وحقيبته الجلدية الصغيرة على منكبه وبعض النقود ترن في جيبه وثلاث لغات على الاقل في لسانه وهو يشعر بأنه عاد الى حريته القديمة بعد أن قضى مدة في سجن مظلم أخذت تتلاشى ذكراه الآن بسرعة

كان من الصعب تبيان طريقه ومن الحيرة اقتفاء أثره. فكان يقضي الايام تارة في الفنادق الصغيرة التي لا تكلفه نفقاتها اكثر من بضع فرنكات وأخرى يسلك الطريق الحديدية أو الزراعية ، على ضفاف الانهر أو شواطيء البحيرات ، الى مناطق جديدة

سافر جان في فصل الصيف الى بحيرة « ماجورا » في الشمال حيث مكث عدة أيام جميلة في فندق صغير فوق منحدرات « مرجوزلو » يشرف على البحيرة وما وراءها من سهول لمباردى . وقد اشتغل جان في هذا الفندق بتنقيح أشعاره ونظم قصيدة جميلة عن الحرية . وكان يجلس في الليل تحت النجوم يتحدث مع صاحب الفندق وزوجته أو يضرب على قيثارته ويدخن سيجارته

ومن المناسب أن نذكر هنا حادثا جرى لجان اثناء احد أسفاره . فقد ركب القطار مرة في يوم شديد الحر فجلس منفرداً في المكان المعد للتدخين وكان هذا المكان يؤدي الى عربة أخري مجاورة لا يجوز التدخين فيها فخرج منها اثناء الطريق رجل ضخم الجسم تدل هيئته على انه انكليزي يحمل حقيبة وحزمة من الخرق فلما رأي جان قال باللغة الايطالية الركيكة انه جاء ليدخن غليونه فلما أجابه جان بلغة وطنه ابتهج الرجل وقال

ـ ان الناس هنا يدخنون في كل عربة على ما يظهر ولكني أردت

أن أراعي القواعد المتبعة فأتيت الى هذا المكان المعد للتدخين

لم يبد جان اهتماما بقول الرجل هذا ولكنه أراد أن يظهر بمظهر المجاملة فقال

ـ هو ما تقول

فاستطرد الرجل في حديثه قائلا

ـ ان هؤلاء الاجانب يعوزهم مراعاة حقوق الجوار

ثم توسع في هذا الموضوع وذكر أمثلة عديدة تأييداً لحجته وبينما كان يتحدث اذ وقف القطار في احدي المحطات وأعلن الكمساري ان القطار سيتخلف نحو عشر دقائق فنزل كثير من الركاب الى قهوة صغيرة ليتناولوا شيئا من المرطبات

وكان جان في حالة تراخي وخمول فلم ينزل من القطار ولكن رفيقه غادر مكانه والتحق بالاخرين

اخيراً دق الجرس المؤذن بالسفر وصفر الكمساري واذ ذاك لاحظ جان ان رفيقه لم يعد فأطل من النافذة ليرى ما أصابه ثم صفر القطار وشرع يتحرك واذ ذاك رأى جان رفيقه يناضل للدخول وعامل الباب يرفض السماح له بالركوب مخافة أن تزل قدمه فيسقط بين العجلات اثناء تحرك القطار

أشار جان لرفيقه فرد عليه هذا باشارة أخري تدل على الخيبة فخطر ببال جان في هذه اللحظة أن يسدي اليه معروفاً ويراعي حقوق الجوار فأخذ أمتعة الرجل والقاها من النافذة لكي لا يفقدها على الاقل ثم أشار الى الرجل لكي يلتقط أمتعته وعاد الى مقعده وضحك من نفسه لهذا الحادث

وبينما كانت الابتسامة لا تزال على ثغره اذ شاهد باب العربة قد فتح وظهر منه رفيقه الانكليزي وسمعه يخاطبه قائلا

ـ لم يكن الشراب مثلجا ولكنه أحسن من لا شيء لقد التقيت بامرأة حسناء في العربة المجاورة فحاولت مخاطبتها ولكن لم يستطع أحدنا فهم الآخر

قال جان وهو يلهث دهشة

ـ اذن لم تكن أنت الرجل الذي منعه عامل الباب من الدخول ؟

فسأله الرجل قائلا

ـ ما ذا تعني ؟ أين أمتعتي ؟

فاضطرب جان وقال

ـ القيتها من النافذة

فأحدق الرجل النظر اليه دهشة وقال

ـ ما ذا فعلت ؟

فقال جان متلعثما

ـ زعمت ان هذا ما يقضي به واجب الجوار . تري انني ...

ولكن لم يستطع التفوه ببقية الجملة وانحبس صوته عندما رأى الرجل واقفا أمامه وقد ثار غضبه

لم يتحمل جان في حياته اهانة كهذه ومع انه حاول في النهاية ذكر السبب الذى حمله على ارتكاب غلطته هذه فانه لم يستطع ان يقي نفسه من الشتائم التي كانت تنهال فوق رأسه كالنبال

اخيراً عيل صبره فوقف ولكم الرجل علي فكه لكمة ارتد بسببها الي الوراء واخذ يترنح في العربة . وكان القطار قد وقف بهم في المحطة

التالية وخرج الرجل وأخذ يصيح بخليط من اللغات الايطالية والفرنسوية والانكليزية .

رأى جان أن الركاب وموظفى المحطة أخذوا يلتفون حول الرجل فانسل من العربة من الجانب الاخر ولم تمض لحظة حتى كان قد اختفى وراء حظيرة وسار في طريقه قاصداً المكان الذي يريد السفر اليه وكان لا يزال على مسافة نحو عشرة أميال

اشعل جان سيجارة ثم تمتم قائلا

ـ كفى ما أصابنى اليوم من جراء مراعاة واجبات الجوار

قضى جان شطراً كبيراً من شهر اغسطس وسط الغابات فى جبل أدللو بوادي سامو نيكا ولكنه شعر فجأة بملل وسآمة في النفس فركب القطار وقطع مسافة طويلة الى مدينة البندقية ثم اجتاز الماء الى ليدو حيث ابتاع ثوباً للاستحمام وأخذ يذهب كل يوم الى البحر مع جمهور كبير من أهل البندقية

على أنه لم يطل مقامه فيها طويلا فركب البحر الى تريستا حيث نزل فى فندق صغير فوق سفح التل ولم يقض مدة طويلة بها حتى تعرف بأحد ضباط السفن فابلغه هذا الضابط ان باخرته ستبحر غداً الى جزيرة قبرص فاستقر رأي جان فى الحال على أن يركب هذه الباخرة الى تلك الجزيرة خصوصاً لانه كان الآن فى شهر سبتمبر والجو أخذ في البرودة

وكانت لديه فكرة ضعيفة للذهاب الى الشرق فلما عرض عليه هذا الاقتراح استقر رأيه على تنفيذه في الحال بصورة غريبة . وفي الواقع صاح قائلا

ـ قبرص . بلا مراء . انه المكان بعينه الذي طالما تاقت نفسي الى

زيارته . لقد نسيت كل شيء عنه

وكان جان قد قرأ كتباً وقصصا عن هذه الجزيرة الجميلة التي ارتفعت من بين مياه البحر المتوسطة الزرقاء مثل جزيرة مسحورة . فهناك يرى الزائر بقايا الهيا كل التي شيدها اليونانيون لعبادة آلهتهم والأنهار المنحدرة من الجبال . وعند الغروب يرى عند شاطيء البحر «افروديت» وقد ارتفعت من بين الأمواج تحفها المهابة والجلال وقد حاول الصليبيون أن ينشئوا فيها مملكة على مبادىء الفرنج وهي الآن ملأى بالأطلال والخرائب التي تدل على ما بذلوه من المجهودات

ثم جاء المسلمون بعد ذلك ولا يزال صوت المؤذن فيها يدعو الناس فيها الى الصلاة لله ، وأجراس الكنائس تدعو المصلين فى حين أن الفلاحين لا يكترثون في نفوسهم بكلا الندائين ولا يزالون يقدمون قرابينهم الصغيرة في الاماكن المقدسة العتيقة لآلهة اولمبوس

ان قبرص بلاد تنسى فيها حركة الزمن وهي جزء من البقية الحية للعصور الغابرة ولهذا السبب كانت تجذب افكار جان وتصوراته منذ زمن بعيد

لم يكد يستقر رأى جان على السفر حتى كتب خطابا الى المصرف الذي أودع فيه أمواله طلب اليه فيه أن يرسل مبلغا باسمه الى مكتب البريد فى نيقوسيا عاصمة قبرص . واذا لم تمض عشرون ساعة أخري حتى كان جان على ظهر الباخرة يراقب اطراف التلال وهى تختفى وراء الافق

في صباح اليوم السادس القت الباخرة مرساها مقابل ميناء لارنكا اكبر موانيء قبرص فتناول جان فطوره ثم ركب زورقا يديره يوناني

وزنجبي فسار به نحو المدينة الصغيرة التي كانت تبدو للرائي بيضاء في أشعة الشمس المشرقة على مآذنها ومنازلها وأشجار النخيل فيها

وكان جان يعرف قليلا من اليونانية وكثيراً من العربية فاستطاع بمساعدة رفيقه ضابط الباخرة أن يستأجر عربة ليجتاز بها الثلاثين ميلا التي كانت تفصله عن مدينة نيقوسيا عاصمة الجزيرة

وكان الطريق يجتاز أرضاً مرتفعة قاحلة تسلط الشمس عليها أشعتها فكان يلتقي أبناء الطريق أحياناً بعربة يجرها ثوران من الثيران الضخمة يقودها فلاح يلبس طربوشاً احمر وأخرى براع يرعى غنمه

وكان وهج الطريق حاداً ولكن لم يشعر جان بحرارة الشمس وهو مختبيء داخل العربة في حين كان الهواء يهب بارداً من ناحية البحر

مضى الوقت بسرعة ولم تمض مدة وجيزة حتي وصلت به العربة الى بلدة دالي . وكانت المرحلة الثانيـة من الرحلة اكثر مشقة بسبب وعورة الطريق التي سببت ترنح العربة . وعلى ذلك شعر جان بارتياح عند ما وقع نظره فجأة على مدينة نيقوسـيا وسارت به العربة في نحو الساعة الخامسة بعد الظهر فى شوارع المدينـة الضيقة المزدحمة بالسكان

رأى جان الاسواق والميادين غاصة باليونانيين والارمن والعرب والترك . بحيث كان السائق يضطر أثناء طريقه الى الفندق اليوناني الذي أرشد بعضهم جان الى النزول به ـ الى ايقاف الجياد التي كان قد انهكها التعب . وفي الواقع كان الطريق يزدحم بعربة يجرها ثوران وأخرى بالفلاحين الذين يركبون البغال والحمير والبنات اليونانيات اللائى يحملن الجرات على رؤوسهن

اخيراً وقفت السيارة أمام الباب الخارجي للفندق ولم يلبث أن وجد جان نفسه في فناء ساكن حيث كانت المياه ترتفع من فوارة تحت أشجار البرتقال . وكان البناء قائماً حول هذا الفناء المنعزل تطل عليه شرفة واسعة قائمة فوق أعمدة صخرية

دخل جان الفندق فرافقه صاحبه الى احدى الغرف المطلة على هذه الشرفة بحيث كان في وسعه أن يرى الفوارة وما يحيط بها من أشجار البرتقال وكانت جدران الغرفة مدهونة بالجير الابيض ، خالية من الصور ولكنها جميلة تشبه غرف القصور العتيقة . وفي الواقع لم يكد يجلس جان على المقعد الخشبي حتى شعر بانه انتقل من القرن العشرين الى عهد من الازمنة العتيقة

مكث جان فترة من الزمن يشعر بشيء من الامتعاض لا يدرى سببه وكان يحس كان حياته ناقصة وخيل اليه أنه يبحث عن شيء لا يدري ما هو .وكان فيما مضى يعتقد أن هذا راجع الى حاجته الى التمتع بالطبيعة أو الى حاجته الى الشطر الآخر من الجنس البشري ولكن كفى ما لقيه من النساء

على انه لم يلبث أن شعر وهو في غرفته الجديدة بارتياح ولما سمع عند الغروب المؤذن وهو يدعو الناس الى الصلاة أحس بطمأنينة وارتياح واستسلم لاحكام القدر

وبينا كان جان لا يزال غارقا في افكاره هذه اذ سمع جرس العشاء يدق فنزل الى فناء الفندق حيث كان البرتقال الناضج يتدلى من الاشجار ومياه الفوارة تتساقط في الحوض

خرج جان بعد انتهاء الطعام من الفندق عاري الرأس وكان الليل

دافئاً والقمر بدراً فسار في السوق فوجده خالياً سا كنا كأنه يخفى سراً من الأسرار . وخيل اليه ان النوافذ المحمية بالقضبان وأبواب المنازل تخفى وراءها أشياء مجهولة وان الافراد القلائل الذين التقى بهم يتحركون كالاشباح وانهم سائرون لقضاء مهمة سرية

وكانت هنا وهنالك حدائق صغيرة بين المنازل تحجبها أسوار بيضاء عالية تطل من فوقها أطراف الأشجار وكان باب احدى هـذه المنازل مفتوحاً فوقف جان في وسط الطريق الخالى وأطال النظر الى الباب والظل الممتد وراءه

رأى جان وهو واقف على هذه الحال شبح امرأة تطل من الباب الى الشارع . واتفق أن سقط نور القمر عليهـا فأضاء وجهها ويدها البيضاء وهى تمسك الباب كأنها تهم باغلاقه واذ ذاك شعر جان فجأة بقلبه يدق بسرعة . ولا عجب فقد عرفها اذ هرع اليها وصاح قائلا

مونيه !

رفعت السيدة يدها الى جبينها ثم ارتدت الى الخلف في ظل القمر وتبعها وهي تلهث دهشة . ولم تمض لحظة حتى كان قد أمسك يدها ووقعت عيناها الزائغتان على عينيه

الفصل الرابع عشر

جزيرة النسيان

عاد جان فقال

ـ مونميه ! ألا تعرفين من أنا ؟ أنا جان ... انا جان ايستون

مكثت لحظة أخرى لا تستطيع الكلام . وكان جان يشعر بيدها وهى تضطرب قليلا في يده ولاحظ من حركات صدرها سرعة تنفسها

مالت مونميه الى الخلف وأسندت ظهرها الى الباب وحولت عينيها الى الحديقة الصغيرة التى كانت خلفها كأنها كانت تريد الفرار اليها

أخيراً استطاعت الكلام فقالت بسرعة وبنغمة ذكرته الايام القليلة التى قضاها معها فى الاسكندرية

ـ لماذا أتيت الى قبرص . لم يكن في وسعك أن تعرف أين أنا ولا أحد يعرفنى هنا . هل عرفت انى أقطن في هذا المنزل ؟

وكانت تحرك رأسها من ناحية الى أخرى وهي تعانى ألما شديداً لا يعرف ما هو

عادت مونميه الى الكلام فقالت

ـ لا أعرف ان هناك حاجة تدعو الى وجودك في منزل النسيان

فسألها جان قائلا

ـ نسيان . هل هذا اسم منزلك هذا ؟

فهزت رأسها سلباً فقال جان

ـ لماذا أطلقت عليه هذا الاسم اذن ؟

ترددت مونميه قليلا ثم قالت

ـ لان هناك أموراً عديدة يجب نسيانها . ان جزيرة قبرص تدعي «جزيرة النسيان» من الغريب أن تتحول ذكريات الانسان الى ذكريات سيئة .

ثم ضحكت بانفعال ووضعت يدها على جبينها ثانية وأسندت جسمها بيدها الاخرى وعادت فقالت

ـ لماذا أتيت ؟

ـ لم آت لاى سبب . انى جئت لزيارة قبرص فقط ولم تكن لدى أى فكرة بأنك هنا لقد وصلت فقط وكنت خرجت الآن للتمشى بعد العشاء ...

فتمتمت مونميه قائلة

ـ لقد مضى على مقابلتنا الاخيرة أكثر من أربعة أعوام الآن . ن أربعة أعوام مدة طويلة . ان الناس لا يذكرون مدة طويلة كهذه أليس كذلك ؟

ثم سحبت يدها منه ووقفت تنظر اليه وعلى فمها شبه ابتسامة محيرة شعر جان بانقباض اذ علم انها لا تريد أن تجدد ذكرى ذلك الحلم الماضي الذى قام الآن في قلبه فجأة

قال جان بصوت خافت

ـ لم أنس مطلقاً . وقد علمت انك أنت قبل ان تقع عيناى على وجهك

ثم تردد قليلا وسألها قائلا

ـ هل تسمحين لى بالدخول الى حديقتك ؟

سمحت له بالدخول وأغلقت الباب وراءه ثم سار الاثنان معاً بسكون الى مقعد صخرى قائم فى ضوء القمر تحت شجرة فجلسا عليه جنباً الى جنب .

هكذا يتحدثان هنيهة ولكن كان حديثهما تخبطاً . ولم يدر جان ماذا قال لان شعوره كله كان موجهاً نحوها لا بواسطة الكلام بل بالقلب أخيراً تحولت نحوه ثم ضحكت وقالت

ـ تقول انك لم تنس . ولكنك عند ما تقول ذلك تخدع نفسك أو تحاول أن تخدعني . لا أريد أن تبدى ملاحظات تقليدية يا جان . لقد عرفتك دائماً صريحاً الى حد الخشونة فكن صريحاً معى الآن واعترف بانك تعتبر الفترة الوجيزة التي قضيناها معاً ليست الا شيئاً تافهاً فى حياتك التي تقضيها في التجول والانتقال وانك سافرت دون أن تفكر في

فقاطعها جان قائلا

ـ هل هذا شعورك نحوي ؟ لقد نسيتني أنت أيضاً . أليس كذلك

فاجابته قائلة

ـ ان الامر يختلف فيما يتعلق بالمرأة ولا يستطيع الانسان دائماً أن ينسى في مدة وجيزة

فسألها قائلا

ـ ولكن لماذا لم تخبريني عن اسمك أو تعطيني عنوانك ؟ لقد كتبت اليك خطاباً وأنا على ظهر السفينة وأرسلته من مارسيليا ألم يصلك ؟

فأجابته قائلة

ـ كلا . لقد مكثت فى الفندق بالاسكندرية نحو أسبوع ولكن لم

يصلني شيء . وقد تركت عنوانى عند ما غادرت الفندق . انني واثقة من ذلك

فضحك جان وقال

ـ أظن انك نسيت

فأظهرت ما يدل على الامتعاض وقالت بعد أن حولت وجهها عنه

ـ شعرت فى البداية بحاجة قاسية الى ايجادك وقد بحثت عنك ولكن لم أجد أحداً عرف عنك شيئاً . واذكر انك أخبرتنى انك ورثت شيئاً من الاملاك فكلفت أحد أصدقائى في انكلترا أن ينظر فى الوصايا الأخيرة عن اسم ايستون ولكن لم يعثر على شىء وبعد ذلك لم اكترث بالامر لسبب ما فأخبرته أن يكف البحث عنك

فقال جان

ـ اذن اهتممت ...؟

فابتسمت وقالت

ـ من يدري ؟

حار عند سماع قولها هذا كما حار من الصورة التى انطبعت على وجهها في ضوء القمر ثم سألها قائلا

ـ لماذا لم تخبريني عن اسمك ؟ لا أدرى الى الآن عنه شيئاً

فنظرت اليه دهشة ثم ضحكت وقالت

ـ لا يزال اسمي الى الآن « سمث » .

فقال جان

ـ لا أصدقك

فهزت كتفيها وقالت

ـ انهم يعرفوننى هنا بهذا الاسم — باسم « مسز سميث »
فقال جان
ـ لقد كان اسمك فيما مضى « مس سميث »
ـ ان المرأة المتزوجة لا تلوكها الالسن . ويظن معظم أصدقائى انى أرملة وانى لاشتغالى بالتصوير جئت الى هنا حيث المناظر الطبيعية جميلة والمعيشة رخيصة .
فاحدق جان اليها النظر وقال
ـ وما هو السبب الحقيقي ؟
فقامت فجأة من المقعد الصخري ووقفت أمامه وقد ولت ظهرها نحو القمر ووضعت يدها على صدرها والاخرى في خصرها ثم قالت
ـ جان . أتوسل اليك . ان هذه جزيرة النسيان وقد جئت الى هنا فأتيت « بالذكرى » معك . لا حاجة اليك هنا فاتوسل اليك أن تذهب اكراماً لى واكراماً لك ان هنا شيئاً لنا فيه شركة ومع ذلك يفصل بينى وبينك بشيء هو جنتى ولكنه قد يكون لك كسلاسل الجحيم فاتوسل اليك أن تذهب . أتوسل اليك أن تعود الى الحياة في البادية . الى السهول والوديان وأن تدعنى هنا فى جزيرة النسيان
لزمت مونعيه الصمت قليلا ثم استطردت فى حديثها قائلة
ـ لا أريد أن تعرف أكثر من ذلك . اقسم لك انه ليس ثمة ما يدعو الى مقامك هنا وان لديك حياة التجول والانتقال وأمامك تلال العالم ووديانه ومدنه فلا تمكث هنا ولا تحاول النظر الى « النسيان »
تهدج صوتها وبدت على وجهها علامات التوسل ومع ذلك تجلت عليها علامات المهابة والجلال التى يذكرها جيداً

لم يدرك جان معنى كلماتها ولا سبب شدتها . وكان فكره مضطرباً وموقفهما هذا يشبه الاحلام وفي الواقع كانت الاشجار القائمة حولهما مثل حراس وجدران المنزل البيضاء . ورائحة الازهار العطرية ونور القمر وخرير المياه في حوض الفوارة المصنوع من الرخام — كل هذه كانت تبدو في عينيه غريبة غير حقيقية

قام جان ثم وقف أمامها وقال

ـ لا ادرك شيئاً . ما هذا السر الذي يحيط بك ؟ انك لغز معمى : انك دائماً محاطة بالالغاز والاسرار

فأجابته قائلة

ـ كلا . لم يكن هناك لغز منذ أربعة أعوام غير لغز أحلامنا . وكان سري في ذاك الوقت أمراً صغيراً فقد كنت شاردة تركت زوجي لانني أردت حريتي وغيرت اسمي مخافة أن أعود ثانية أما الآن فقد مات ولم يعد هناك ما أخشاه من هذه الوجهة ... كلا . لم يكن هناك سر في ذاك الوقت

ـ والان ؟ أتوسل اليك أن تخبريني يا مونميه . يجب أن أعرف

واجهته مرة أخرى وأخذت تحاججه دون فائدة الى ان ادت الاسئلة التي القاها عليها الى أزمة شديدة فاخذت مونميه تلوي أصابع يديها وتفردها ثم توسلت اليه في النهاية قائلة

ـ اتوسل اليك أن تذهب الان . انسانى انسانى وعد الى حريتك واعلم انك لو بقيت هنا وقعت في الشرك . الا تفهم ؟ الا ترى انني لا استطيع القول هل جاء بك القدر الى هنا لسعادتك أو لسعادتي أو لشقائنا معاً ؟ لا أدرى . لا أدري . اننا غرباء تقريباً

فامسكها من ذراعيها بكلتا يديه فلم تجفل منه أو تميل نحوه .وكان جان يشعر في هذه اللحظة بانه نسي كل شيء في العالم وانه وجد باب حريته المفقودة

صاح جان قائلا

يجب أن تتكلمي . يجب أن أعرف ما يجب معرفته عنك وأن تفسري معنى قولك هذا

ابتعدت عنه قليلا . والظاهر انها عولت على أن تطلعه على دفائن سرها فقالت

ـ حسن . تعال معي داخل المنزل

سارت مونغيه أمامه بسكون فاجتازت دهليزاً مظلماً يؤدي الى رحبة مربعة مضاءة بشمعة تؤدي الى مدخل سلم

صعد الاثنان هذا السلم فوجد جان أمامه بابين فتحت أحدهما ثم دخلت تحمل شمعة يتبعها جان

ذهبت مونغيه الى دولابها ثم فتحته وأخرجت منه رزمة من الاوراق ناولتها اياه بسكون ثم وضعت الشمعة على منضدة وجلست على متكأ في حين جلس جان بجانب الشمعة على مقعد آخر . وأخذ يفض غلاف هذه الاوراق بيد مضطربة

قرأ جان الاوراق التي ناولته اياها ورقة ورقة ولم يكد يأتي على آخر سطر منها حتى خيل انه صعد الى السماء أو ذهب الى عالم آخر . ولا عجب فقد قرأ جان مستندات كتبتها مونغيه بعد سفره عن حبها له وشغفها به . دونت مقطعها وهي على فراش مرضها

مال جان الى الوراء في مقعده وذكر الليالي والايام القصيرة التي

قضاها معها فى الاسكندرية خصوصاً ذاك اليوم الذى أفاق فيه من اغمائه ووجدها مائلة فوقه ويدها على جبينه . ثم لم يلبث أن شعر بعاصفة ساحقة قوية قد هزت صرح حياته حتى زعزعت أساسه . وكاد يجثو على ركبتيه ويقبل هدب ثوبها . ولم تكن له بنفسه ثقة على التكلم فقام وأمسك يدها ثم رفعها الى شفتيه

سارت مونيه بعد ذلك أمامه وتقدمته الى الحديقة ثانية وجلسا مرة أخرى على المقعد الصخرى في ضوء القمر . وقد أجابته على أسئلته العديدة فأبلغته كيف اتقدت في قلبها جذوة حبه بعد سفره من الاسكندرية فجأة وكيف هامت على وجهها الى الاستانة حيث مرضت وكيف انها رافقت زوجة أحد الجنود الى قبرص واستأجرت هذا المنزل

والظاهر انها ارادت العودة الى خطتها القديمة واتباع الحيطة والحذر مخافة أن يصيبها فى هذه ما أصابها في المرة السابقة فقالت

أريد أن تفهم ياجان انك لست مرتبطا بأية رابطة معها كانت فان هنا في نيقوسيا بعض الانكليز وقد استقبلونى دون سؤال ولست وحيدة . انى أبعث بالصور التى أصورها من وقت الى آخر انفق من ثمنها على نفسى ولا تظن ان هناك واجباً يناديك أو قيداً يربطك ...

فقاطعها جان قائلا

ـ انك لا تفهمين . ان هذا أغرب حادث فى حياتى فاريد أن تسمحى لى بالبقاء فى الفندق وأن آتي لزيارتك كل يوم . هل تسمحين لي بالقدوم غداً ؟

خطرت بباله اذ ذاك فكرة جمد لها دمه في عروقه فقال لو كان يعرف عنوانها أو لو عرفت هي عنوانه لما وقعت حادثة زواجه المروعة

ولتزوج مونميه وكان له منها ولد يرث ضيعة آل تندريج وست في افرسفيلد ولكنه الان مقيد بسلال الزوجية وقد ضاعت املاكه التي دفعها ثمنا لحريته

صاح جان قائلا

ـ اواه يا مونميه ! كيف تصفحين عني ؟ أواه لماذا لم أرسل اليك تلغرافاً بعد سفري من مصر ؟ لماذا لم نحافظ على صلتنا ؟

أخذ جان يذهب ويجيء في الحديقة يتخلل شعره الاسود بأصابعه ويجذبه بعنف نحو جبينه وكانت عيناه متقدتين ووجهه مكفهراً في ضوء القمر

قالت مونميه

ـ انها غلطتي كما هي غلطتك . كان حبنا كغرام البدو فتركناه يفلت من يدنا . لقد رأي كل منا احلامه وفي الصباح ذهب كلانا في وجهته واخيراً لما وجدت انى في حاجة اليك رأيت ان قد سبق السيف العذل

فقال جان

ولكن يجب ان نعوض الان مافقدناه . يجب ان لا يفقد احدنا الآخر بعد الان . انى احبك يامونميه واعتقد اني احببتك منذ وقعت عيناي على وجهك

فتبسمت تلك الابتسامة الحكيمة التي تشبه ابتسامات الالهة وقالت .

كان ذلك منذ اربعة اعوام . وكانت احلامنا قصيره .

ثم قامت في الحال واخبرته ان يذهب قائلة ان الفندق يغلق ابوابه مبكراً

قام جان فرافقته مونميه الى الباب وهناك حياها بشغف ثم سار في الشارع العتيق الخالى وهو لايدرى مايحيط به الي ان دخل الفندق ثم صعد الى غرفته دون ان يشعر بشيء من اعماله

خيل الى جان ان بركان حياته كله قد ثار وان عواطفه قامت في وجه مايقضي به العقل والروية . ولا عجب فقد عثر ثانيه على المرأة التي احبها ثم كاد ينساها ؛ المرأة التي كان يجدر به ان يتزوج بها ، المرأة التى كاد يجن عقله الان وجداً بها

أخذ جان المرة بعد الاخرى يكرر في نفسه ماجرى فكانت الكلمات تدوي كالعاصفة في خبايا افكاره ولكنه لم يلبث أن شعر بثورة جديدة اخرى بددت اوهامه واحلامه

قال جان في نفسه انه اذا تزوج مونميه وضع نفسه تحت طائلة القانون واذا ابلغها انه متزوج فقد يفقدها الي الابد

واذا ابقى حقيقة شخصيته سراً وعرض نفسه لخطر اكتشاف سره فان الحقيقة الواقعة لاتزال باقيه وهي انه الغي وطنه ومستقبله وانه لايجد مايقوم بأوده بعد فراغ مالديه من المال

ادرك جان لاول مرة منذورت تلك الممتلكات قيمة ارثه الذي تركه وما في اسمه الذى نبذه من الفضائل ومع ذلك اذا حافظ على سره فكيف يستطيع ان يعيش اكذوبة في نظر مونميه ؟

أنحى جان باللوم على نفسه لاعماله السابقة ولعن دورا على العقبة

المكؤد التي اقامتها في طريقه

لم يجدن جان مخرجا من هذه الورطة وقد مكث طول ليله يفكر حاملا رأسه بيده واصابعه تتخلل شعره

الفصل الخامس عشر

المرأة الحاكمة

كانت الايام التي تلت هذا المشهد ملأى بالفوضى الفكرية فيما يتعلق بجان . وفي الواقع كانت حركاته كلها سريعة وقوة افكاره تسير بسرعة هائلة غير عادية وخيل اليه ان قلاع سفينة حياته ملأتها قلاع القدر فأخذت تدفعها فوق بحر متلاطم الامواج .

ولا عجب فانه متي تحكم الحب بالقلب وتملك الهوي الحواس لايعرف الفكر معني للراحة ولا النفس معنى للقنوع . والمحب لايستطيع ان يصدق انه محبوب ومع ذلك تتوقف سعادته على تأكده من هذه الحقيقة وهكذا يخلق المحب من وساوسه هذه شبحاً يخيفه دائما ويضع قيوداً قاسية حول الجسم والروح والنفس

والمحب الصادق يتعرف بالنار والجحيم اكثر من تعرفه بالهناء والجنة ويبلغ الشعور الحساس منه مبلغاً شديداً بحيث ان كل لحظة لايتمتع فيها باعجاب من يهواه تكون لحظة مملوءة بالشكوك والمخاوف

قال جان في نفسه انها لاتهتم به مثل اهتمامه بها ، تبدى شيئا من التجني والسامة ، انها تفكر بشيء آخر . انها لاتظهر ماينم على ماتكنه في قلبها — هذا مايقوله الشقي في قلبه ويمثل هذه الافكار يلقى نفسه بين مخالب الف جن وشيطان

اظهرت مونغيه نحو جان تحفظا مقروناً بفتور وسكون . والظاهر انها كانت من الوجهة العقلية فوق قمة الجبل وهو في الوادى تحتها .

ولما زارها في منزلها أبقته منتظراً قبل ان تخرج لمقابلته وهذه عادة النساء وهي غريزة فيهن فيسرن في طرقهن الخاصة ويخترن الوقت الملائم لهن فلا يدرى الرجل شيئاً من أسرارهن . وفى الواقع لا يسمحن للرجل بالدخول الى مستودع اسرارهن فلا يدرى ما كان يشغلهن قبل أن يتكرمن بالنزول الى مقابلته .

وكان جان مثل كثير من الرجال بسيط الطباع فلم يكتم حبه بل بالعكس كان غرامه يتجلى في كل جزء من اجزاء وجهه ويبدو هواه فى كل حركة من حركاته .

لم يخف جان شيئاً من أسراره اللهم الا سر زواجه وقد كتم هذا السر عنها في قلبه مخافة أن يفقدها واضطر الى ركوب متن الكذب في هذا الامر الى درجة جلبت الشقاء والالم الى قلبه فقد أفهمها ان الاملاك التى ورثها لم تكن ذات قيمة وان المال الذي يمتلكه الان هو الباقي من قيمتها .

ود جان أن ينسى السنين التى قضاها فى افرسفيلد وأن يعيش فقط فيما هو فيه . وكانت مونميه تعرفه باسم جان ايستون وقد ساعده فى خداعه هذا انها كانت تجهل كل شيء من أمرة تندونج وست أو قرية افرسفيلد . ومع ذلك كان جان يرى في نفسه ان زواجه بدورا واخفاء اسمه الذى ساعده على الهرب والفرار هما السد الذى يحول بينه وبين مونميه .

كانت خطة مونميه نحوه فى الايام الاولى سبباً فى حزنه الشديد وتألمه . فكان يلاحظ على وجهها ما يدعو الى الدهشة المقرونة بالقلق وكانت تقول له

ـ ان الناس يجعلوني مضغة في الافواه اذا أكثرت من زيارتي يا جان ولست الآن مستقلة عن العالم كما كنت بل هناك اعتبارات أخرى يجب أن أراعيها

ثم اتفق مرة أن كانا يسيران معاً في الحديقة فسألها عن سبب جفوها منه فنظرت اليه بقسوة وقالت

ـ أوّاه . ألا تدرى أن عودتك الي حياتى بهذه الحالة من الصعب احتماله ؟ لا أريد أن تشعر بواجب عليك من نحوي . في وسعى أن أعول نفسى تماما بدون مساعدتك . لقد أثرت في قلبي زوبعة قديمة كانت قد استكنت وهدأت . ان فى نفسى جانباً ينفر من تدخلك في حياتى ثانياً لانك لست الا رجلا رحالة تحب التنقل والاسفار تستطيع بسهولة أن تختفى مرة أخرى دون أن تحيينى تحية الوداع . وهناك جانب آخر في نفسى يجد فى جوارك راحة ويرى فيك ذخائر ليست فيك

لقد كنت أعتمد على نفسى حتى الآن فلما أتيت أخذت عيونى تترنح يمنة ويسرة . فتارة أراني مخطئة وأنه يجب أن نتزوج في بلاد لا يعرفنا فيها أحد ؛ وأخرى أذكر أنك لم تعرض على الزواج وأنك والحالة هذه تدرك مثلى أنك لا تصلح لان تكون بعلا . وأخيراً أرى أن ليس من العدل أن تتحمل معي تبعة أعمالى

فقال جان

ـ اننا في الامر سواء

فقالت وعلى فمها شبه ابتسامة :

ـ كلا . ان في وسع أقل امرأة أن تتدبر في الامر وتقوم ما تراه

بنفسها

ان كل شيء في يد المرأة فاذا زعمت غير ذلك أهنت بنات جنسي ،
ان المرأة والرجل قطعتان في يد « الطبيعة » تلعب بهما ولكن لما كانت « الطبيعة » امرأة فقد اختارت من جنسها آلة لتنفيذ غرضها

جلست مونميه على المقعد الحجري في الحديقة ثم ربعت يديها على صدرها وأخذت تحدق النظر الى المنظر الطبيعي الجميل الممتد أمامها . وكانت وهي على هذه الحال كابنة « جانحور » وقد جلست تستمد الوحي والارشاد في حيرتها وورطتها

جلس جان الى جانبها ثم مضت لحظة ساد السكون فيها بينهما وخيل الى جان أن فكره مزدحم بكلمات مقيدة وأفكار محبوسة لا يستطيع الاعراب عنها . ولا عجب فان اشارة مونميه الى زواجها كانت كسهم قتال اخترق فؤاده . وكان يتمنى أن يتخذها زوجة له قبل كل شيء آخر في الحياة ومع ذلك كان لا يستطيع ذلك

نعم تمنى من صميم قلبه ان يمتلكها وأن يكون صاحب الحق في حمايتها وأن يقف كل شيء لديه على خدمتها ومع ذلك كان مقيداً مشدود الوثاق لا يستطيع أن يقدم على مثل هذا الاقتراح

شعر جان بخجل وضيق وألم مبرح فوثب فجأة ودار بجسمه وأخذ يرفس أغصان الشجرة المدلاة على الارض ثم أقسم يميناً مغلظة فدهشت مونميه وسألته قائلة

ـ ماذا أصابك ؟ هل لدغك شيء

فضحك ضحكة تنم على الجنون ثم صاح قائلا

ـ نعم ان جسمي كله لدغ . لقد غرزت جميع أنواع الحيات والثعابين

انيابها في كل جزء من جسمي . أظن أنى سأصاب بالجنون والخبل

أخذ جان يروح ويغدو ويقطع شعره الي أن ذهبت عنه هذه النوبة فجلس الى جانبها وأمسك كلتا يديها ثم أخذ يقبل أناملها قائلا

ـ انى فى أتون من النار يا مونميه . ان قلبي يستعر بنار الجحيم ولعمرى لا ألبث أن أسقط تحت قدميك جثة هامدة فأذهب ضحية أشواقي اليك يا مونميه وستوارينى التراب بعد ذلك ولكني أقول لك أنك سترين بركانا ينفجر فوق قبري وترتفع السنة النيران من عظامى . لا أظن يا مونميه أن الموت لا يستطيع أن يخمد جذوتى وطيبي بل سيثور بركان حبي ويرسل لهيبه ودخانه وحممه وتهتز الارض من انفعالاتى . سأعود اليك يامونميه مع الزلازل والامواج والامطار وسأنسف العالم كله قبل أن أذهب الي الجحيم .. هذا ما أشعر به . هذا ما أصابني منك

ثم ضمها بين ذراعيه فلم تستطع مقاومته ثم أخذ يعطرها بكلمات حبه وغرامه ويبث لها هواه وكانت الشمس ترسل أشعتها الذهبية في الصباح الى أسطح المنازل المجاورة وأطراف الاشجار

همست مونميه قائلة

ـ جان . بالله لا تفعل . يجب أن نكون عقلاء . يجب أن نفكر بالمستقبل اعطنى فرصة لافكر

صاح جان قائلا

ـ انى في حاجة اليك . انى أريدك . انى أحتمل الموت ولا أطيق بعادك . انك لى . انك زوجتى في عيني الله . أريد أن أتزوج بك ...

نطق جان بالكلمة — فاه جان بالمستحيل وكادت دقات قلبه تقف من شدة ما يعانيه من الآلام المبرحة

أخيراً أرخي جان ذراعيه عنها ثم وقف كل منهما في وجه الآخر وقـد لزم كلاهما الصمت والسكوت في حين كانت الطيور تغرد فوقهما ابتهاجاً برؤية الشمس

تعالى صوت ضميره فى داخله قائلا

ـ أيها الوغد ، أيها الوغد ، أيها الوغد ! أيها اللص السافل

فلبى قلبه النداء منحلا ذلك العذر القوى قائلا

ـ أحبها ! أحبها ! أحبها !

أخيراً قالت مونغيه

يجب أن تعطيني مهلة لأفكر . اذهب الان يا جان . يجب أن تنام ويجب أن أهتم بأعمالى

تجنبت مونغيه مقابلته فى اليومين التاليين ولكنه وجـد نفسه فى اليوم الثالث في غرفة استقبالهـا وهي غرفة جميلة طلقة الهواء تفوق غرفة استقباله فى أفرسفيلد رونقاً ونظاما . وكانت دورا قد أكثرت من تزيين غرفة الاستقبال بصورها وصور أصـدقائها وأقاربها وهو دليل على سقم ذوقها لأن مثل هـذه الصور يجب أن لا يكثر عددها الا في غرف المطالعة أو فى مخادع السيدات . أما مونغيه فلم تكن هذه عادتها بل استعـاضت من الصور بالطنافس الشرقيـة الجميلة والاثاث الخفيف الدقيق الصنع . وأوانى من الازهار والورود

وكانت مونغيه قد عادت فى ذلك اليوم الى رزانتها القديمة فقدمت اليه كسرة من الخبز وقطعة من الجبن وقليلا من اللبن ثم أخذت تحدثه فى أمور عادية بهدوء وسكون الى أن خاضت فى النهاية فى حديث زواجهما فذكرت له بصراحة الاسباب التي تدعو الى زواجهما والاسباب

الاخرى التى تمنعهما عن الاقدام على مثل هذا العمل وأشارت الى المسألة من الوجهة المالية دون حياء أو خجل فأخبرته انها تلقت أمراً من المكان المتعهد ببيع صورها في لندن بالسفر الى مصر حالا لكى تصور بعض مناظر الصحراء هناك لان سوق مثل هذه الصور أعظم رواجاً من الصور الخاصة بمناظر قبرص التى لا يهتم بها كثيرون . وعلى ذلك أبلغته أنها عولت على السفر الى مصر ثم تعود الى انكلترا بعد بضعة شهور

وكان جان يتحرك فى مقعده قلقاً أثناء حديثها لان فكرة العودة الى انكلترا كانت تروع قلبه ومع ذلك اذا سافرت موغيه الى هناك فانه لا مندوحة له من اقتفاء اثرها الى هناك

قال جان بكآبة

ـ زعمت انك لا تريدين أن تتعرضى لخطر مقابلة اصدقائك السابقين

فأجابته قائلة

ـ وما ذا يعنينى الآن ؟ ان العار الذى لحقنى بهجر زوجي قد نسى الآن وهو الآن في عداد الاموات التي لم أذكر لك اسمه من قبل . انه رتشارد فرنس صاحب احدى المصارف

فنظر جان اليها بسرعة ثم قال

ـ أعرف هذا الاسم ولكني لم أقرأ شيئاً عن متاعبه المنزلية

فقالت موغيه

ـ كلا . لقد كتم كل شىء عن الصحف . وقد نجح في شرح الاسباب التى دعت الى اختفائي كما نجح فى اخفاء حياته المزدوجة

ـ لقد كان غنياً . أليس كذلك

ـ كان غنياً جداً ولكنى لم اهتم طول حياتى بالمال

ـ انني أحب المال ولـكني لم اتوفق كثيراً فى ا كتسابه

ـ لماذا لم ترسل شيئاً من أشعارك الى احدى شركات النشر بانكلترا

ـ سأنظر في الامر

عاد جان بعد قليل الى المشكلة التي كانت تواجهه فقال

ـ ولـكن اذا عدت الى انكلترا ألا يوجد من أقاربك من ينظرون بعين السخط اليك ؟

فهزت مونيميه رأسها وقالت

ـ لقد مات والدي منذ بضعة أعوام وأنا ابنته الوحيدة وليس لي اقرباء يهتمون بأمري ويجدر بك أن تعرف اسم والدي ايضا فهو السر ايان فالوري المستكشف الافريقي

نظر جان اليها نظر دهشة وقال

ـ انه أحد الذين كنت أعجب بهم وأنا صبي . لقـد قرأت كتبه مراراً وتكراراً ان هذا أمر غريب . زيديني معرفة

وبينما كانت مونيميه تقص عليه تاريخها اذ شعر بنزاع جديد فى نفسه فقد ود لو استطاع أن يخبرها هو أيضا انه لا يقل عنها شرفاً ونبلاً وان أسرة تندرج وسط معروفة مشهورة اشترك أفرادها فى الاستكشافات والمخاطر كما أن اجداده جابوا الاقطار واشتركوا في الحروب الصليبية ومنهم القواد والامبرالية وانه هو نفسه من دمهم وعظامهم

ود جان أن يطلعها على كل ذلك ولـكن كان لابد من كتمان السر فلزم الصمت وتحمل آلامه

عاد جان بعد ذلك الى فندقه وهو يلعن يد القدر التي سخرت به ونظر الى نفسه بعين المقت لجهله وحماقتـه ثم مكث يقدح زناد فكره

ثم قال ان مونميه مسافرة الى مصر لتقضي بضعة شهور فلماذا لا يعود الى انجلترا ويكشف سر حياته لزوجته ثم يغريها على طلاقه ؟ ان هذه العملية يمكن القيام بها في طي الهدوء والكتمان فلا تعرف مونميه من أمر حقيقته شيئاً فاذا ما استطاع العودة اليها طليقاً حراً وأمكنه الزواج بها ثم فيما بعد يكشف لها حقيقة الامر

ولكن كيف يطيق بعادها كل هذه المدة الطويلة ؟ وكيف يقوى على احتمال ما يصيبه من الكوارث والنوائب اذا اتفق ووقفت على سره ؟

صاح جان في نفسه قائلا

ـ اواه يا الهي . لقد نالني ما استحق من الجزاء على حماقتي . كفى ما أصابني . ايها الاله الرحيم ارحمني

أعد جان في الايام القليلة الماضية جميع الوسائل اللازمة لنشر أشعاره في لندن فنقحها وسماها « اغاني الصحراء » بقلم جيمس ايستون ثم أرسلها بالبريد الى شركة معروفة من شركات النشر واعطى عنوانه بمصرف روما الذي اودع فيه نقوده

لما فرغ جان من مهمته هذه عاد يفكر بأمر السفر الى انجلترا لتنفيذ الخطة التي وضعها . على انه كان لا يريد أن يتخذ قراراً نهائياً وبقيت مشروعاته مزعزعة مدة طويلة بعد أن استقرت مونميه على تنفيذ مشروعاتها . وكان السبب الاكبر في ذلك الى حالة التردد التي كان يشعر بها فيما يتعلق بعلاقاته معها

وفي الواقع تجنب جان التشديد عليها في مسألة زواجهما لانه أشفق على نفسه وعليها من أن يرتكب مثل هذا الجرم العظيم ومع ذلك أيقن انه ما دام يظهر لها هذه الخطة المنطوية على التردد فانها لا تستطيع أن

دقيقه

تقدمت الامور ذات يوم من أيام اواخر اكتوبر وكانت مونميه قد اتفقت معه على أن يذهبا معا الى حصن القديس هلاريون والظاهر أن كليهما كان قد استقر رأيه على أن يدرسا شئونهما اثناء الساعات الطويلة التي سيقضيانها معا في هذه الرحلة

وكانت الرحلة التي سيقطعانها طولها نحو خمسة عشر ميلا فركبا عربة اجتازت بهما شوارع المدينة أولا ثم خرجت الى العراء واستمرت في طريقها الى أن وصلت الى سفح التلال فرأيا فوقهما الطريق الذي يجتاز الجبال الى ميناء كيرينيا والبحر

وصلت العربة بهما عند الظهر الي الممر فنزل جان ومنميه من العربة لكي تستريح الجياد . وكانت الاخاديد والاودية ترى امامهما وهي ممتدة الى مسافة شاسعة في حين كانت مدينة نيقوسيا تري خلفهما وهي واقعة وسط السهول

وضعت مونميه يدها على عينيها لكي تحجب عنهما ضوء الشمس ثم مدت بصرها نحو مياه البحر المتوسط الزرقاء وصاحت قائلة

ـ ها قرية فرنجيا حيث كانت تعيش مونميه ثم وراءها بلده بونتس التي حملها زوجها اليها . . .

فقال جان دون أن يستطيع تجنب موضوع زواجها الخطر

ـ ليس لى وطن احملك اليه يا مونميه

فاجابته قائلة

ـ هذا ما كان من أمرهما أيضاً . فانك تذكر من قصتهما انه أوقعها في مشاكله الخاصة التي افضت الى انتحاره ثم موتها من بعده

وكانت مونغيه تبتسم وهي تتكلم ولكن كلماتها كانت غامضة ذات معنى ينذر بالشر بحيث شعر كأنه مجرم

ركب الاثنان العربة بعد ذلك فاستأنفت السير بهما الى أن وصلا الى سفح صخرة هائلة فوق قمتها أسوار حصن القديس هلاريون وابراجه المهدمة فغادرا المركبة ثم أخذا يصعدان المنحدرات الصخرية متماسكين يتبعهما الخادم بسلة الطعام

لم تمض مدة وجيزة حتى كانا قد اجتازا الأسوار العتيقة فجلسا في الظل لكي يستريحا ويتناولا طعامهما ولما فرغا من ذلك استأنفا السير بين الصخور والحشائش نحو البناء الضخم القائم فوق قمة الجبل

اجتاز الاثنان بابا مهشما وصعدا بضع درجات مهدمة الى الخرائب الداخلية ثم صعدا سلماً عتيقاً آخر الى أن وصلا الى غرفة لا سقف لها تسمى « مقصورة الملكة »

وكان هذا الجزء من الحصن قائماً فوق طرف منحدر شديد الميل فاطل جان وموغيه من النافذة العتيقة فوقع نظرهما على مشهد بديع من الغابات والاكام ومياه البحر ثم تلال آسيا الصغرى وقد بدت من بعيد مثل سحابة معتمة

وقف رتشارد قلب الأسد ملك انكلترا بطبوله أمام أسوار هذا الحصن وطلب الى حاميته أن تسلم اليه ولكن الاسوار لم تعد تذكر شيئاً من ذلك هنا عقد ملوك قبرص وملكاتها مجالسهم فى ذاك الخليط العجيب من الفروسية الغربية والبهاء الشرقى اللذين اشتهرت بهما تلك الاسرة ولكن ذهبت الآن جميع تلك المظاهر المظيمة واسدل عليها ستار من النسيان . هنا ارتكب جنود البندقية السلب والنهب ولكن

الاطلال التي خلفوها وراءهم قد دهنت جراحها ببلسم النسيان

اندثرت معالم كل شيء ونسي كل شيء ولم يبق غير مونميه وحبيبها صاحيين في هذا الحصن العتيق مستودع الاحلام

جلست مونميه هنا في هذا المكان فوق عرش قائم في وسط العالم القديم فخيل الى جان ان حبيبته احدي ملكات العصور الغابرة وان جميع الحوادث التاريخيـة الخطيرة قد عادت الان الى الحياة ثانيـة في شخصها في حين تجلى على وجهها سر تلك المرأة الحاكمة المسيطرة في جميع العصور والاجيال

اذا كانت مونميه قد جلست الان حاملة ذقنها بيدها. تحدق النظر الى البحر وما وراءه من شواطيء الممالك القديمة — فقد نظرت ارستوي من قبلها وهي جالسة فوق قمة هذا الجبل بعينه. وكليوباترا من قصرها بالاسكندرية. وهيلانه من حصون تراوده وملكة سبأ وهي معسكرة بجيشها فوق جبال لبنان

لقد نسي الماضي واندثر ولكنه عاد الى الحياة ثانية في شخص مونميه وهي تنظر اليه بحنان. وتدنيه منها بابتساماتها. وتقصيه عنها بعدم اهتمامها. وتحيره برزانتها. وتخيل عقله بقلبها الذي لا يسبر له غور.

أخيراً تقدم جان اليها ثم أمسك يديها وقال

ـ مونميه. لا أستطيع الصبر على هذه الحال يجب أن تخبريني هنا وفي هذه اللحظة أن تحبيني أو ان اذهب من حياتك

فاجابته بسكون ورزانة

ـ ان المستقبل في يديك يا جان. لا ريب في انك تدرك حقيقة

خطتي . فاعلم انلى لن ارتبط برجل لا يمكن ربطـه ولو كنت أهواه بالقلب والجسم والروح

فقال جان

ـ لقد طلبت اليك الزواج بى

فاجابته قائلة

ـ ان كلماتك لا تولد فى النفس اعتقاداً

فاستمد من غرامه قوة وقال بجرأة

ـ اكرر على مسامعك طلبى الأول

انك لا تدري ما تقول . اذهب الى انكلترا أو الى ايطاليا ياجان وفكر فى الامر جيداً . عش بعيداً عنى بضعة شهور واذا وجدت ان عواطفك لم تتغير من نحوى وانى لا زلت جزءاً جوهريا من حياتك ولم اذهب من مخيلتك فتعال الي وثق انى لا أخذلك . كفى ما ذقناه من غرام البدو المتنقل . أقول اننا ارتكبنا خطأً عظيما في الايام القليلة التي قضيناها معاً في الاسكندرية فلنحذر الآن من اللعب بالنار

وقع اقتراحها الخاص بابتعاده عنها بضعـة شهور تقضيها هي فى الاشتغال بالتصوير في صحراء مصر كصوت من السماء هيأ له الفرصة لتنفيذ خطته والتخلص من دورا الى الابد

استقر رأيه في الحال وقال

ـ حسن . سأسافر ولو انى لا ارتاب مطلقاً فى حبيك. سأذهب الى لارنكا غداً مع بعض أناس في الفندق ثم نركب البحر فى باخرة ستبحر بعد غد ...

فقاطعته قائلة

— هل لا بد من سفرك غداً يا جان ؟

فنظر اليها بسرعة وسألها بلهفة قائلا

— هل يهمك أن أتأخر ؟

كادت موغيه تجيبه على سؤاله وهو ينظر اليها بشغف ولكن جاء الخادم اذ ذاك فلم تجبه فثار غضب جان وصاح في وجه الخادم قائلا

— سحقاً لك . ماذا تريد ؟

فضحكت موغيه وقالت

— أظن انه جاء لـكي يخبرنا ان الوقت قد حان للعودة وعلى ذلك قام الاثنان دون كلمة وعادا الى نيقوسيا

الفصل السادس عشر

العودة

وهكذا حدث ان ركب جان الباخرة الي تريستا وغادر مونغيه لكي تسافر في الاسبوع التالى الى الاسكندرية

وصل جان في مساء يوم من أوائل شهر نوفمبر الى لندن فرأي لحزنه أن الشوارع التي اجتازها والفندق الذى اعتاد النزول به مقفرة موحشة بالنسبة الى جمال الطبيعة ورونق الجو في البلدان المحيطة بالبحر المتوسط . وخيل اليه أن غرام مونغيه وكلفه بها قد جرب جميع الأجزاء الحية فيه الى الداخل وترك تلك البقية التي عليه أن يواجه بها الحقيقة العالمية ، متحجرة يابسة .

أمطرت السماء في اليوم التالى فمكث جان في فراشه يحدق النظر من نافذة غرفته الي المداخن في الخارج والى الجو المكفهر وقد خشي القيام ومواجهة ما خبأه له القدر .

وكان غرضه الاول مقابلة مسز دار لنج لأنه يعلم أنها دائماً رقيقة العواطف تقدر مواقف الانسان وظروفه وعلى ذلك ربما ساعدته ومهدت له سبيل الخلاص من ورطته وهي الوحيدة التى تستطيع أن تخبر ابنتها برفق أنه لا يزال على قيد الحياة وان مصلحتها التخلص منه

على أنه لم يلبث أن اضطرب قلبه فجأة اذ خطر بباله أنه يحتمل أن تلقاه زوجته بمظاهر الابتهاج وترفض فراقه ففى هذه الحالة تفسد الخطة التى وضعها وتصير الحياة جحيما ثانياً لا يطاق

صادفت مشروعات جان في الخطوة الاولى شيئاً من العراقيل فقد تبين له عند زيارة المنزل الذى تقطن فيه مسز دار لنج أنها استأجرته بأثاثه .

وان صاحب الدار لا يعرف لها غير عنوان واحد هو افرسفيلد ، على أنه ليس من المحتم ان يكون معنى هـذا أنها تقيم مع ابنتها ولذا خرج جان من المنزل وهو حائر لا يدري أحسن وسيلة بها يستطيع الاهتداء اليها سريعاً .

على أنه خطرت بباله فكرة فجأة فنادى حوذيا وأمره بالذهاب الى محطة بالانجتون على أمل أن يلحق أول قطار الى اكسفورد ثم يزور افرسفيلد سراً وهناك يحاول مقابلة صديقه « الضحاك » فيعطيه جميع الانباء ويساعده على القيام بمهات عديدة تتعلق بمهمته .

وكان جان يرتدى معطفاً طويلا من المعاطف التى تستخدم للوقاية من المطر وقبعة واسعة تغطي عينيه وعلى ذلك كان من السهل عليه التنكر وهو سائر في الطرق الجانبية التى عول على السير فيها . واذا فرض وعرفه أحد من أهل القرية ثم ذاع بين السكان أنه على قيد الحياة فان هذه تكون أسهل وسيلة لابلاغ دورا حقيقة الأمر لأنه كان يود عدم مفاجئتها .

لم ينتظر جان القطار طويلا ولم يحن وقت الظهر حتى كان سائراً في طريقه وسط الحقول الواقعة بين اكسفورد وقرية افرسفيلد . وكانت الامطار قد كفت عن الهطول ولكن السماء كانت لاتزال ملبدة بالغيوم فاكفهر قلبه مثل الجو الذى يحيط به لا سيما عند ما ذكر أيام الاسر التي قضاها ولم يصدق أنه غاب عن منزله ستة شهور.

لم يصادف جان أحد أثناء طريقه الى أن وصل الى الطريق المعروف خلف الكنيسة . وكان غرضه أن يسير حول طرف القرية الى الكوخ المنفرد الذى يقطن فيه الضحاك مع حنه العجوز ولكن السكون الذى كان مخيما حوله والصمت الذى كان يشبه صمت القبور حملاه على الزحف الى فناء الكنيسة حيث وقف ، وقد تملكه شيء من الرهبة أمام القبور

وقع نظر جان فجأة على لوحة صغيرة من النحاس فتقدم اليها وقلبه يدق ولا عجب فقد رأى عليها ما يلى :

« احياء لذكرى المرحوم جيمس شمبرنون تندرنج وست صاحب مزرعة افرسفيلد الذى داهمه الموت وهو فى عنفوان شبابه بعد حياة طيبة فذهب ضحية سفاك قتله فى جوار مدينة بيزا بايطاليا. وقد قامت هذا النصب أرملته الحزينة دورا تندرنج وست »

احمر وجه جان خجلا ثم تمتم قائلا :

ـ يا الهى . هل أعود الى الحياة في وجه هـذا العمل لكي تطلقني « الارملة الحزينة » فاعطي لقبي وأملاكي التى تركتها لمونعيه يا لها من مهمة جميلة !

تحول جان وقلبه مفعم حزناً ثم همس قائلا :

ـ أى انكلترا . أى انكلترا . أيتها الأم المرائية

هرع جان من فناء الكنيسة ثم سار الى الحقول فقابله رجلان من القرويين ولكن تظاهر بالتقاط بعض النباتات وبذا استطاع ان يتجنب ملاقاتهما وجها لوجه . وكان الطريق الذى سار فيه يؤدى الى الجزء الخلفي من الغابات المجاورة للمزرعة وهي الغابات التى طالما فر اليها طلباً للتسلية والراحة

خطر ببال جان اذ ذاك ان يصفر تصفيره المعروف قبل الذهاب الى كوخ حنه البعيد على أمل أن يسمع الضحاك الصوت فيأتى اليه . وعلى ذلك توغل جان داخل الغابة الى أن وصل الى بقعة خالية فوقف ثم صفر تصفيراً طويلا منخفضاً وكرر عمله هذا ثلاثاً . وكان ينتظر في كل مرة لكي يسمع جواباً على ندائه .

كاد جان يصفر للمرة الرابعة ولكنه لم يلبث أن سمع تلك الحركة بين الاغصان فتحول فى الحال فرأى شبح الرجل الرث الهيئة يبرز من بين الاشجار الى وسط الطريق . وكان عارى الرأس فلما رأي جان شعره الاحمر لم يرتب في معرفته .

خرج جان الى الطريق فهرع الضحاك اذ ذاك اليه ماداً ذراعيه ، تمتد ابتسامة من اذن الى اذن وعيناه الصغيرتان تلمعان

مد جان يده اليه وحياه قائلا :

ـ مرحباً أيها الضحاك

على أنه لم يكن متأهباً لرؤية المنظر الذى وقع بعد ذلك فقد جثا الرجل على ركبتيه وخر على وجهه وسط الحشائش وهو يلهث ويبكي ويضحك ويقول :

ـ يا الهي . يا الهي . لم أشك في أنك على قيد الحياة يا سيدي

ثم رفع صدره وجثا على ركبتيه وتناول يد جان ثم أخذ يقبلها ويمسح وجهه فيها .

قال جان بحدة

ـ قف ماذا أصابك

فوقف الضحاك على قدميه وقال :

ـ لقد شعرت بدوار فى رأسى وهو ما يصيبني أحياناً

فوضع جان يده على كتفه وسأله قائلا :

ـ هل كنت مريضاً ؟

فضحك الرجل وقال :

ـ سيشتد عزمي الآن بعد عودتك . كنت أعرف أنك على قيد الحياة . وقد قالوا انك قتلت ولكني اخبرت حنه العجوز أني لا أصدق ما يقولون وقلت لها أنك عدت الى جولاتك وتنقلاتك . وانك لا تستطيع المقام فى غرفة نوم واحدة

ـ لقد اصبت أيها الضحاك ولكني لم أستطع الصبر بعد الآن ولذا هجرت الجولان والسفر . ولكن يجب أن تلاحظ أني جئت خفية وأنه يجب أن لا يراني أحد . اني فى عداد الاموات ولم آت الى هنا الا لمقابلتك لاقف منك على ما هنا لك

ـ فقال الضحاك بلهجة الجد

ـ ان الاصدقاء يتمسكون بالاصدقاء ولم أعرف في حياتى صديقاً غيرك ويلوح لى أني أعطيتك كل شىء فى عقلي

دخل الاثنان الغابة ثانية ثم جلسا على جذع شجرة جنباً الى جنب فسأله جان عن دورا فأخبره انها تقطن فى منزل المزرعة وتعيش عيشة هادئة وان امها تأتي لمقامها معها أحياناً ولكنها ليست في افرسفيلد الآن

قال جان

ـ كيف تظن أنها تحملت فقدى ؟

فهز الضحاك رأسه وقال :

ـ كنت أود أن أقول قولا أكيداً ولكن أعلم يا سيدي أن المستر مريفال يقضي وقتاً طويلا في منزل المزرعة . وقد جنت جاني بوتس صاحبة المنزل الذي يقطن فيه مريفال جنوناً فظيعاً بسبب زيارته هذه . ويقولون أنها تراقبه مثل لبوة مفترسة وان الغيرة دبت في قلبها الى درجة على أن اشتغاله بزوجتك يا سيدي منعه من مراقبة ما هنا لك . والظاهر انهما ينويان الاقتران بعد انتهاء زمن الحداد

فالتهب وجه جان غضباً وقال

ـ يا لهما من شيطانين ! اذن لا تتأخر عن الطلاق . . . هـذا نبأ سار يا صديقي .

فظهرت علامات الحيرة على وجه الضحاك وقال :

ـ تطلقك ؟ ألا تريد أن تختفي وراء حجاب الموت ؟

فوضع جان يده على منكب الرجل ثانية وقال :

ـ أصغ الي . لقد أخبرتك مرة أنني اذا بثثت حزني الى أحد فانه يكون لك فهل في وسعي أن أثق بك ؟

ـ لك أن تثق بي في السراء والضراء كما قلت غير مرة . انهم يستطيعون أن ينزعوا قلبي من بين ضلوعي ولكنهم لا يستطيعون أن ينزعوا كلمة واحدة مما قلته أو تقوله لي .

أخذ جان اذ ذاك يشرح الحالة كلها لصديقه الضحاك فاخبره كيف انه التقى في بلاد بعيدة بالمرأة التي كان يجدر به أن يتزوجها وكيف انه يرجو أن تطلق دورا سراحه ثم ختم حديثه بقوله

ـ ان المسألة مسألة موت أو حياة . اذا رحبت زوجتي بي بعد خروجي من القبر كما تعتقد وتمسكت بحقوقها فانني سأطلب رأي

بالرصاص لانني لا أستطيع أن أكون بعلا لزوجة لاحقيقة لها خصوصاً بعد أن عرفت الآن معنى الحب الصحيح . اعلم أيها الرجل ان الحب قد ابتلعني كوحش مخيف وانني اكاد اشتعل شوقاً الى العودة اليها . ألا ترى انني في جحيم تلتهمني نيرانه ؟

فحك الضحاك جلد رأسه بأظافره ثم قال

— نعم أرى واعلم انها في انتظارك هناك في تلك البلاد الجميلة التي تنيرها الشمس بأشعتها الجميلة وتغرد فيها الطيور . لما اخبروني انك قنلت اخبرت هذه العجوز انك انما ذهبت الى تلك البلاد التي كنت تذكرها في أحاديثك وهي البلاد التي تظل أرضها خضراء طول السنة . وكنت كلما سمعت ناقوس الكنيسة يدق قلت في نفسي انك جالس على شاطىء ذاك النهر وانه ربما تكون ملكة تلك البلاد جالسة بجانبك تقبل يدك

فضحك جان لقوله هذا وقال

ـ انك شاعر أيها الضحاك ولكنك كدت تصيب بقولك هذا كبد الحقيقة فقط كنت أنا الذي اقبل يدها

مكث الاثنان يتحدثان هنيهة الى أن اقترح جان أن يذهب صديقه الى بارنز ساعي البريد وان يبحث عما اذا كانت مسز دارلنج في منزل المزرعة او لا واذا لم تكن هناك فان في وسعه أن يحمل ساعي البريد على أن يخبره بعنوانها ثم نظر الى ساعته وقال

ـ ستخيم الظلمة بعد ساعتين فعليك أن تقابلني هنا قبل سدول الظلام .

والظاهر ان الضحاك كان يتوق الى خدمة جان فوضع يده على

جبينه مرتين اذعاناً للامر ثم ذهب ليقوم بمهمته بابتهاج واختفى بين الاشجار .

شرع جان اذ ذاك في المسير نحو قرية قريبة تدعى « بدلى ستون » لكي يقضي وقته ثم عاد بعد ساعة الى الغابة . وكان لا بد من انقضاء ساعة أخرى قبل عودة الضحاك وعلى ذلك أخذ يتمشى داخل الغابات ويمتع نظره بتلك المناظر القديمة التي كان يتمتع بها أيام اسره

سأل جان نفسه قائلا

ـ كيف كان في وسعي أن أطيق هذه الحياة التعسة ؟

القى جان على نفسه هذا السؤال ومع ذلك شعر في قلبه بعاطفة قوية تجيبه على سؤاله هذا قائلة ان هذه مسقط رأس أجداده ووطنه الذي يريد أن يرثه أولاده من بعده ولكن المزرعة الآن هي ملك دورا . المرأة التي لا يشعر نحوها بعاطفة . ولا تلبث (المزرعة) أن تؤول الى أناس آخرين من غير أسرته

وكانت الضجة شديدة في رأسه وزادت ورطته قوة عند ما خطر بباله ان مونغيه كانت تمده بعطفها وحكمتها لو كانت هي شريكة حياته والت اليهما هذه الممتلكات وانها ستظل في جهل من كل متاعبه هذه

ود جان أن يكتب اليها ويطلعها على الحقيقة كما هي ومع ذلك خشي مغبة مثل هذا الاعتراف وما يجره كذبه وخداعه على رأسه من البلايا والمصائب ولذا لم يلبث أن استعاد نفسه من نفسه

وصل جان في سيره الى نقطة ليست بعيدة عن حديقة منزل المزرعة من الخلف وكان يسير في طريقه على غير هدي يحمل معطفه على ذراعه وقبعته في يده

كاد جان يخرج الى الطريق المغشى بالحشائش اذ سمع فجأة أصواتاً على مقربة منه فزادت دقات قلبه وعاد في الحال بين الاشجار وربض بين أغصانها المدلاة على الارض

لم تمض لحظة أخري حتى كان جان ينظر بعينين متقدتين ووجه ملتهب نحو شبحي دورا زوجته وجورج مريفال صديقها . وكانا يسيران نحوه : تحدق دورا النظر الى وجه الرجل السائر بجانبها وهو ينظر اليها بعينيه المستديرتين

وكانت دورا ترتدي ثوباً اسود ومنديلاً اطرافه مجللة بالسواد لفته حول عنقها فى حين كان مريفال يرتدى بذلة جديدة رمادية اللون وقبعة واسعة

لم تمض لحظة أخري حتى وصل الاثنان على مسافة خطوة أو خطوتين من المكان الذى اختبأ فيه جان بحيث صار فى وسعه الآن أن يسمع حديثهما

قالت دورا

ـ ان الغابه مخيفة يا جورج حتى في ضوء النهار وفي اعتقادي انها مسكونة بالارواح فلماذا جئت بى الى هذا المكان ؟

فأجابها قائلا

ـ انك أنت التي اقترحت قدومنا الى هنا

فنظرت اليه بعينيها وقالت

ـ هل فعلت ؟ حسن . لست خائفة فى الواقع وأنت معي لانك قوى تستطيع الدفاع عني وليس فى العالم ما يخيفك على ما اعتقد

فشمخ بأنفه وقال

لا أخاف أشياء كثيرة

فضغطت على ذراعه وقالت

ـ انك تعلم ان هذا ما كنت محرومة منه فى جان المسكين فانني لم استطع مطلقاً ان اعتمد عليه فى حمايتى والدفاع عني . وتري انى جبانة أفر من أمور تافهة تخيفنى

فرفع يدها الى شفتيه وقال

ـ أي ظبيتي الصغيرة !

اتقدت عيناي جان اذ ذاك وقال

ـ انها الاحبولة القديمة

استطرد مريفال فى حديثه معها فقال

ـ انك في حاجة الى رجل يهتم بأمرك ويحميك . الى متي تنتظرين علان خطبتنا ؟

فأجابته دورا قائلة

ـ انك كثير الملل يا جورج . لم أشعر فى حياتي بحب من نحو جان ومع ذلك أرى أن أعطي ذكراه الوقت المقرر . وهو عام لان الناس الذين يجهلون كيف أكرهني على الزواج به وكيف أساء معاملتي يوجهون الي اللوم اذا تزوجتك قبل مضى تلك المدة

وقف مريفال جامداً في مكانه في الطريق المغشي بالحشائش وأخيراً قال

ـ لا يعلم أحد بزواجنا اذا ذهبنا الى مكتب الزواج وفى وسعنا أن نسافر الى الخارج بعد بضعة شهور

فنظرت دورا اليه وقالت وعلى فمها ابتسامة

ـ لا تنس ان المرأة تكلف الرجل نفقات كبيرة . ان ثياب المرأة

وحدها تعد ثروة ولا يقتصر قولي هذا على الملابس الخارجية بل يجب أن يحسب حساب الملابس الداخلية أيضاً

ابتعد اذ ذاك عن مسامع جان الذي ذكر حيلها القديمة فثار غضبه وهاله ما قد تخبئه له المقادير

وفي الواقع لو تزوجت دورا هـذا الرجل لزادت المشكلة تعقيداً وفوق ذلك شعر جان بقيمة الاملاك التي تركها عند ما خطر بباله أن مثل هذا الرجل السكير سيتمتع بها وزادت قيمتها في عينيه عشرة أضعاف

أراد جان أن يظهر نفسه في الحال لان غضبه من تشويهها الحقائق كاد يذهب بعقله

وقف مريفال بعد مضى بضع دقائق ثم نظر الى ساعته وقال

ـ لقد تأخرت كثيراً

ثم قبل يد دورا وأسرع الخطا نحو الطريق

لم يكد يختفي الاثنان خلف منحنى الطريق حتى قام جان من مكانه وهرع خلفهما . ولم تكن له غاية مقصودة وانما أراد أن يقتفي أثرهما . على انه لم يكد يقترب من الغابة حتى وقف خلف شجرة وراقب مريفال وهو يجد السير في الحديقة وقد غادر دورا وحدها

لاحظ جان بعد فترة وجيزة ان دورا تنظر من ناحيـة الى أخرى كانما فقدت شيئا ولم يلبث أن رأي ان قفازا سقط منها وانها أخذت تستجمع قواها لـكي تدخل الغابة المخيفة ثانية للبحث عنه

بحث جان بعينيه في الطريق فوقع نظره في الحال على القفاز وكان ملقي على الارض على مقربة منه داخل الغابة . ولم يكن لديه وقت لـكي يخفي نفسه قبل أن تأتي دورا مسرعة في الطريق وهي تنظر باضطراب يمنة ويسرة

مرت دورا من أمامه دون أن تراه ثم التقطت قفازها ولكن وقع نظرها عليه أثناء عودتها فانتفض جسمها وصرخت صرخة مروعة

رأى جان أن لا فائدة من الهرب وان الازمة قد وقعت وان لا مندوحة من مواجهتها. وعلى ذلك خطا بقدم ثابتة وسد عليها الطريق

وكانت قبعته ومعطفه في المكان الذي كان مختبئاً به فوقف الآن أمامها يرتدي ثوباً عتيقاً تعرفه جيداً ، وشعره الاسود يتدلى على جبينه ممتقع الوجه ، متقد العينين ، يدل شكله العام على الخطر الجسيم

كان اضطراب دورا مروعاً . فقد أخذت تضرب الهواء بيدها اليمنى بعنف وذراعها في حين وضعت أصابع يدها اليسرى بين أسنانها المصطكة وحملقت عيناها بحيث كاد حاجباها يصلان الى شعر رأسها

أخذت دورا تلهث قائلة

ـ لا أعني ما قلت يا جان. لم أعن ما قلت. اذهب. سأخبره بالحقيقة سأقول انك أحببت معاملتي ... اواه خذه بعيداً يا الهي ... عد الى قبرك يا جان ... اواه خذه يا الهى بعيداً ... خذه بعيداً

ارتفع صوتها الى صراخ ثم سقطت على ركبتيها وأخذت تضرب الأعشاب التي تغشى الارض بقبضة يديها

تقدم جان اليها وقال

ـ قومي أيتها الحمقاء . لست شبحاً . انني على قيد الحياة . أنظرى الى

أحدقت النظر اليه وقد فغرت فاها . ثم زحفت الى الامام ووقفت على قدميها . وبينما كانت الحقيقة تتجلى أمام عينيها عاد احمرار وجهها وبدت عليه علامات الكراهية بصورة جلية لم يرها جان من قبل وقد زادت على روح الكراهية التي كان يشعر بها من نحوها

فسألت وهي تلهث

ـ هل أنت حي ؟ ألم تقتل ؟ هل كنت تحتال على ؟

فأجابها جان قائلا

ـ نعم . لم يكن في نيتي العودة الى هنا ثانية ولكنني أرغمت ارغاما

فأخذت تدق احدى يديها بالاخرى وصاحت قائلة

ـ انك لا تستطيع العودة ثانية . انك في عداد الاموات الآن . انك لا تستطيع العودة ثانية انك لا تستطيع . انك لا تستطيع ... هل تفسد علي كل شيء بهذه الوسيلة أيها الوحش ... أيها الشيطان . أواه . كان يجدر بي أن أعلم أن هذه حيلة قذرة دبرتها لايقاعي في الشرك . أظن أنك كنت تعيش مع امرأة أخرى . حسن . عد اليها لقد فرغت منك . لا يحتاج اليك أحد هنا لقد شكرنا الله على موتك لان طباعك وأخلاقك مستحيلة

أخذت دورا تروح وتغدو ، تلوى قفازها في يدها تارة وتشير اليه بأصبعها المضطرب تارة أخرى وتارة تضرب صدرها بيدها

والظاهر أن جان شعر بخطأه اذ قال

ـ انى آسف على ذلك ولكن هذه هي الحقيقة . انني على قيد الحياة . لا أنوى مضايقتك وكل ما أريده أن تطلبي الطلاق بحجة هجرى لك وبذا أستطيع التخلص منك ومن مزرعة أفرسفيلد الى الابد

فكررت قوله بغضب قائلة

ـ أطلقك ؟ أطلق رجلا ميتاً ؟ هل تريد أن تجعلني أضحوكة في أعين الناس ؟ لقد دفعت أمس ثمن لوحة نحاسية تذكاراً لوفاتك . انها تذكار كاذب سميت نفسي فيها « أرملتك الحزينة » ان هذا كذب لم

بأقل حزن لموتك

لقد كانت نفسي تمجك دائماً . لم تكن لدي رغبة في الزواج بك لو لم تقل أمى انك ند صالح لى . والان وقد كدت أعثر على الرجل الذى هو جدير بي ويستطيع حمايتى ، أراك تعود ثانية الى المزرعة تتجسس مثل قطاع الطرق . ليتك الان في عداد الاموات

جمد جان تحت تأثير كلماتها الشديدة وكان يود أن يخبرها كيف أنها جعلت حياته مستحيلة بادعاءاتها ومظاهرها الكاذبة ورأيها السخيف فيما يتعلق بالزواج وحرمانه من الاولاد ولكنه لم يستطع التكلم وخاطبها قائلا

ـ سأكون ميتاً الي الحد الذي يهمك على أثر طلاقنا . أنت لا تتحملين شيئاً غير تأجيل زواجك بضعة شهور ليس الا

فصاحت قائلة

ـ لماذا عدت ؟ هل تريد مالا ؟

ـ كلا لا أريد مالا . سأدع المزرعة كلها لك ولكني أخبرك في الحال أنك لا تتمتعين بها الا أثناء حياتك فقط وعند موتك ستعود الى والي أولادي . هذه شروطي فاذا لم تقبليها طالبت بالمزرعة كلها وعينت لك مرتباً شهريا

فثار غضبها مرة أخري وقالت

ـ تباً لك من شيطان . يالها من قسوة شديدة لقد خدعتني خدعة كبيرة اذ عدت الى هنا ضد ما اعتقد الجميع أنك مت . سأذيع عملك هذا بين الجميع الى أن تعاف آذانهم سماع اسمك

فهز جان كتفيه . على أنه لم يلبث أن تولته الدهشة اذ دخلت عليه

ونشبت أظفارها في وجهه فحاول أن يمسك ذراعيها ثم مكثا يتنازعان هنيهة مثل وحشيين ضاريين الى أن أفلتت من يده وفرت بين اشجار الغابة وهي تتعثر في طريقها وتوجه اليه كلمات اللعن والسباب

وقف جان لحظة يحدق النظر خلفها ويصغي الى تكسر الاغصان وحفيف اوراق الاشجار وهي تجرى والظاهر انها أرادت أن تلتف حول الغابة في طريقها الى باب منزل المزرعة ولكن لم تمض مدة وجيزة عن وقف الصوت المنبعث من حركاتها كانما وقفت لتستريح

عاد جان اذ ذاك فالتقط قبعته ومعطفه وسار الى المكان الذى وعد الضحاك بأن يلقاه فيه . وكان فكره مضطربا شارداً فثار غضبه على نفسه وسأل نفسه بتعاسة عما تقوله مونعيه عن هـذه الورطة لو علمت بها

الفصل السابع عشر

الكارثة

أخذت الظلمة ترخي سدولها فشعر جان ببرد على رغم اعتدال الجو . على أنه لم يلبث طويلا حتى جاءه الضحاك ووضع يده على جبينه ثم قال:

ـ لقد غبت عنك مدة طويلة يا سيدى ولكنك لا تجهل تلكؤ بارنز ساعى البريد في كلامه وحركاته . ولكني حصلت منه على العنوان وها هو مكتوب في هذه الورقة .

ثم ناوله قصاصة من الورق كتب عليها اسم فندق كنجستون وهو مبتهج كأنما قام بخدمة جليلة لا تقدر

قال جان :

ـ ان هذه مكرمة منك . لقد قابلت زوجتي أثناء غيابك في القرية ..

فضحك الرجل وقال :

ـ يا الهى . أظن أنها اضطربت عند لقائك

اخبره جان بعد ذلك شيئاً مما جرى بينه وبينها ولكن اضطر الى الايجاز فى كلامه لما أظهره الرجل من عدم الاكتراث ولم تمض لحظة وجيزة حتى انتهى الحديث بينهما

صافح كل منهما الآخر عند طرف الغابة وكادا يسيران فى طريقهما ولكن الضحاك وقف فجأة ورفع اصبعه ثم سأل جان قائلا

ـ هل سمعت شيئاً ؟

فانصت جان هنيهة ثم قال

— كلا .

فقال الضحاك

— خيل الى انني سمعت وقع اقدام . لقد كثر لصوص الارانب هنا في المدة الاخيرة وقد رأيتهم ولكنى لم اسمح لاحد بالصيد غيري

أرد اجان ان يقطع على صديقه حبل الحديث فصافحه مرة اخرى ثم سار في طريقه نحو اكسفورد

وصل جان الى لندن نحو الساعة الثامنة ولم تأت الساعة التاسعة حتى كان في طريقه الى فندق كنسنجتون ليزور مسز دارلنج فقد رأي ان يستخدمها في مساعدته بعد ان علمت ابنتها انه على قيد الحياة

وصل جان الى الفندق فادخلته الخادمة غرفة الاستقبال ثم سألته عن اسمه فقال

— المستر تندرنج وست

فاه جان باسمه اذ رأى انه خير له ان تنالها الصدمة التي لابد أن تتحملها على يد غيره بدلا من أن تكون على يده

لم ينتظر جان طويلا اذ دخلت عليه مسز دارلنج بعد دقائق قليلة كانما دفعها احد من الخلف ثم اغلقت الباب . وراءها ووقفت تحدق النظر اليه وهي جامدة في مكانها جموداً تاماً

ضحك جان بانفعال قائلا

ـ نعم انا هو يامسز دارلنج

فقالت المرأه وهى تلهث

— رحماك يا الله . جان ! ماذا تفعل هنا فى ارض الاحياء ؟ لقد قالوا انك مت ودفنت ؟

فاعترض على قولها هذا قائلا

— كلا . لم أدفن . انما قالوا انى طعنت بسكين كانذ كرين والقيت فى البحر فوضعت يدها على جبينها وقالت

— هل تعنى انك جئت الى هنا سابحاً ؟

فضحك جان وقال

— شيء من هذا القبيل . وعلى كل حال هاأنذا وقد اتيت اليك لاسألك ماذا افعل بعد ذلك لقد جرى لى حديث مع دورا منذ مدة وجيزة .

فرفعت مسز دارلنج يديها ثم شرعت في الحال تمطره اسئلة عن حياته فكان يجيبها بعبارات تنطوى على المراوغة الى ان قالت أخيراً

— أتدرى أيها الرجل ان دورا ارملة وانها تبحث لها عن زوج خر ؟ أتدر أننا أقمنا لك حفلة تأبين فى الكنيسة ووضعنا لوحة من االنحاس تذكارا على قبرك

— نعم رأيتها وقد تورد وجهى حياء

— يسرنى أن اسمع ذلك . نعم يجدر بك ان تخجل لتقصيرك في اظهار الفضائل التي تعزى اليك

والظاهر ان مسز دارلنج كانت لا تهتم بغير مستقبل ابنتها وفي الواقع استطردت فى حديثها قائلة بصوت عال

— أتدري ان وصيتك فتحت وان دورا صارت الان تمتلك كل بنس تركته وانها تعطينى ثلاثمئة جنيه في السنة

ثلاثمئة جنيه فقط ؟ هذا مبلغ بسيط جداً سأعطيك اربعمئة

فاجابته المرأة قائلة

انه ليس مالك . انك ميت . ليس في وسعك ان تلعب بالموت بسهولة فاذا قتلت ، قتلت وانتهي كل شيء . ان الامور تصير مستحيلة اذا كان في وسع الناس ان يقفزوا من القبر بهذه الحال . انك لاتجهل هذه الحقيقة بلا مراء . ماذا قالت دورا ؟

ـ لقد ثار غضبها وصبت جام سخطها على ورمتني بكل نقيصة قائلة انها تمقتني وانها ستتزوج جورج مريفال

ـ ماذا تنتظر غير ذلك ؟ انها قالت انك اسأت معاملتها بطريقة شنيعة .

فقال جان بحدة

ـ هذا كذب

ـ نعم هذا ماقلته . انى اعرفك واعرف انها غادرة

لايهمنى قولها اني اسأت معاملتها اذا كان في قولها هذا مايساعدها على طلاقنا

فصاحت المرأة قائلة

ـ طلاق ؟ هل تريد ان تطلقك ؟ ولماذا

لكي استطيع التخلص منها والتزوج ثانية اذا وجدت المرأة التي تصلح لى فدقت المرأة يدا بيد وقالت

ـ ما أعظم هذه الجرأة . ولكن عليك ان لاتجعل الزواج عادة لك لان محاكم الطلاق بطيئة كما تعلم . والان اخبرني هل تغار على دورا ؟

ـ كلا . لقد رأيتها بعد ظهر اليوم تتودد الى جورج ميفال فلم أشعر بشيء سوى سخطي على أمي لانني خدعت بأقوالها

فتنهدت مسز دارلنج وقالت

— مسكينة دورا . انني أحبها كما تعلم ولكني اعترف بغلطاتها

أخذ الاثنان يتحدثان عن الاعمال التي يمكن القيام بها للوصول الى الطلاق الى أن تم الاتفاق بينهما على أن تذهب مسز دارلنج الى افوسفيلد غداً وتحمل ابنتها على قبول فكرة الطلاق . ولما تم الاتفاق على ذلك وقف جان وصافحها قائلاً

— الى الملتقى . انني أشكرك على كرم أخلاقك

فضحكت وقالت

— قول هراء . اعلم يا جان انني أبيع روحي في سبيل المال . الى الملتقي يا عزيزي . انني أود لك الهناء والسعادة سواء كنت حياً أو ميتاً . الى الملتقى

ثم صافحته وانصرف

عاد جان الى الفندق مرتاح الفكر قليلاً فذهب في الحال الى مخدعه وهو يشعر بتعب شديد بسبب ما تحمله من المتاعب طول النهار . على انه لم يكد يستلقي في فراشه حتى وجد ان النوم قد هجره . وقد حاول عبثاً أن ينزع من فكره الافكار التي ازدحمت في رأسه فقد ظل شبح دورا أمام عينيه في حين كانت أذناه تسمعان صوتها وهي تؤنبه وتسلقه بلسانها الحاد

خيل الى جان ان وجه دورا الصغير يزاحم أفكاره الاخرى الخاصة بعو نميه فجلس فجأة في فراشه وحار في معرفة سر قلقه هذا وهل هو

نذير بكارثة تهدده

لوى جان مفتاح النور الكهربائي ثم رفع الغطاء ونزل من فراشه ثم صب كأساً كبيرة من الخمر وتناولها جرعة واحدة ولم يلبث أن شعر بحرارة الغرفة ففتح النافذة ولكن الهواء البارد أكرهه على اغلاقها ثانية

أخيراً جلس على متكأ بجانب فراشه والتجأ الي الوسيلة الوحيدة التي يجد فيها العزاء بعد أن تعييه الوسائل الاخرى ونعني بها قيثارته فاخذ يوقع على أوتارها بأنامله ويغني أغانيه القديمة

والظاهر أن نغمات الموسيقى خففت وطأة أفكاره وانتقلت به الى عالم آخر بحيث نسي كل ما حوله . وكان جان يغني في البداية أغنية مؤثرة فانتقل منها الآن الى أغاني غرامية مشجية فانتقلت أفكاره الى ما وراء البحار ، الى مصر حيث كانت مونيه راقدة الآن في فراشها يحيط بها شعرها الأسود الجميل فوق وسادتها

على أنه لم يلبث أن سمع دقاً شديداً على الباب فانقطع عن الغناء وأمر الطارق بالدخول فدخل عليه رجل ضخم الجسم احمر الوجه تدل هيئته على أنه من رجال الجندية وصاح في وجهه قائلا

ـ ما هذا يا سيدي . اذا لم تكف عن غوغائك هذه وتذهب الي فراشك ناديت صاحب الفندق

فسأل جان وقد اخذته الدهشة قائلا

— ماذا جرى يا سيدي ؟

ـ لقد اقلقت جميع من في الفندق ولم يستطع أحد النوم . أليس

ألديك شعور بالواجب نحو جيرانك ؟

افاق جان عند ما سمع هذا السؤال وقال

ـ انى آسف جد الاسف يا سيدى . لقد نسيت أنى فى فندق . أسألك الصفح والمعذرة . هل تريد كأساً من الخمر أو سيجارا ؟

لم يجبه الرجل بكلمة بل نظر اليه نظرة حادة ثم تحول وأغلق الباب خلفه بعنف

فتمتم جان قائلا

ـ ما أعظم غباوتي

ثم قام الى فراشه وقد خطر بباله قول الشاعر ماتوى ارنولد الذي قال : « لقد مللت نفسي وسئمت من قولي من انا وما يجب أن أكون »

قال جان في نفسه : هل تتزوج موتميه بى يا ترى ؟ أو هل ستجد هى أيضاً أن اخلاقه وطباعه مستحيلة ؟ ما هذه الورطة التي وقعت فيها وبما كان لدورا عذر في بغضى

اخذت مثل هذه الافكار تخطر بباله الى أن غلب النعاس عليه فنام

ذهب جان في صباح اليوم التالى الى غرفة التدخين بالفندق بعد تناول الفطار فالتقط احدى الصحف وأخذ يقرأ الانباء الاجنبيـة بدون اكتراث . على انه لم يلبث ان وقع نظره على عنوان جمد له دمه في عروقه وكاد يذهب بعقله . وكانت الكلمات المطبوعة تترنح امام عينيه وهو يقرأ النبأ التالى المروع وهو :

« وجدت ليلة أمس جثة مسز دورا تندرنج وست ارملة المرحوم جيمس تندرنج وست صاحب مزرعة افرسفيلد ملقاة فى غابة جوار منزل المزرعة . وقد وجد مؤخر جمجمتها مهشما بسبب ضربة حجر ثقيل

وجد بجانبها ملطخاً بالدم . وقد غابت مسز تندرنج وست عن منزلها منذ الساعة الرابعة بعد الظهر ويدل التقرير الطبي على أن الوفاة حدثت في ذاك الوقت تقريباً . . »

مر جان بعينيه على بقية النبأ بسرعة مدهشة فوجد أن التقرير يقول . « ليس ثمة ريب في أن الجناية ارتكبت ولكن لم يطبع على الحشائش الكثيفة التي تغشى الارض أثراً لاقدام الجناة . وقد وجدت ملقاة على وجهها وفي جبينها جرح ربما نشأ عن سقوطها على وجهها . أما الدافع على ارتكاب الجريمة فلا يزال سراً مجهولا لانه لم تقع سرقة وليست هناك أثار تدل على وقوع نزاع »

« على أن البوليس يعلق اهمية على وجود رجل اجنبي المظهر شوهد بعد الظهر يسير في جوار الغابة المجاوره . ويذكرون بهذه المناسبة ان المستر تندرنج وست قتل في ايطاليا منذ بضعة شهور فلا يبعد ان تكون الجريمتان نتيجة مساعي عصابة واحدة : ولا يعلم السبب الذي حمل السيدة المسكينة على الذهاب الى الغابة ولكن يحتمل انها اغريت على الذهاب الى هناك لتلقي حتفها »

شعر جان على اثر فراغه من قراءة الخبر برعب شديد من هول الجريمة وتأثر لما اصاب دورا » ولا عجب فقد هالته الطريقة التي قتلت بها ومع انه لم يكن شديد الصلة بها فقد وقعت وفاتها في نفسه موقعاً شديداً مؤلما

ومن حسن حظه انه كان منفرداً في غرفة التدخين فقام وأخذ يروح ويغدو في ارض الغرفة يحمل الجريدة في يده والظاهر ان يد القدر شاءت دائماً أن تبلغه ما يصيبه من الحوادث الجسام بواسطة

الصحف . فقد اطلع على خبر ارثه في الصحف وعلى خبر موته في الصحف والان قرأ هذا النبأ المروع فى الصحف

قال جان فى نفسه من ارتكب الجريمة يا ترى ؟ خطرت ببالا فكرة عن الضحاك ولكنه لم يلبث أن نبذها فى الحال فقد كان الرجل في القرية في ذاك الوقت يبحث عن عنوان مسز دارلنج من ساعى البريد وفوق ذلك لم يبد على وجه الرجل شيء يثير الارتياب . عند ما قابله جان ثانية . لا يبعد ان يكون احد اللصوص التقى بها داخل الغابة عند فرارها من جان وقتلها

اما جورج موريفال الشرير فانه لا بد ان يكون قد توخي الحذر دائما باخفاء حركاته مع دورا والا فان الظنون تحوم حوله واذا كان قد رآه احد وهو يجرى على مقربة من حديقة المنزل فان موقفه يكون حرجا

وبينما كان جان يقلب فى فكره كل هذه الاحتمالات اذ شعر فجأة بموقفه الخطر فقد رأى انه كان آخر من رآها على قيد الحياة والاسباب التي تدعوه الى قتلها ليست قليلة . وعلى ذلك سيشك الضحاك في امره بلا مراء وربما افشي سره

ثم هناك مسز دارلنج ! — انها تعرف انه قابل دورا فى الغابة وتعلم انهما تنازعا نزاعا شديداً . لا ريب فى انها ستتهمه بقتل ابنتها

صاحت هذه الفكرة فى وجهه مثل الطبل واعلنت جريمته للعالم في حين اخذ قلبه يدق دقا شديداً

تولته الحيرة وتملكه الذهول فهرع الى غرفته فى الدور الأعلى واغلق الباب وراءه

الفصل الثامن عشر

القدر

مكث جان في غرفته مذهولا حائراً لا يدري ماذا يفعل . والظاهر ان يد القدر اخذت تلعب به وتعذبه وتطعنه من كل ناحية وجانب

لو اجل جان زيارته لمسز دارلنج لاستطاع الان ان يفلت دون ان يراه احد كما جاء ويسافر الي الشرق حيث يعيش بقية حياته بأسم ايستون دون ان يرتاب فيه احد لان الصحاك لا يمكن ان يفشي سره ولكن قضى عليه الان

نعم انه الان ارمل وان في وسعه الزواج بالمرأة التي احبها قلبه حباً اخذ يشتد قوة على ما يظهر كلما زادت العراقيل في سبيله ولكن سيضطر الى الكذب عليها يومياً طول حياته . وسيكون هذا السد من الغش والخداع ابدا بينهما دائما . وفوق ذلك كانت كارثة وفاة دورا قد ملأت فكره بحيث لم يستطع ان يدرك أية فائدة يجنيها من وراء موتها اذا كانت هناك فوائد . وفي الواقع كانت نفسه متأثرة بموتها فلم يفكر عما يأتي به الغد

ثم اذا فرض وامسكت مسز دار لنج لسانها فان ضيعت افرسفيلد تفلت من يده تماماً لانه اذا افشى سره وقال انه على قيد الحياة فان موغيه تظن انه انما سافر الى انجلترا ليقتل دورا وليكون حراً يستطيع الزواج بغيرها

وكذا اذا فرض وفر الان من يد القانون فانه لا يستطيع الزواج

بموعيه الا اذا جملها وجعل نفسه عرضة لخطر الفضيحة والعار في المستقبل

تولاه اليأس والقنوط فأخذ يذهب ويجيء في غرفته وهو يغمض عينيه تارة لكي يخفى صورة دورا ويضحك ضحكا عالياً كرجل مجنون تارة اخرى

أخيراً استقر رأيه على ان يغادر انجلترا صباح هذا اليوم نفسه وان يعود الى قبرص او الى مصر او الى اي مكان آخر اذ يحتمل أن تكون مسز دار لنج قد ابلغت البوليس ولكن لحسن الحظ لا يعرف احد عنوانه ولا يعرفون اسم ايستون . على أنهم سيراقبون الموانىء فاذا تأخر فانه يحتمل ان يقبض عليه

اسرع جان لحزم حقيبته ثم دق الجرس ليدفع حسابه ولم تمض مدة وجيزة حتى اقلته عربة الى المحطة وهو رث الهيئة ، تخفى قبعته عينيه . وكان قد وصل الى المحطة قبل قيام القطار بمدة طويلة فكان قلبه يدق دقات شديدة كلما احدق اليه النظر احد من المارة اثناء انتظاره

شعر جان بارتياح شديد في آخر النهار عند ما وجد نفسه في باريس دون ان يتعرض له احد على انه لم يأمن على نفسه بالمقام فيها فبات طول ليلته مسافراً الى أن وصل في مساء اليوم التالي الى مارسليا حيث نزل بفندق نزل فيه من قبل باسم ايستون فابلغ صاحب الفندق انه وصل تواً من ايطاليا

بات جان ليلته وفي الصباح بحث عن البواخر المسافرة الى الشرق فارتاحت نفسه عند ما علم ان باخرة فرنسوية ستبحر الى الاسكندرية بعد ساعات قليلة فاشترى تذكرة السفر دون مشقة وبعد ان تحمل

شيئاً من الاضطراب والقلق في الميناء وجد نفسه ثانية على ظهر الباخرة وقد خلف الغرب وما فيه من الويلات وراءه واستقبل الشرق بما فيه من الحياة الجديدة والاماني

أخيراً وصل جان صباح ذات يوم الى مصر — هارب من وجه القانون — متوتر الاعصاب ، ممتقع الوجه زائغ العينين . يتلهف قلبه الى لقاء مونيميه والقاء عبئه اليها واكتساب العزاء من حديثها والتمتع بتمليس يديها اللتين تبعثان الى القلب الهدوء والطمأنينة مثل يد الام لم يشعر فى حياته المستقلة برغبة شديدة في عطف غيره عليه مثل الان ومع ذلك كان عليه الان أن يحبس متاعبه فى قلبه ويتحمل عبئه بنفسه

أراد أن يكتب اليها في فندق « ميناهوس » حيث تقيم ويقول لها ... يقول لها ماذا ؟ انه لا يستطيع العيش بدونها وانه عاد اليها بعد أن قضى بضعة أيام قليلة في انكلترا وان في يدها مفاتيح سمائه وانه يعيش بعيداً عنها فى ظلمة حالكة . ثم ينتظر جوابها هنا في الاسكندرية فاذا ما أتاه الرد يكون قد استرد توازنه

وكان جان يعلم ان سلامته في كتمان حقيقته والاستمرار على الظهور باسم جان ايستون وعلى ذلك ذهب الى الفندق الذي نزل به فى المرة السابقة وأبلغ صاحبته انه قدم من قبرص

وكان بعض الصحف الانكليزية قد وصلت الى مصر من طريق أقصر من الطريق الذي وصل منه وعلى ذلك حملت أنباء اليوم التالى لسفره من انكلترا عن « جريمة افرسفيلد » فلما انتهى من قراءتها تنفس الصعداء وارتاحت نفسه اذ علم ان البوليس وجه التهمة الى حنه

بونس صاحبة المنزل الذي يقطن فيه المستر جورج مريفال وقبض عليها

قرأ جان بعد ذلك الصحف المحلية الاخيرة التي تنشر التلغرافات المرسلة من انكلترا فعلم منها ان الادلة التي قامت ضد المرأة قوية بحيث تقررت محاكمتها . فذكر جان اذ ذاك ما أخبره به الضحاك عن غيرة هذه المرأة الشديدة من دورا فمن المحتمل أن تكون قد اقتفت أثر جورج مريفال في ذاك اليوم وانتقمت لنفسها من دورا

اذن لم تبلغ مسز دارلنج البوليس ؟ لا ريب في أنها علمت بجريمة المرأة التي قتلت ابنتها قبل أن يكون لديها متسع من الوقت انه ليس ثمة فائدة من افشاء سره واعلان حياته ما دام انه ليس القاتل . ومن المحتمل أيضاً انها رأت فائدة مالية في كتمان السر لأنها أقرب الناس الى دورا والوارثة لها وخيل اليها انها تخاطبه قائلة

ــ خير لك أن تكتم سر حياتك يا ولدي وأن تبقى ميتاً في زعم الناس وأن لا تدعي امتلاك المزرعة واذا فعلت قدمتك الى المحاكمة متهماً بجريمة القتل سواء ارتكبتها أو لم ترتكبها

اذن صار جان حراً طليقاً !

أراد أن يصيح بهذا النبأ السار في أركان العالم الاربعة . انه حر الآن يستطيع الذهاب الى مونميه ويطلب اليها الزواج به . وليس عليه الا أن يكتم حقيقته مدة قصيرة حتى تنال حنه بونس جزاء ما جنت يداها وبعدها يستطيع أن يعين لمسز دارلنج مرتباً سنويا تتقاضاه واذا اماتم كل ذلك وعادت المزرعة اليه ، حانت الفرصة لكي يبلغ مونميه كل شيء أخفاه عنها فتدرك حقيقة موقفه وتعفو عنه واذ ذاك يصير في وسعها تحقيق ذاك الحلم فيعيشان على شاطيء البحر المتوسط

ويتنقلان فى ارجاء العالم حيث يشاءان

رأى جان ان حبال الشرك الذى وقع فيه واهية فرفع رأسه عالياً واطمأن قلبه وهدأت خطواته ورأى انه لا يستطيع أن يتأخر لحظة عن الالتحاق بموعيه وفعلا أعلن رغبته في السفر لصاحبة الفندق ولم تمض نصف ساعة حتى غادر الفندق ومن فيه

وصل جان الى القاهرة في عصر يوم من تلك الأيام الدافئة الجميلة التى تتمتع بها مصر في بداية الشتاء ولم تمض مدة وجيزة حتى ركب الترام الى فندق ميناهوس مجتازاً ذاك الشارع الطويل الجميل المظلل بالاشجار الذى يصل بين القاهرة والاهرام حيث يوجد الفندق فى نهايته عند سفح الاكمة الصخرية القائمة عند طرف الصحراء

وصل جان الى الفندق فقيل له ان موعيه في بقعة تبعد نصف ميل في الجهة الشمالية الغربية من الفندق حيث ضربت خيمتها هناك . وأخذت تشتغل بالتصوير . ولم يكن جان فى حالة فكرية تساعده على الانتظار ريثما تعود فى المساء فسار فى الحال ليبحث عنها دون أن يرى الغرفة التى استأجرها في الفندق

أسرع جان الخطايين احراج النخيل المتربة الواقعة خلف الفندق ثم أخذ يتسلق المنحدر الرملى الواقع وراءه فلما بلغ قمته رأى الخيمة قائمة على مسافة قريبة منه فأطلق ساقيه للريح وأخذ يتعثر بين الصخور والرمال مثل أسير أطلق سراحه

تسلق جان بعد بضع دقائق ربوة صغيرة أخرى فوجد نفسه خلف الخيمة حيث التقي به صبي كان جالساً على الرمل فأبلغه أن السيدة جالسه عند باب الخيمة من الناحية الأخرى

هرع جان الى الامام وقلبه يدق بشدة وفي لحظة وجيزة وجد نفسه مع موغيه وجهاً لوجه

القت موغيه فرشة التصوير ولوحة الرسم ثم صاحت دهشة قائلة

ـ جان . زعمت انك في انكلترا

فضحك جان وقال

نعم كنت هناك . لم امكث بها غير يومين وبعدها ... غادرتها

لم يستطع جان أن يكبح جماح عواطفه فصاح قائلا

ـ أواه . يا موغيه

ثم طوقها بذراعيه وأخذ يقبل وجها ويديها . فأظهرت شيئاً من التردد ولكن ثغرها كان يبتسم ولم يلبث أن شعر بارتخاء أطرافها وسمع تردد أنفاسها ورأى غموض عينيها وهي العلامات التي يعرف العالم انها دليل على خضوع المرأة واستسلامها

لم يدر بينهما شيء من الحديث اذن بل تعانقا وتعلق كل منهما بالآخر وقد خيلا اليهما انهما تعلقا بين المادة والروح فى حين كانت الشمس تختفى وراء التلال لكي تغادرهما فى أرض غير هذه الارض وفي سماء غير هذه السماء

أخيراً لما ابتعد كل منهما عن الآخر وقد تملكتهما الحيرة والذهول شعرا كانما تغيرت حياتيهما تغييراً لا مرد له فأخذ كلاهما يحدق النظر فى وجه الاخر بعينين رائقتين لا تحجبان خلفهما شيئاً . وفي الواقع قامت يد الطبيعة المدهشة بمعجزة قصيرة دمها من دمه ولحمها من لحمه وعظمها من عظمه وصار الاثنان جسما واحداً وروحاً واحدة

قامت موغيه ووضعت أدوات التصوير فى المكان الخاص بها بكل

هدوء ومن تلقاء نفسها ثم عادت اليه وهو واقف يحدق النظر اليها بشغف وذهول فطوقت عنقه بذراعيها ثم قبلته وهمست قائلة

ـ لم أعرف . حتى بعدت عني ، انني جزء منك روحا وجسما

فضحك جان ابتهاجاً وقال

ـ غداً اذهب الى القنصلية وأعلنهم بأمر زواجنا

فهزت مونيه رأسها بهدوء ثم ابتسمت وقالت

ـ نعم . أظن انه ليس هناك وقت للقيام بهذه المهمة اليوم

كانت الشمس قد احتجبت وراء الاهرامات عندما عادا الى الفندق وقد تأبط كل منهم ذراع الآخر . وبينما كانا سائرين تحول الى مونيه وسألها قائلا

ـ اخبريني . هل لا يزال في نفسك ريب ؟

ـ كلا . لم يعد لدي شيء من ذلك لقد ارتبطنا معاً الى النهاية ، هذه ارادة القدر

شعر جان بسعادة لا تقدر في خلال الاسابيع الثلاثة التي لا بد أن تنقضي بموجب القانون القنصلي قبل أن يعقدا زواجهما . فكانت البادية برمالها الشاسعة المترامية وتلالها المنخفضة تهز عواطفه مثل قصة لذيذة لا نهاية لها أو مثل أغنية شجية تسبح الروح مع الفاظها العذبة وتحلق في الفضاء

وكان يغادر الفندق كل يوم مع مونيه فيصل معها الى الخيمة وهناك يتركها ثم يتوغل وحده وسط البادية الى أن يعود وقت الظهر لكي يتناول الطعام معها ثم يعود الى جولاته في البادية ثانية ويرجع اليها في المساء ليعود معها الى الفندق وقت الغروب . وكانت في كثير

من الاحيان تمر التصوير فيركب الاثنان الابل ويجتازان الاودية الهادئة والتلال ويتحدثان معاً ويرسلان صدى ضحكهما بين الصخور

رأى جان ان حياته هذه حياة نزهل وكسل يقضيها متنقلا تحت شمس الشتاء الجميلة . متمتعاً بحبهما الغزير لا يقلق باله شيء . وفي الواقع قرأ في الصحف ان محاكمة حنه بوتس المتهمة بقتل زوجته تأجلت الى شهر مارس فاطمأنت نفسه وعاد الى عادته القديمة ونعى بها العيش فى معزل عن العالم فلم يكبد نفسه مشقة حتى مطالعة الصحف . ولاعجب فقد طالع عليه فجر حياة جديدة واستطاع أن ينسى حوادث الحاضر

أخيراً تلقت موغيه أمراً بالسفر الي أبو سنبل في بلاد النوبة لكي تصور مناظر الهيكل هناك وعلى ذلك استقر الرأي على السفر الى هناك فى الحال على أثر زواجهما وفي ذاك الوقت تكون قد فرغت من رسم المناظر التى تشتغل الان برسمها حول الاهرامات

جاء اليوم العظيم فركبا سيارة الى القاهرة حيث كتب صك زواجهما فى القنصلية فى عشر دقائق ذهبا بعدها الى الكنيسة الانكليزية حيث اجريت الحفلة الدينية في سكون وهدوء . وفى تلك الليلة ركبا احدى عربات النوم فى قطار الأقصر . وفى اليوم التالى واصلا السفر الى حدود بلاد النوبة حيث ينتهي بالخط الحديدى وعلى ذلك تعين عليهما أن يقوما ببقية الرحلة بطريق النهر

وكانت « الذهبية » التى استأجراها تنتظرهما عند الشلال مقابل قصر « أنس الوجود » واتفق أن التقى جان بضابط مصري هناك كان على صلة معه يوم كان يشتغل في مناجم الذهب فسهل لهما أمر السفر ولم تكن السفينة كبيرة غير انها كانت تحتوي على وسائل الراحة

الكافية فكان بها صالون وعر ضيق يؤدى الى حمام صغير وغرفة متوسطة للنوم . في حين كان على ظهرها عنبر للبحارة ومكان فسيح اسدلت عليه الستائر من الجانبين

وكانت أبو سنبل تبعد عن الشلال الاول مسافة مئة وسبعين ميلا جنوبا قطعتها السفينة في خمسة أيام كانت تسير فيها من الفجر الفضي الى غروب الشمس الذهبي وتلقى مرساها كل ليلة تحت قبة السماء المتلألئة

انقضت الايام الخمسة بسرعة البرق ولا عجب فقد كان منظر الارض حولها بديعاً زاد في سعادتهما وغبطتهما بحيث مرت الساعات الطويلة كحلم من الأحلام القصيرة اللذيذة

مرت السفينة في طريقها بأحراج كثيفة هادئة من النخيل ، وبأكوام من الرمل الاصفر ، وبمعابد وهيا كل منعزلة ، من الهيا كل التي شيدت في عهد الفراعنة ، وبقرى صغيرة على شاطىء النهر وبمزارع عديدة واكواخ الى أن رست ذات ليلة أمام معبد أبي سنبل فاستيقظ جان وموغيه عند الفجر فرأيا من نافذة عنبر السفينة تماثيل رعمسيس الأربعة الضخمة وهي تحدق النظر نحو سفينتهما الصغيرة في ضوء الفجر

وكانت هذه التماثيل العظيمة التي ترتفع ستين قدما أو أكثر منحوتة من وجه الاكمة وعلى وصف واحد كل اثنين منها على جانبي المدخل المؤدي الي القيعان الواسعة التي قدت داخل الصخر

وكانت أعين التماثيل الجامدة تحدق النظر نحو الشرق ، ثم شفاهها عن شبه ابتسامة وأيديها على ركبها وقد بدت في ضوء الصبح الضئيل مثل أشباح القضاء الساكنة الهادئة التي تدرى ما سيأتي به النهار من خير أو شر

قام جان وموغيه من فراشهما مدفوعين بعامل واحد فارتديا ثيابهما بسرعة ثم هرعا الى الطريق الرملي المؤدى الى الهيكل لكي يريا الشمس عند شروقها وهي ترسل أشعتها الى تلك الأعين الجامدة

لم يطل انتظارهما حتي خيل اليهما أن روح الحياة الداخلية دبت في تلك التماثيل وحولت الصخور الجامدة التي نحتت منها الى لحم ودم وأنها لبثت ثوب الحياة عند شروق الشمس . وفى الواقع خيل اليهما أن أعينها تبتسم وأن شفاهها تفتح وأنوفها تنتفخ . فقبضت موغيه على ذراع جان وقالت

ــ ستتكلم . ستقوم من عروشها الاربعة

وقف الاثنان جامدان يحدقان النظر الى الوجوه الضخمة فوقها ولكن المعجزة لم تلبث أن انتهت فقد أرسلت الشمس أشعتها من خلف التلال الشرقية فصادت التماثيل الهائلة فى أشعتها الساطعة الى جمودها الاول فتنتظر الى أن تأتى تلك اللحظة ثانية التى تدب فيها اليها الحياة

الفصل التاسع عشر

غرام في البادية

كانت « الذهبية » ترسل أثناء النهار الى نقطة قريبة جنوب الصخرة التى قد الهيكل منها حيث ترسو فى جزء صغير من البحر يحجبها عن أعين السياح الذين يأتون الى البر من الباخرة النيلية التى تحملهم الى هناك كل اسبوع وكانت هنا منحدرات من الرمال يعلوها أشجار النخيل والاشجار وراءها آكام شديدة الانحدار . وفى الناحية الاخرى يمتد النهر الى الشاطىء الاخر حيث توجد أكواخ قرية فريق بين الاشجار المفروشة فى سفح التلال

وكان المكان شديد الحر والشمس ترسل أشعتها من سماء صافيـة الى السفينة ولكن الستائر الملونة كانت تقى ظهرها من الشمس فى حين كانت الرياح الباردة تهب فتلطف حرارة الجو أثناء النهار

أما في الليل فكان ضوء القمر والنجوم ينبعث من السماء وينعكس من سطح الماء الرائق فكانت السفينة تبدو كأنها سابحة في الهواء تجرى الكواكب من فوقها ومن تحتها

كان المكان منعزلا عن بقية العـالم اذا استثنينا الزيارات القصيرة التى يقوم بها السياح كل اسبوع . وفي الواقع كان مكانا للذكريات حيث يمكن القول بان « حاتحور » الهة الحب وصاحبة السيادة على هذه التلال لا تزال تتطلع بعينيها من ظلال الصخور بعينين واسعتين

وهذه المعبودة من بين جميع الاصنـام التى عبدها البشر أقوى

الجميع سلطانا على قلب الرجل ولما كان جان قد درس من قبل شيئاً عن عبادة المصريين القدماء فقد رأى أن يد القدر قد دفعت به الى هذه المنطقة ليكرس نفسه لهذه المعبودة التى تتمثل فيها تلك الصفات التى يعبدها في مونيه

ولا عجب فان عبادة « حات حور » مع المعبودة ايزيس امتدت الى روما . وكانت هذه المعبودة تستقبل هنا في « أبو سنبل » أشعة الشمس عند غروبها وتتلقاها بين ذراعيها المقدستين وتضمها الى أحضانها في حين تعد في نظر الاحياء سيدة الحب والضحك ، وهي الروح الرئيسية فى كل زواج والمربية الوديعة عند ولادة كل طفل ، وعلى صدرها يلقى كل راحل من العالم رأسه عند مغادرة الحياة

فضي جان أيامه السعيدة هنا في هذه المنطقة البديعة التي جمعت بين الصخور الصفراء والرمال الذهبية والاشجار الخضراء والمياه الصافية تحت السماء اللازوردية

وكان يشتغل تارة بنظم الاشعار وأخرى بالتنقل فوق الهضاب يصفر ويغنى ، وتارة يجلس في ظل تلك التماثيل الضخمة يمتع ناظريه بجمال مونيه وهي تشتغل بالتصوير

والظاهر أن تأثير المعبودة العظيمة أخذ يظهر في قلبيهما لان حبهما كان يشتد ويقوى يوماً بعد يوم ويبنى داخلهما معابد وهياكل . وكثيراً ما كانا يجلسان جنبا الى جنب يتحدثان عن مستقبلهما . ويقول جان في نفسه أنه لا تمضي مدة طويلة حتى يصير في وسعه أن يبوح لمونيه بكل شيء عن حقيقة اسمه ومركزه وأن يخبرها أنه يضمن لاولادها دخلا واملاكا

ان الحب نوع من العوامل التى تحيي في النفس جمال الطبيعة والظاهر أن قلب جان تفتح في هذه الايام اللذيذة السعيدة فصار يدرك شيئاً كثيراً من عجائب الخلق لم يكن يعرفها من قبل

وتبدو أراضي بلاد النوبة في فصـل الشتاء بمظهر بديع ويروق الجو بحيث يخيل الى الناظر اليه أنه ينظر الى مكان فسيح مرصع بالجواهر المتلألئة والاحجار الخضراء والزرقاء التي تبهر الانظار

كانت عينا جان تقعان أينما حول وجهه على مشهد طبيعي يأخـذ يملك مشاعره وحواسه . وكان يستلقي فى بعض الأحيان على وجهه فيتملك العجب نفسه من الأحجار البديعة المختلفة الالوان التى يراها مختلطة بعضها ببعض بين الرمال

على أنه كان يعود في النهاية الى مونسيه ، الى « حات حور » الرئيسة التى هي منبع كل هذه السعادة التي يشعر بها . فكان في ضوء النهار يراقبها وهى تسير في ضوء الشمس يداعب النسيم ثوبها الجميل أو عندما تسير الى جانبه وهي تضحك في طريقها الى الهيكل أو عنـد ما تجري معه ويد أحدهما فى يد الآخر على طول شاطيء النيل بعد الاستحمام وقد تركت شعرها الاسود الجميل يتدلى حول منكبيها

وكان في الليـل يراقبها وهي واقفة فى ضوء النجوم مثل روح غريبة من أرواح هـذا المكان العتيق ، أو عند خروجها من قيعان الهيكل المظلمة مثل المعبودة نفسها وهي تسير نحوه بخفة فى ضوء القمر وقد مدت اليه ذراعيها البيضاوين وعلى ثغرها ابتسامة ذاك الحب الذى لايفنى . وكذا كان يراها وهى نائمة الي جانبه فى ضوء الغرفة الضئيل ،

تعكس عيناها لمعان النجوم ، وتصل كلماته الخافتة اليه في الظلام

ليس من السهل اختيارها لحادث معين من الحوادث التى وقعت في خلال هذه الايام السعيدة التي يقضيانها الان في البادية ومع ذلك لم يكن هنالك خمول أو كسل أو ضيق أو شيء من العوامل التي كانت تضايقه أثناء وجوده فى أفرسفيلد

حدث بعد ظهر ذات يوم أن كان الاثنان يسيران معاً فوق الربوات الرملية في بقعة كان يستخدمها الفراعنة مقابر لدفن موتاهم فكانت ترى في هذا المكان حفراً مربعة صغيرة منحوتة عموديا دفنت في قاعها جثث أمراء بلاد النوبة . وقد سلب اللصوص جميع هذه المقابر فى الأزمنة الغابرة بحثاً وراء الآثار الذهبية . على أن أفواهها كانت مفتوحة وقد ملأت الرمال جانباً منها

وقف جان أمام حفرة من هذه الحفر لكي يلقي حجراً . وكانت مونميه في خلال ذلك قد سبقته فهرع جان للحاق بها . على أن أشعة الشمس عند غروبها قد بهرت عينيه فعثرت عند حافة أحد هذه القبور المفتوحة فأمسك بحافته بيأس ولكنه هوي فى الحفرة بعد أن اصطدم رأسه بالجانب الآخر وكان عمقها نحو عشرين قدما

جلس جان فى قاع الحفرة لحظة وهو يشعر بدوار في رأسه ولم يلبث أن شعر بالدم يسيل على وجهه من جرح بين شعر رأسه

نظر جان بعد ذلك الى جوانب القبر الاربعة حوله ثم الى السماء فوقه ولكن لم تمض مدة وجيزة حتى رأي وجه مونميه وهي تطل عليه من الفتحة فوقه ولكي يزيل مخاوفها ضحك وأخبرها أنه لم يصب بأذي وذكر لها كيف وقعت الحادثة

فصاحت مونيه ألماً قائلة

— ولكن الدم يسيل من رأسك . أين منديلك ؟

فضحك وقال

— ليس معي منديل . أعيريني منديلك

فألقت اليه منديلها الصغير فحاول عبثاً أن يمنع به الدم وقال

— الامر بسيط . انه جرح صغير . كيف أستطيع الخروج من هذه الحفرة

ألقت مونيه عليه بضعة أسئلة بقلق ثم فرقت جزءاً من ثوبها والقته اليه لكي يعصب به جرحه فقال جان

— أري أنه لا بد لك من العودة الى السفينة لكي تأتي بحبل ورجل من البحارة ليساعدني على الخروج انني آسف جداً

على أن مونيه لم تتحرك خطوة واحدة حتى وثقت تماما أنه لم يعد في خطر ولما غادرته في النهايه أكدت له أنها ستعود اليه بكل مساعدة ممكنة

مال جان الى جدار المقبرة وهو يشعر بدوار لكثرة ما سال منه من الدم ولما أصابه من الالم الشديد على أنه لاحظ بعد قليل صرصوراً يذهب ويجيء بجانب الحائط باحثاً عن مكان للافلات من السجن الذي سقط فيه كذلك . وقد رأى جان حشرات أخرى جافة فعلم أنها اهلكت جوعا بعد سقوطها في هذه الهوة المروعة

مكث جان ينظر الى الصرصور ويراقب حركاته الى أن عادت مونيه ومعها رجلان من البحارة الوطنيين فأدليا اليه في الحال حبلا ليساعداه على الخروج . على أن مهمة التسلق لم تكن سهلة وهو في حالته هذه من

الضعف والاعياء فجذب نفسه الى فوق بمشقة بعد أن تجرحت أصابعه وجلده

كاد جان يصل الى حافة الحفرة فتذكر فجأة رفيقه الصرصور وتصور آلامه التي يعانيها فقال

ـ انتظروا لحظة . نسيت شيئاً في قاع الحفرة ثم نزل ثانية بمساعدة الحبل الى تحت في حين كانت مونميه تدق يديها فوق

التقطت جان الصرصور ثم وضعه في جيب سترته وشرع ثانية في جذب الحبل بشدة . على أن شدة الضغط فتحت الجرح ثانية فأخذ الدم يسيل ثانية على وجهه وهو يشد الحبل ويتمايل ، والظاهر أن قواه قد غادرته اذ لولا الرجلان اللذان جذباه من جسمه خارجا لسقط في الحفرة ثانية

لم يكد يجد نفسه جالساً على حافة المقبرة حتى اخرج الصرصور من جيبه وارسله في طريقه ثم تحول الى مونميه وكانت قد جثت على الارض فاطاع أمرها ورقد ثم وضع رأسه على ركبتها واذ ذاك شرعت تغسل له جرحه بالماء من قارورة جاءت بها معها لهذا الغرض . وقد ذكرت أيضاً على رغم عجلتها أن تأتي معها بمقص وضماد فقصت الشعر من حول الجرح ثم عصبت رأسه بمهارة فنية عظيمة

ذهب البحاران الى « الذهبية » ولم يكادا يبتعدان حتى مالت مونميه فوق وجهه وأخذت تقبله المرة بعد الاخرى ، ولشدة دهشته شعر بدموعها تتساقط على وجهه فمسح عينيها بظهر يده وسألها فقال

ـ ماذا ؟ ما الخبر ؟ هل سببت لك شيئاً من الخوف ؟

فحاولت أن تبتسم قائلة

ـ كلا . ليس هذا . لقد تأثرت عواطفي عند ما ذكرت عطفك على الصرصور الذي وجدته سجيناً معك

شفي جان من جرحه بعد أيام قليلة بفضل الهواء الجميل في بلاد النوبة في ذاك الفصل من السنة . فكانت رياح الشمال تهب فتدفع من الرأس كل شعور بالم أو وجع . وفي الواقع وجدت مونميه مشقة في حمله على اتباع ارشاداتها ونصائحها الغالية لانه وجد من الطبيعة شافياً لجراحه

كان جان يصعد في بعض الاوقات المرتفعات المجاورة فكانت تعود به أفكاره الى تلك السنين التي قضاها في افرسفيلد فيقارن بين ماعاناه فيها من الخمول الجسمي والروحي وما تكبده من الآلام النفسية المبرحة وبين ما يتمتع به الآن من معنى الحياة الصحيحة

وكانت افكاره كلها تكاد تكون محصورة على ما هو فيه من سعادة وهناء ؛ لايفكر بالمستقبل الا بصفة اجمالية عامة وهكذا سمح لافكاره أن تثب من فوق الهوة المملوءة بالمتاعب التي تعترضه في سبيله ، وتصل الى الاراضي السهلة التي وراءها حيث يسير هو ومونميه جنباً الى جنب

الفصل العشرون

يد القانون

ذهب جان صباح ذات يوم من اواخر شهر يناير الى المكان المظلل الذي اعتادت مونميه الجلوس فيه أمام الهيكل لتشتغل بالرسم فوجدها تخوض فى حديث مع كاهن أشيب اللحية تبدو على وجهه سيما الصلاح والتقوى وامرأة بدينة الجسم هي زوجته على ما يظهر . وكان كلاهما يضع نظارة زرقاء على عينيه ويحمل مظلة بيضاء واسعة مما دل على انهما من السياح

تردد جان عند ما رآهما ولكن مونميه أشارت اليه فذهب فقدمته الى الضيفين . والظاهر أن الكاهن واسمه جونز كان على شيء من الثروة فجاء الى هذه البلاد ترويحا للنفس وا كتسابا لصحة التي تدهورت من كثرة اعماله فى لندن

دعت مونميه الكاهن وزوجته الى الغذاء على ظهر السفينة وكان جان لا يميل فى نفسه الى هذه الدعوة ولكنه اضطر الى تأييد زوجته فألح معها على تلبية الدعوة

تناول الجميع الغذاء على ظهر السفينة ولما شربوا القهوة نزلت مونميه مع امرأة الكاهن الى الغرفة السفلى وغادرتا الرجلين يدخنان على ظهر السفينة

وكان جان فى حالة فكرية هادئة فأخذ يحدث ضيفه المستر جونز عن أسفاره ومخاطراته وقد توخي الحذر طبعاً فلم يذكر له شيئاً عن

السنين الاخيرة التي قضاها في انجلترا . فرد الكاهن عليه في النهاية بما شاهده اثناء حياته قائلا ان الاخلاق الفاسدة والجرائم أخذت تزداد وتكثر لعجز رجال الدين عن القيام بواجبهم كما يجب . واراد أن يستشهد على كلامه فقال

ـ كنت سائراً ذات ليلة في شارع من شوارع لندن الصغيرة المظلمة فرأيت امرأة في مقتبل العمر تدعوني الى منزلها على رغم لباسي دسمى فأردت ان استطلع الخبر وسألتها عما تريد فقالت انها مخطوبة الى شاب فقير لا يمتلك شيئاً لعلنا نريد الحصول على نقود بأية وسيلة كانت فكاد قلبي ينفطر أسى وحزناً وأعطيتها كل ما كان معي من النقود وسرت في طريقي

قال جان في مقعده الى الوراء ثم ضحك وقال :

ـ هذا مثال من اعمال البر التي تشجع على الشر

فقال الكاهن بلهجة الجد

ـ هذا علامة من علامات الساعة . ثم انظر ما قرأناه في الصحف عن الجرائم المروعة الاخيرة . خذ مثلا جريمة افرعنفيلد

كاد قلب جان يقف حركته ثم قال متلعثما

ـ لم أقرأ الصحف اخيراً . لم أسمع ..

ثم خانه صوته فسكت

قال المستر جونز

انها قضية تفتت القلب

ولكن صوته كان في اذنى جان بعيداً مثل زوبعة تدوي على مسافة شاسعة منه

استطرد الكاهن في كلامه فقال

وجدت صاحبة المزرعة وهي شابة في مقتبل العمر قتيلة في غابة علي مقربة من المنزل . وكان البوليس يظن في البداية ان التي قتلتها امرأة تدعي حنه بوتس غيرة منها ولكنها برهنت على براءتها وبعد ذلك اعترفت سيدة تدعى مسز دارلنج وهى والدة القتيلة ان زوج ابنتها ، الذي زعموا أنه مات على قيد الحياة وانه زار زوجته في اليوم الذي ارتكبت فيه الجريمة . والظاهر انه اراد أن يتخلص منها بالطلاق ولكن حدث شيء حمله علي قتلها بدلا من ذلك

وكان رأس جان يدور ولكنه تملك عواطفه وسأله قائلا

ـ ولكن اذا كان مذنباً فلماذا ذهب لمقابلة مسز دارلنج بعد ذلك

فنظر الرجل اليه بسرعة وقال

ـ اذن قرأت شيئاً عن القضية

فلم يجد جان مندوحة من ان يجيبه قائلا

ـ نعم . انني أذكرها الان

فال المستر جونز الى الامام ثم ضرب ركبة مضيفه بلطف وقال

انتبه لكلامي . ان الرجل مجرم سافل فقد هجر زوجته وحمل الناس علي الاعتقاد بانه مات وبعد ذلك عاد الى المزرعة وهو مفلس على ما يظهر ثم قتلها لانها رفضت أن تعطيه نقوداً . وأظن ان بعضهم رآه فاراد أن ينفي ذلك عنه بزيارة حماته

شعر جان انه فقد كل احساس وشعور وخيل اليه انه يسمع كل كلمة قيلت ومع ذلك كان فكره في ثورة وارتباك . في حين جف لسانه فاخذ يضع يده على فمه

أخيراً استجمع قواه وقال

ـ وما رأيك في هذه القضية

فأجابه المستر جونز

ـ سيقبضون عليه في النهاية ولو أن كتمان مسز دارلنج امره هذه المدة قد ساعده على الفرار . فقد نشرت جميع الصحف اوصافه ـ فهو اسود الشعر والعينين ، حليق الذقن ، لفحت الشمس وجهه ، متوسط الجسم طوله خمس اقدام وعشر بوصات ...

فتظاهر جان بالضحك وقال

ـ ان هذه الأوصاف تنطبق علي

ـ نعم .. ولكن ثق انهم سيقبضون عليه قريباً

اضطرب قلب جان ثانية وأراد القيام من مقعده ليفر من السفينة اذ خيل اليه ان اضطرابه ظاهر في عيني ضيفه . وكان على وشك أن يحدث حركة يضع بها حداً لهذا الحديث ولكن جاءت مونميه من الغرفة السفلى اذ ذاك وطلبت الى المستر جونز أن يرافقها لكي تريه شيئاً من تصويرها فقام الكاهن في الحال اجابة لطلبها وعلى أثر ذلك وثب جان من مقعده ثم أمسك بالمنضدة التي أمامه وأخذ يحدق النظر بعينين زائغتين نحو المنحدرات الرملية الذهبية التي كانت ترى من خلال الستائر .

جاءته مونميه عندما نزل الكاهن الى تحت وقالت

ـ ياجان أرى . علي وجهك دلائل السقم ياعزيزي هل تشعر بشيء ؟

فحاول أن يضحك وقال بلهجة شديدة

ـ كلا : لماذا تظنين ذلك ؟ اني بخير فقط اشعر بسآمة من ضيفك

هذا الثقيل

فوضعت يدها على منكبه برفق ثم قبلته على انها لم تلبث ان ارتدت الي الوراء ووقفت تنظر الى وجهه بقلق ثم قالت

- انك مريض . ان جبينك يتقد حرارة لقد مشيت في الشمس عارى الرأس . انك مهمل جداً يا جان

خارت قواه عنيهة واخذ جسمه يترنح قليلا وهو واقف ثم قال

- قلت لك اني بخير . اذهبي وارِيهما تصويرك

على ان مونميه لم تستطع كبح عواطفها فصاحت قائلة

- أي عزيزى . انك مصاب بحمي . يجب أن تذهب الى فراشك . سأتخلص منهما حالا فأخبرهما أنك متوعك ...

فقاطعها قائلا :

- كلا . كلا . لا تقولي شيئاً . اؤكد لك أن الأمر بسيط جداً وانني سأتعافى بعد قليل . سأجلس هنا منفرداً .

ثم دفعها بعيداً وحملها على مغادرته . ثم هرع الى اناء الماء وفتح زجاجة من الوسكي وصب كأساً كبيرة تجرعها مرة واحدة . ولم يلبث أن شعر بشيء من قوته تعود اليه فأخذ يتمشى ذهاباً وجيئة على ظهر السفينة ، يحدق النظر الى الصحراء بعينين لا تريان شيئاً الى أن عادت مونميه مع ضيفيها

أراد جان أن لا يظهر أمام المستر جونز وزوجته بمظهر القلق والارتباك فأخذ يتكلم بسرعة في مواضيع لا علاقة لاحدها بالآخر ولكنه تنفس الصعداء عند ما مد الضيفان يديهما لمصافحته وسارا الي سفينتهما

اجتهد جان على أثر ذلك أن يزيل قلق مونغيه وقد نجح في ذلك، على أنه غادر «الذهبية» بعد ذهاب مونغيه الى الهيكل للتصوير كعادتها وسار الى الاكام الرملية المرتفعة وهناك ألقى نفسه حيث لا يراه أحد غير النسور ولا يسمع تأوهاته مخلوق

استطاع جان في الأيام التي جاءت بعد ذلك أن يكبح جماع عواطفه بحيث لم يثر قلق زوجته ولكنه كان يلاحظ من وقت الى آخر انها تلاحظ على وجهه شيئاً من الارتباك ولا عجب فقد كانت التعاسة البشرية تبلغ أشدها في تلك الأوقات والعبء الذي على قلبه وعقله ثقيلا لا يحتمل

لم يكن خوفه على نفسه هو الذي بعث الرعب فى جميع أعصابه وجميع أوردة جسمه وانما هي الفكرة بأنه لا يستطيع أن يحول بين مونغيه وبين وقوعها فى الكارثة وان هذا لا يلحق بها العار فقط بل سينفر قلبها منه وقد أدرك الآن هول الغلطة التي ارتكبها بكتمانه الحقيقة عن مونغيه وأخذ يردد في نفسه ماذا يكون حال مونغيه يا ترى عند ما تقف على الحقائق؟ هل تستطيع أن تدرك حقيقة موقفه وتصفح عنه؟ هل الآلام التى ستتحملها بسببه تحول حبها مقتاً له؟

جالت مثل هذه الافكار بفكره فكادت تذهب بعقله، وأوجدت حاجته الى التكتم ومواجهة الحالة بنفسه شعوراً مروعاً بالعزلة القاسية وذكر ما جاء فى الكتب السماوية عن حاجة الرجل الى من يساعده ويعاونه ويشاطره الحياة

ليته يستطيع أن يخبرها الآن وأن يسكب ما في قلبه لها ليرى في عينيها الجميلتين رقة عواطفها . . . ولكنه لم يجرأ على ذلك فلا بد أن

ينزل الى الميدان ويقاتل منفرداً

أخير أخذت تتسرب الى عقله فكرة الانتحار تدريجياً فقال هل يستطيع الآن أن يقضي على حياته بصورة يعتقد الناس بها أنه مات قضاء وقدراً فيدفن جان آستون فى قبره دون أن يلحق اسمه عار . اما جيمس تندرنج وست المتهم بالقتل فلا تكون له أية علاقة بمونميه لا ريب في أن هذا خير حل للمشكلة وهذا هو الطريق الشريف الذى يجب أن يتبع

وجد جان فى هذا العزم وسيلة لتهدئة خاطره واسترداد توازنه الى درجة ما . ان أمامها اسبوعين قبل أن يعودا الى القصر فتصل الامور الى دورها الأخير . وكانت مونميه تريد السفر الى اوروبا بعد فراغها من مهمتها وعلى ذلك ليس ثمة داع الى وضع حد لحياته الى أن تمتد له يد القانون . أنه هنا فى « أبوسمبل » في مأمن من الرقباء اذا استطاع أن يتحاشى مقابلة السياح الذين يأتون الى زيارة المعبد وعلى ذلك يحتمل جداً أن يصل الى القاهرة أو ربما يركب البحر دون أن يعرفه أحد واذ ذاك يلقي نفسه فى اليم ذات ليلة فيقولون مات قضاء وقدراً وبذا تنتهي حياته بشرف وكرامة

نعم هذا هو الواقع : هذا هو الواجب

ادرك جان لأول مرة فى حياته معنى قوله : « هذا واجبى » وهى الكلمات التي أخذ يكررها مراراً وتكراراً . وقد كان من قبل يسأل نفسه عن معنى هذه الكلمة الغريبة : « واجب » فعرفها الآن حق المعرفة ولا عجب فقد علمها له الحب

وكانت مونميه لحسن الحظ منكبة على التصوير لتفرغ من مهمتها

وعلى ذلك استطاع جان أن يخرج منفرداً الى الصحاري ليقضي بها ساعات طويلة بحجة انه ينظم قصائده الشعرية فكانت الساحات البعيدة الشاسعة تخمد الضجة القوية التي ثارت في رأسه ، وتجولاته المنفردة فوق الرمال الذهبية . والصخور المرتفعة تكتسب نفسه نوعا من الطمأنينة والهدوء يبقى معه عندما تعود موغيه ثانية الى جانبه

على أنه كان يخشى الليل مخافة أن يكشف سره في نومه فكان يقضي ساعات طويلة مستيقظاً في الظلام في حين كانت موغيه تنام نوما هادئاً بجانبه في الفراش دون أن يجرأ على أن يغمض عينيه غير أن تعبه كان يتغلب عليه في بعض الاحيان فتأخذه سنة من النوم يستيقظ بعدها فزعا فتتقلب موغيه اذ ذاك في فراشها أو تتمتم في نومها . وحدث مرة ان قام من نومه فجأة وهو يقول « لست مذنباً » فتملكه الخوف ونظر الى وجهها لكي يتحقق من أنها لم تسمعه على أنها كانت نائمة فألقى رأسه على وسادته ثانية وقد تدفق العرق البارد من جبينه

اراد جان في خلال هذه الأيام التي كان يعدها آخر أيامه على الأرض أن يغرق أحزانه في فيضان حبه فتغلب على موغيه بتيار اعجابه بها وحملها معه وغاص بها في لجة حبه العميقة وكم مرت به ساعات تمنى فيها أن يسلم الروح ورأسه مستند الى صدرها وكم انقضت ساعات خيل اليه فيها أن قوة وجده وغرامه قد رفعتها وهي بين أحضانه الى مستوى النجوم والكواكب ليسبحا معاً في عالم الاحلام ويدورا في الكون الى ان تدق طبول الموت فتدفعهما معاً الى هوة الزمن والفضاء .

على انه كانت بين هذه الساعات اللذيذة فترات اخرى كانت تسود

فيها الكآبة فيلعن نفسه ويصب عليها جام غضبه على الاغلاط التي ارتكبها ويثور في وجه الانسان والله قائلا

ــ كم امقت نفسي. ان الحياة مثل سجن تحبس فيه مع ألد أعدائك

وكان يقف في بعض الاحيان فوق قمم الصخور التي تحيط بالهيكل فيلوح بقبضة يده الى السماء الزرقاء أو يضع ذراعيه على صدره ويحدق النظر الي مياه النيل أمامه ويرفس برجله قطع الاحجار الصغيرة فتنحدر علي جوانب الصخور

وكثيراً ما كان يلتجيء أيضاً الى قيثارته فيجلس على شاطيء النهر أو تحت ظل احدى الاشجار ثم يوقع على أوتارها ويغني أغانيه القديمة وقد مال برأسه على قيثارته وتدلى شعره الاسود فوق جبينه

أخذت الفترات التي كانت تتولاه فيها الكآبة تزداد كلما قرب يوم سفرهما وكان يلاحظ أن عيني زوجته القلقتين لا تتحولان عن النظر اليه دائما في حين سألته اكثر من مرة عن صحته وقد أرته المرآة ما كان يبدو على وجهه من الكآبة فكان يجلس دائماً بحيث كان يولي ظهره نحو النور فلا تستطيع موغيه أن ترى شيئاً جلياً على وجهه

أخيراً حانت الساعة الرهيبة وظهر الرقاص الصغير الذي أتى ليقطر الذهبية ولم تمض مدة وجيزة حتى شرع يسير بسفينتهما شمالا وهما جالسان على ظهرها يتناولان طعام الفطور

قضى جان معظم اليومين التي استغرقتهما الرحلة الى الشلال الاول ينظر الى شاطيء النهر بخمول وتكاسل ولكن لما بلغت السفينة بهما الى الشلال الاول استجمع قواه لمواجهة الازمة الاخيرة والظهور بمظهره العادي

لم تقف السفينة بهما فى طريقها ولكن بعد أن باتا آخر ليلة في الذهبية التى رست في جوار المحطة انتقلا مع أمتعتهما الى قطار الصباح فوصل بهما الى الاقصر عند غروب الشمس ولما دخلا الفندق الذى عولا على المبيت فيه أرخى جان قبعته لكى يخفى وجهه ما استطاع من السياح الذين اجتمعوا زمراً في قاعة الفندق ثم أخبر مونميه أنه يشعر بألم فى رأسه وأسرع الى الغرفة التي أعدت لهما

على انه لم يكد يقترب من الباب حتى نزل به القضاء اذ فتح باب على مقربة من غرفته خرجت منه مسز دارلنج بجسمها الضخم والتقت به وجهاً لوجه فى نور الكهرباء الساطع

وقع نظره عليها فانتفض جسمه كما انتفض جسمها كذلك عند رؤيته وحملقت عيناها دهشة فاندفع داخل غرفته وهو يلهث ثم دفع الباب خلفه بعنف

وكانت مونميه قد سبقته الى الغرفة وكانت تولى نحوه ظهرها عند ما دخل يترنح والقي نفسه على مقعد خائر القوى ممتقع الوجه فلم تنظر ناحيته فى تلك اللحظة لاشتغالها بترتيب الامتعة . على انها لما تحولت أخيراً كان قد أفاق تقريباً من قوة الصدمة الاولى فلم تر غير رجل تبدو عليه علامات التعب يمسح عرقه بمنديله

الفصل الحادي والعشرون

الصدمة الاخيرة

قرع جرس الطعام فاعتذر جان لزوجته قائلا أنه مريض وأنه لا يريد أن يستبدل ثيابه وينزل الى تحت . وقد جره جنونه الي الاعتقاد هنيهة بأنه يستطيع أن يواجه مسز دارلنج غير هياب ولا وجل وينكر أنه كان زوج ابنتها وأن يقول لها

— ان اسمي ايستون أيتها السيدة ؛ وفي وسع صاحب الفندق أن يخبرك أنه يعرفني منذ خمس سنوات بهذا الاسم

وهي حقيقة لا نزاع فيها لانه أقام بهذا الفندق قبل ذهابه الى مناجم الذهب في الصحراء ولكن لما كان الوقت قد حاز الان رأي جان أن هذا قول هراء وأنه يجب أن يذهب بأية وسيلة بعيداً ويضع حداً لحياته . ولم يكن جباناً يهاب الموت ولكنه كان يشفق علي نفسه من الاسر وذل الوقوف أمام القضاء ثم الصعود فوق المشنقة

لم يستطع أن يخفي ما أصابه عن زوجته تماماً فنظرت اليه بعينين ملؤهما القلق والخوف وقالت

— ما ذا أصابك يا جان ؛ ان في فكرك أمراً مروعا يقلق بالك لا تريد أن تخبرني عنه

فأسرع جان الى الانكار قائلا

ـ كلا ليس هناك شيء من ذلك . ثقي أن ليس ثمة شيء مطلقاً

انكر جان كل شيء بتاتاً لانه أدرك أن في افشاء سره ما يجر

احتقارها له وربما قتل حبها له ولا عجب فقد كان خوفه من فقد حبها
دونه مايخشاه

أخذت مونميه تغريه قائلة

ـ هيا بنا نتناول العشاء ياعزيزى . انه يفيدك ويكسبك قوة

ثم مالت نحوه وأخذت تنظر اليه وهو جالس على حافة الفراش يحلق
ببصره بنراش أرض الغرفة وهو مطرق الى الارض بعينين ذائغتين متوهجتين
بالخوف والهلع

عادت مونميه الى الكلام فقالت

ـ هل تخشى مقابلة أحد لاتريد رؤيته ؟ أليس كذلك ؟

كادت دقات قلبه تقف هنيهة وهو يحاول انكار قولها هذا اذ رأى
عينيها بدأت تخمن وترتاب

لم يستطع جان أن يواجه نظراتها فقال

ـ حسن . سأنزل . ربما أجد فى ذلك فائدة كما تقولين

وكانت أزمة الخوف والهلع أخذت تمر واستقر رأيه الآن على أن
لايقبض عليه أحد فقال

ـ انزلي ياعزيزتي وسأتبعك بعد قليل

فطوقته بذراعيها ثم قبلته ومسحت جبينه الملتهب بيدها الباردة ثم
همست فى أذنه قائلة

ـ مهما كان السر فى خوفك وارتيابك كن فاذكر دائماً أنني أحبك
وأنني سأذهب الى قبرى وقلبى مفعم بحبك ـ بحبك دون سواك

أغمض جان اذ ذاك عينيه ثم ألقي رأسه على صدرها هنيهة مثل

طفل أنهكه التعب . وفي تلك اللحظة القصيرة نسى متاعب الحياة وذهبت عنه جميع الآمال والاحلام وتمنى في هذه الورطة أن يقيم حجابا بينه وبين العالم وأن يحصل ولو لحظة قصيرة على نعمة نسيان الحقيقة المروعة

لم تكد تغلق مونميه الباب خلفها حتى ذهب جان الى حقيبته وأخرج مسدسه ثم حشاه بالرصاص ودسه في جيبه . وكان غرضه أن يظهر بأنه مات قضاء وقدراً ولكن لما كانت الفرصة قد أفلتت منه فلا بد من أن يلهب رأسه بالرصاص . وفي الواقع تمتم في نفسه قائلا

ـ ان بدويا مثله لا يؤخذ حياً على كل حال وابن البوادي الواسعة لا يؤسر

وقف جان متردداً عند باب الغرفة والعرق يتصبب من جبينه . على أنه لم يلبث أن استجمع قواه ونزل . وكانت مونميه على مسافة ليست بعيدة أمامه فلما وصل الى الزاوية الاخيرة من السلم المؤدي الى القاعة وقفت تنتظره

رآها واقفة أمامه تحت ثريا كبيرة من الانوار الساطعة بشعرها الاسود الجميل ووجها المليح وهي تبتسم في وجهه تشجيعاً له . على أنه رأى في الوقت نفسه جماعة من الرجال ملتفين حوله مكتب مدير الفندق فأدرك أن الازمة قد حلت

رأي جان أمامه مسز دارلنج لا تزال بثياب النهار والى جانبها القنصل البريطاني ، وكان يعرفه من قبل ، والى الجانب الآخر ضابط مصري وصاحب الفندق الذي كان ينظر الى جندي من رجال البوليس يحرس المدخل العام وكانت مسز دار لنج قد أبلغت للبوليس بلا مراء عند وقع نظرها على جان فأبلغ البوليس الامر الى القنصل وجاؤا به

لم يكد يظهر جان عند نهاية السلم حتى قبضت مسز دارلنج على ذراع القنصل ومدت أصبعها نحو جان وصاحت قائلة

هاهو . هذا هو الرجل

رأي جان مونيه تدور بجسمها وتواجههم . ورأى ضابط البوليس يضع يده فى منطقته ويتحول نحو القنصل لكي يتلقى منه تعلياته — فاتقدت نيران غضبه بسرعة كما تتقد النار بالهشيم وشهر مسدسه في وجوههم ثم صاح قائلا

ـ ارفعوا أيديكم والا أطلقت عليكم مسدسي

وفي الوقت نفسه نزل من السلم بسرعة وهرع نحوهم الى القاعة مثل وحش ضار، يتدلى شعره الاسود فوق عينيه المتقدتين ووجهه الاصفر

رفع الجميع أيديهم الى فوق فرأي جان وجه مسز دارلنج ممتقعاً وهي واقفة بجانب القنصل تنتفض رعباً

صاحت مونيه وقد حاولت أن تمسك ذراعه قائلة

ـ جان . جان

فقال وهو يلهث

ـ انى برىء . ولكنني لا أسمح لهؤلاء الاوغاد أن يأخذوني حياً

أرهبهم جان بمسدسه الى أن استطاع الوصول الي الحديقة ولم تمض لحظة أخرى حتى وصل الى الطريق في ظلام الليل وأخذ يجري كالمجنون بين أشجار النخيل . وكانت الظلمة شديدة فسار يتعثر وسط الحشائش وهو يسمع الصياح وراءه ولكنه لم يكترث لأن اضطراب فكره جعله لايهتم بشيء

اخيراً وصل الى نقطة فسيحة بعيداً عن محطة السكة الحديدية حيث وجد جوذيا فركب عربته وأمره أن يسير كالريح الى معبد الكرنك فظن

الحوذى أنه سائح يريد مشاهدة الآثار في الليل

وبينما كانت العربة تمايل به فى الطريق كان ينظر الى الخلف من وقت الى آخر لكي يري الذين يطاردونه ولكنه لم ير أثراً لهم ومع ذلك لم يجد في ذلك عزاء وأدرك أن الهرب مستحيل لانه لا يستطيع الافلات سواء من الخفراء أو من السكان اذا التجأ اليهم وفوق ذلك رأى أنه لا يطيق فراق مونغيه أو لا يكون معها على صلة

لم يجد جان مخرجا من المأزق الذي وقع فيه . على أنه وجد فى هربه وسيلة يكتسب بها فترة من الوقت يتأهب فيها للنهاية ولكي يرى مونغيه مرة أخرى اذا استطاع وقد وجد جان أن المحكمين سيصدرون حكمهم بادانته لامحالة لان الدلائل التي تثبت الجريمة عليه قوية وعلى ذلك فخير وسيلة هى أن يقضى على حياته الليله

شرب جان فى تلك اللحظة كأس الشقاء والالآم المبرحة الى آخر قطرة منها . أما الهدوء النسبي الذي شعر به الآن بعد اضطرابه فليس الا هدوء اليأس والقنوط

وعلى ذلك لما وقفت العربة في الظلام أمام المدخل الاكبر لمعبد الكرنك نقد جان الحوذي أجرته ثم تقدم الى الغرفة العتيقة الخاصة بالمعبود أمون وقد صمم في نفسه على أن يبعد عنه مطارديه حتي تسنح له الفرصة بمقابلة مونغيه فيعترف لها بكل شيء ثم يموت بعدها في سلام بعد أن ينال صفحها وغفرانها

ولما كان الحارس الواقف أمام المعبد قد تعود رؤيه الاجانب في مثل هذه الساعات فقد سمح لجان بالدخول وتركه يتجول كما يشاء بين الانقاض والخرائب الواسعة الساكنة

اجتاز جان فناء الهيكل منفرداً وأخذ يتنقل كجسم حقير صغير

بين الاعمدة الضخمة وهنا رفع وجهه الى النجوم الساطعة ومد ذراعيه الى السماء وهو يعاني آلاماً نفسية مبرحة ثم سكب ما في قلبه الى الله وبث حزنه اليه قائلاً

ـ أيها الاله العظيم ، يامن كنت منذ الازل اله التعساء والمستضعفين ورب المساكين ومنكسري القلوب ، انظر الى هذا المخلوق الضعيف الشقي الذي خلقته وملأت قلبه بتلك الاحلام الحلوة اللذيذة التي قضيت عليها الآن ونبذتها جانباً . امنحني يا الهي أمنية واحدة وأجب طلبي هذا الأخير قبل أن آتي اليك وهو أن تهيء لي فرصة التقي فيها بالمرأة التي أحبها لكي أكشف لها قلبي واسألها السماح والمغفرة »

سار جان بعد ذلك فاجتاز المسلة الهائلة ووصل بين الصخور الكبيرة المكدسة أمام المعبد الداخلي . على أن ثورة الغضب تملكته الآن ثانية فاستقر رأيه على أن يلقى مصيره فتحول وعاد الى الفناء وهو مصمم على أن يرى موغيه بأية وسيلة قبل أن يكون وضع القيود في يديه علامة الانتحار الذي لم يعد في وسعه الآن أن يجعله في أعين الناس قضاءاً وقدراً

تمتم جان في نفسه قائلاً

ـ سأنسفهم . سأنسفهم . سأريهم كيف يطاردون الابرياء . سأقتلهم على بكرة أبيهم وبعدها أقتل نفسي

سمع جان فجأة أصواتاً عند مدخل هيكل فأدرك أنهم اقتفوا أثره وان ساعته قد حانت فهرع وسط الظلام الى فناء معبد رعمسيس الثالث القائم في الجانب الجنوبي من الفناء الاكبر للمعبد واختفى هنا

وقف جان في الظلام قابضاً على مسدسه ولم يلبث أن رأى أشباحاً

على نور مصباح تتقدم نحوه . وكان في وسعه أن يسمع أصواتهم بسهولة فصاح قائلا

ـ هأنذا أيها اللئام ؟

وقف الرجال اذ ذاك ورفعوا المصباح فصرخ في وجوههم قائلا

ـ ان مسدسي مصوب نحوكم فلا يتقدم أحد منكم الا اذا كان يريد الموت . هل يدرى أحدكم أين زوجتي ؟

فأتاه صوتها الرائق من وسط الظلام قائلا

ـ انني هنا ياجان . دعني أتقدم اليك

فقال القنصل

ـ لا فائدة . خير لك أن تسلم في الحال انك لاتستطيع الهرب : هل تسمح لي بمخاطبتك

فاجابه جان قائلا

ـ كلا . سأقتل كل من يحاول الاقتراب مني عدا زوجتي دعوني أتحدث معها على انفراد قليلا وبعدها لكم أن تأتوا وتسيروا بي دون أن تجدوا مني مقاومة

وكان الليل شديد البرد فلم يرق في عين القنصل هذا الاقتراح ولذا أمره بحدة أن يسلم وتقدم خطوتين أو ثلاثاً تعزيزاً لقوله على أنه وقف عن التقدم عند ما أبلغه جان بلهجة صريحة ان خطوة واحدة أخرى معناها الموت العاجل

أخيراً لم يجد القنصل مناصاً من الاذعان فقال

ـ حسن . سأعطيك ربع ساعة

ثم اخرج غليونه وتأهب للتدخين فقال جان بحدة

ـ لا بد ان تعطيني المدة التي اريدها . هـذا اذا لم تفضل اهراق الدماء . تعالي يا موغيه فان لدي اشياء كثيرة اريد أن أسرها اليك

فتحملت نحو الرجال وقالت

ـ هل تعدوني بشرفكم أن تدعوه في مأمن مادمنا نتحدث معاً ؟

فوضع القنصل المصباح على الارض واشعل غليونه ثم قال

ـ حسن لك ذلك

هرعت موغيه اذ ذاك الى داخل المعبد ولم تمض لحظة حتى طوقت عنق زوجها بذراعيها وأخـذت شفتاها تدران اليـه كلمات الحب والتشجيع

أخيراً تمتمت قائلة

ـ آواه يا جان . أخبرني كل شيء . انهم يقولون أنك كنت متزوجاً وانك قتلت امرأتك . اخبرني بالحقيقة ولا تكتم عني شيئاً بالله

فقال وهو يلهث

ـ هذا هو السبب الذي طلبت مخاطبتك لاجله . يجب أن تعرفي الحقيقة . لقد تاقت نفسي بعد ان التقيت بك في قبرص الى أن أطلعك على جلية الامر ولكني كنت جباناً لم أقو على مكاشفتك الحقيقة مخافة أن افقدك

ثم مد ذراعه وضرب رأسه بيده

جلست موغيه على احدى الصخور الملقاة على الارض فجثا جان تحت قدميها . وكانت ترتدي معطفاً من الفرو فدفن وجهه في معطفها في حين كانت تطوق جسمه بذراعيها كالام الحنون

استطاع جان على ضوء المصباح البعيد أن يرى صورة وجهها الممتقع

فبدت فى هذا الضوء الضئيل مثل صنم معبود ينظر اليه جان لا حد له بحيث خفت وطأة العبء الثقيل الذى كان يشعر به

أخبرها جان عن ارث افرسفيلد وزواجه بدورا والسنوات الثلاث المروعة التي تلت ذلك ثم وصف لها بايجاز فراره واعتقادهم وفاته وغيرها التى اوصلته جزيرة قبرص ثم قال

ـ لما عدت الى انجلترا كانت فى نيتى الطلاق لكي أستطيع الزواج بك فقد أحببتك بالروح والجسم وخيل الى أن الحياة بدونك مستحيلة

ثم أخبرها بالضحاك وبمقابلته لدورا فى الغابة وكيف أنه قرأ خبر قتلها في اليوم في الصحف وصرح قائلا

ـ اقسم لك بالله أنه لا يد له في قتلها ولكن من يصدقنى ؟ انى كنت آخر شخص قابلها والغرض الذى ينسبونه الى ظاهر جلى

ثم استطرد فى حديثه فوصف لها كيف فر الى مصر وكيف أنه لما وجد الجريمة ملتصقة بغيره شعر بنفسه حراً ليطلب اليها الزواج به ـ ثم جاءت الانباء المروعة الخاصة ببحث البوليس عنه وكيف كادت مخاوفه تسحقه عند ما وقع نظره على مستر دارلنج فى الفندق

ثم ختم حديثه بقوله

ـ انك تعرفين ما جرى بعد ذلك . وقد هرعت الى هذا المكان مدفوعا بالخوف والغضب ولكن ذهب عني كل شيء وأنا على استعداد حتى يدى ، انها لا تضطرب . انى هادىء الآن تماما . انهم لا يستطيعون اخذى الى الخفر يا مونغيه ولن يجعلوا قصتنا فضيحة لانى سأقتل نفسي بعد قليل ..

فصرخت مونغيه صرخة مكتومة من الالم وقالت

جان . جان ماذا تقول ؟ سندافع عن قضيتنا سنوكل أحسن المحامين للدفاع عنك في انجلترا وسيدركون أنك بريء . لا تنس أنني احمل لك ولداً في بطني

فسألها قائلا

ـ هل تعتقدين أني بريء ؟

فصاحت قائلة

ـ نعم . نعم . انني مؤمنة بكل كلمة فهت بها يا جان ان غريزتي لا تخونني قط وقد علمت علم اليقين أن ما اخبرتني به هو الحق

شعر جان عند قولها هذا بعزاء عظيم ومع ذلك لم يستطع أن يدرك في الحال مغزاه الكبير فقال

ـ ان القضاة لا يصدقونني . كان في عزمي أن اموت بوسيلة تحمل الناس على الاعتقاد بأني مت قضاء وقدراً ولكن الامور تعقدت بسرعة . لقد ضاع رشدي فاذا لم اضع للامر حداً هنا والآن فان العار يلحق بك وبطفلنا الذي لم يولد بعد واذا قبضوا علي فانهم سيشددون المراقبة فلا أجد فرصة اخرى لكي اموت فيها شريفاً فتعيشين شريفة أنت وطفلك

فتمتمت قائلة

ـ لا تتكلم عن الموت يا حبيبي . اذا كنت ستقضي نحبك فهل تظن أني استطيع العيش بدونك ؟ ان على أن اربي ولدنا وأسهر عليه حتى يستطيع القيام بحاجته فهل تظن أن حياتي تطول بعدك اذا فعلت ذلك ؟ اذا مت يا جان فان صرح حياتي ينهدم بحيث لا تستطيع قوة الامومة ان تبقى الحياة في جسمي . لو لم يكن لنا ولد كان الامر غير

ذلك ولذهبنا اليوم الى وادي الظلال جنباً الى جنب ويداً بيد ولسرنا في طريقنا الى مدينة الله اذا أمكن الوصول اليها . ولكن أما والحالة هذه فانني لا أستطيع أن آتي معك ولا تستطيع أنت أن تغادرني وحيدة ما دمت ولا تزال هناك فرصة للافلات من الموت

فقال جان

— مونميه ، اصغي الي . ليس هناك أمل ، انك تطلبين الي الخضوع للسجن وهو شيء لا يخطر ببال رجل رحالة مثلي . انك تطلبين الي الخضوع لمحاكمة سيجرفيها اسمك ويلحق العار بك كما يلحق بي وسيطلق عليك اسم « المرأة التي هي أصل البلاء » وسيذكرون غرامي بك انه الدافع لي على ارتكاب الجريمة وتصير قصة حبنا مشوهة بل عاراً عليك وعلى ولدنا مدى الحياة . اما اذا قضيت على حياتي الان فان نصف القصة يظل مكتوما فلا يذكر عنا في المحكمة ولم تمض مدة وجيزة حتى ينسى كل شيء

فضحكت مونميه وقالت

— هل يخطر ببالك اني انبذ الفرصة مهما كانت بعيدة مقابل العار والفضيحة ؟ هل تظن انني اكترث بما يقولون ضدي في المحكمة اذ كان هناك اقل امل ببراءتك ؟ سأدافع عن حياتك ياعزيزي وعن اسمك الذي هو اسمي واسم ولدنا أيضاً الى آخر رمق من حياتي والى آخر درهم مما امتلك . اعلم أن الفوز سيكون نصيبنا لانك بريء والحق لا يمكن أن يختفي

وكان جان لا يزال يرتاب في قولها فقال

— هل تصدقين فعلا ما قلته وهو اني بريء من دمها ؟

فنظرت اليه فرأى على وجهها ما ازال ارتيابه ثم قالت

ـ اذا فرض وكنت مذنباً فاعلم يا عزيزى ان هذا لا يمسى باي حال من الاحوال

ثم اطرقت قليلا واستطردت فى حديثها فقالت

— لا شيء يستطيع ان يغير الحب ? ألم يدرك الرجل هذه الحقيقة الى الآن ؟

فاجابها قائلا

— كلا . ان المرأة والله هما اللذان يشعران بهذا النوع من الحب والظاهر انه ادرك فجأة مبلغ جلال عطفها وحبها له ورأي أن حبهما في هذه الساعة الرهيبة ، ساعة التجربة قد خرج فائزاً ظافراً وشعر بان سنى الشقاء والتعاسة قد محاها ظهور حب مونغيه على هذه الصورة الجلية الواضحة وأحس في الحال برغبته في الحياة معها وفي الواقع لم يلبث أن قال

— مونغيه . ان هذه أعظم ساعة شهدتها في حياتى فمهما عانيت وتكبدت من الآلام فانى ساحتمله عالما انى وقفت على سر طالما حير العقول والافهام . سأحتمل المحاكمة والله وسأناضل دفاعا عن حياتى ولو أن الفرصة ضعيفة . لم يخطر ببالى أن مثل هذا الحب موجود

فضحكت مونغيه لكى تشجعه وقالت

— انك تجهل ذلك لان الرجال كما قلت لك لا يكلفون انفسهم مشقة درس اطوار المرأة

رفع جان عينيه اليها فى نور المصباح الضئيل فخيل اليه ان المعبد قد امتلأ بها كما لو كانت امرأة عاشت منذ العصور الاولى وشعر كأنما

جاءته المساعدة من كل جانب وناحية لمواساته وتضميد جراحه والوقوف الى جانبه في محنته والصفح عن زلاته . ووجد فيها الرفيق والزوجة والام التي تسهر دائما على سعادته وهنائه

نعم رأى جان في حياته مظهراً كاذبا من النساء مثل دورا وكان من سوء حظه أن عاشر احداهن ولكنه نسى آلامه الاولى بما تدفق عليه الان من العطف الذي ضمه مثل جناحى « حاتحور »

أخيراً وقف جان على قدميه أمامها ونظر الى وجهها بحنان ثم قال

– تعالي . ان هواء الليل شديد البرودة . يجب ان تعودى الى الفندق ولا بد لي ان اذهب مع هؤلاء الجنود

وكان يتكلم بلهجة تنم على الابتهاج وهو مرفوع الرأس

خرج جان وموعيه من المعبد ويد احدهما في يد الاخر ثم وقفا في فناء الهيكل في ضوء المصباح

قال القنصل

– حسن . هل فرغتما !

فاجابه جان بهدوء قائلا

– نعم . انى على استعداد الان

ثم اخرج مسدسه وناوله للشرطي فخاطب القنصل ضابط البوليس قائلا

اعطني القيود

فمد جان يده وقد حول وجهه وعينيه نحو موعيه فرأى على ثغرها ابتسامة حاتحور وازيس – ابتسامة الرزانة والثقة والحزم والحكمة

الفصل الثاني والعشرون

ظل الموت

قضى جان ليلته في مركز البوليس في غرفة خالية الا من سرير . وبعد وصوله بقليل جاؤا له من الفندق بمعطفه وقيثارته وحقيبة بها بعض الثياب وبداخلها ورقة صغيرة كتبت موغيه عليها هذه الكلمة :

« تشجع سأسافر معك الي انجلترا أيها الحبيب »

وكان جان يشعر بتعب شديد بسبب المجهود الذي بذله طول النهار فلم يلبث ان غلب عليه النعاس فنام ولم يستيقظ الا قبل الفجر اذ دخل عليه الشرطي واخبره أن يتأهب للسفر الي القاهرة في قطار الفجر ثم قدم اليه فنجاناً من القهوة وشيئاً من الخبز والجبن ولكن لم يكن له ميل الي الاكل فوضعها في جيبه

بعد مضى نصف ساعة شديدة البرد دخل عليه القنصل فحياه تحية الصباح بفتور ثم قال

ـ تلقيت اوامر بمرافقتك الي القاهرة بنفسي

ـ هذا من حسن حظي

فاه جان بهذه الكلمات بلهجة الاستخفاف والسخرية فثار غضب القنصل وقال

اعلم ان كل شيء تقوله قد يستخدم ضدك

فقال جان باللهجة عينها

ـ هذا مما يجعل رحلتي سعيدة

وكان جان يشعر بعد أن عرفت مونغيه الحقيقة ووثقت به واحيته بابتهاج كان يستطيع معه أن يلقى شبح الموت بدون خوف أو وجل على أن ابتهاجه هذا لم يلبث أن ذهب عند ما علم ان مونغيه تجهل سفره هذا الفجائي وان ليس لولاة الامور علاقة بها أو بحركاتها

قال القنصل

ـ ستنال جزاء ما جنته يداك

فصاح جان في وجهه قائلا

ـ صه . اخرج كراستك من جيبك واكتب اني اصرح بأني برىء وأن رجال البوليس جهلاء

شغل جان والقنصل مكاناً خاصاً في القطار الذى أقلهما الى القاهرة ولم يكن لديه شيء غير التدخين أو أن يغمض عينيه ويسند رأسه الى المقعد . وقد انتهت الاربع عشرة ساعة على هذه الحال دون أن يتسرب الى قلبه اليأس الى ان وصل الى القاهرة فقضى الليل في القنصلية ، وفي اليوم التالى أرسل المحافظة مكبلا بالحديد حيث ركب القطار المسافر الى بور سعيد بحراسة جاويش اسكتلندي كان في خدمة البوليس المصرى وفى صباح اليوم التالى نقله الجاويش بمساعدة رجال البوليس في بور سعيد الى الباخرة التي ستقله الى انجلترا

وضع جان في عنبر داخل الباخرة حيث قضى بها اثني عشر يوما لم يجد في خلالهـا شيئاً من أنواع التسلية غير زيارة القبطان من وقت الى آخر وقراءة بعض القصص والضرب على قيثارته التى سمح له ولاة الامور فى القاهرة أن يأخذها معه

زاد حزن جان لعجزه عن الحصول على أية معلومات عن مونغيه

ولكنه قال فى نفسه أنها ستعرف أين هو لانها قالت ستتبعه الى انجلترا وعلى كل حال لا تحتاج الى نقود لسفرها أو لسد نفقات القضية لانه صار الان بلا ريب صاحب مزرعة افرسفيلد وعاد اليه اسم اسرته

وكان جان في خلال هـذه الايام يفكر ساعات طويلة فى مستقبل حياته فرأى انه لم يفعل شيئاً لبنى جنسه وانه حمل احلامه التى حبسها فى رأسه ولم يكتب عنها شيئاً الا نظما

لقد بدد جان المواهب التي أعطاه اياها الله وأضاع حياته عبثاً فلما وقع الان في هذه الورطة لم يجد من يتقدم ليقول كلمة دفاعاً عنه . وعلى ذلك سيعده الراى العـام مذنباً وسيضطر للدفاع عن نفسه فى وجه حرمانه من العطف الانسانى

وكذا مونميه فقد سارت فى الخطة التى رسمتهـا لنفسها ولم تراع قانوناً ولا قاعـدة واتبعت معه قوانين الطبيعة ولم تحترم ذلك القانون الذى يفرض علي الانسان أن يكيف حياته طبقاً لشروط الهيئة الاجتماعية المتمدنة وعلى ذلك سيذهبان وولدهما ضحية خطتهما هذه ويحتملان ما لا يطاق من الآلام

كان للويلات والمتاعب التى أحاطت به تأثير حسن في أخلاقه ونبهته الى نقائصه . فقد كانت حياته قبل أن يرث مزوعة افرسفيلد حياة غامضة مملوءة بالاحلام . وفي أفرسفيلد انطفأ مصباح حياته وانطبعت نفسه بطابع الخمول والكسل . ولكن منذ أحب مونميه خرج عن هـذا الخمول ونفض عنه الكسل ثم وجد نفسه كما يقولون في المدة القصيرة التي قضاها بعد ذلك في الحياة المملوءة نشاطاً وعملا بالنسبة الى حياته الاولى

وبينا كانت الباخرة تسير في نهر التاميز وتقترب من مرساها في تلبوري شعر بانه وقع في مخالب ذلك الشيخ المروع القاسي الذي طالما حاربه واتحداه وخيل اليه أنه سيبتلعه أو يعود فيخرجه ثانية دون أن يمسه أذى وعلى كل حال احس انه لا يستطيع مقاومته أو الافلات من مخالبه وقد قضى جان اوقاتا طوالا وهو داخل عنبره في السفينة وهو يهاب هذه النهاية . على أنه شعر بعد أن رأى منينه قد حانت برغبة في الدفاع عن حياته وحريته

وقد مرت به اوقات أيضا كان يلتجيء فيها بقلب متألم الى قيثارته فيجلس ساعات طويلة على طرف فراشه يوقع عليها الحانا محزنة مشجية. ولم يكن جان يعرف شيئاً عن وقع نغماته ولو كان يدري أن القبطان وكثيراً من البحارة كانوا يجتمعون خفية وراء الباب ليسمعوا غناءه لدهش للامر

قابل جان عند نزوله من الباخرة في « تلبوري » عدداً كبيراً من المصورين الذين صوروه وهو سائر بين رجلين من البوليس ثم نقل الى سيارة اقلته الى السجن حيث كان عليه أن ينتظر الاجراءات الرسمية في مكتب قاضي التحقيق

لم ينزل جان قبل هذه الساعة في غرف اعدت للسجن ولكنه وجد نفسه الان في سجن حقيقي أعد للقتلة والمجرمين فرأى القضبان الحديد والاقفال الغلاظ وطاقة عالية لا يستطيع الوصول اليها والحارس في الخارج

رقد جان بعد الظهر على فراشه منهوك القوي مضطرب الاعصاب على انه كان كلما غلب عليه النوم تمثلت له محكمته المقبلة وكانت الصورة

التي تتمثل له مروعة بحيث كان يناضل في الحال للعودة الى الشعور بما حوله

رأى جان في تصوراته قاعة المحكمة مزدحمة بالناس والعيون العديدة التي تراقبه وهو موقف في مكان الاتهام وخيل اليه أن القاضي هو ذاك الشيخ الغليظ المخيف الذي كان يعذل له الحياة الزوجية وهو في افرسفيلد فكان يراه وقد مد اليه اصبعه متوعداً بالانتقام والقصاص

أخذ دماغ جان المحموم أثناء أحلامه القصيرة يتمثل ورقة الاتهام التي كان يتلوها ذاك القاضي الرهيب ومن الغريب أنه كان يصغي الى هذه الاقوال والتهم وقصة حكايته كأنما يلقيه على مسامعه شخص حقيقي يسمعه ويراه

وفي الواقع خيل اليه أنه يسمعه يخاطبه قائلا

ـ أيها المخلوق الشرير ، الجبان ، السفاك ، دعني أسرد لك الاعمال التي أدت بك الى هذا الموقف . لما كنت صبياً صغيراً هجرت المركز الرفيع الذي وضعك فيه ابوك ولما لم تستطع أن تقوم بعمل شريف هربت الى أقطار بعيدة والتحقت بالسفلة والساقطين في العالم فسحقت بعملك هذا قلب والديك . وبعد تجولات عديدة وصلت الى مدينة الاسكندرية وهناك التقيت بامرأة أغريتها على حبك ولكنك لم تلبث أن هجرتها

فسمع جان نفسه يصيح قائلا

ـ هذا كذب وبهتان

استطرد الصوت في كلامه فقال

ـ ان الحقائق تتكلم عن نفسها . نعم هجرتها لانك ورثت أملاك

عمك فجرك حب الذهب الى العودة الى انكلترا . وهناك استخدمت مركزك لتخويف مستأجري أرضك وضربت أحدهم وأهنت القسيس والطبيب وصرت موضع ارتياب الفلاحين البسطاء . ولم تتخذ لك صديقاً غير رجل قذر لص يعيش من سرقة الصيد . ثم أغريت فتاة جميلة ساذجة حتى تزوجت بها ولما تم لك ذلك تسببت في سقوطها وأخيراً هجرتها كما هجرت التي التقيت بها فى الاسكندرية

فصاح جان قائلا

ـ كذب . كذب . كلا . لا أصغي اليك

ـ عدت الى حياتك القديمة السافلة فوقعت في معركة في ايطاليا كان يراد فيها اغتيالك ولكنك نجوت من الموت وتظاهرت بأنك فى عداد الاموات وتركت الذي اعتدي عليك يحاكم بتهمة القتل وبهذه الوسيلة زعمت أنك تفلت من قيود الزوجية ثم عدت الى المرأة الاولى وعلي شفتيك الاكاذيب وعرضت الزواج بها فوق زوجتك ولكنك خشيت أن يكشف سرك واحتجت الى نقود فعدت الى انكلترا والتقيت بالمرأة الحزينة على فقدك في الغابات وهناك تسببت في قتلها

فقال جان بصوت مبحوح وهو ينظر الى الوجوه المتطلعة اليه

ـ اني برىء . اني بريء من موتها على الاقل

استطرد الصوت فى حديثه قائلا

ـ هربت بعد ذلك الى عشيقتك وتزوجت بها والقيتها معك في ورطتك . ولما دهمك ضباط القانون ليقبضوا عليك تهددتهم بالقتل ولكنك لم تلبث أن هربت منهم كالجبان ولما كنت جباناً لا تستطيع الاقدام على تخليص نفسك بالانتحار سلمت نفسك صاغراً الى ان

ساقوك الى هنا لتلقى جزاء ما جنت يداك . قل أى عدو الانسانية والعضو الاشل فى الهيئة الاجتماعية ، هل لديك شيء يمنع من اصدار الحكم عليك بالاعدام ؟

ناضل جان مناضلة شديدة ليلقى عن نفسه هذا الكابوس فقام من نومه وأفاق من أحلامه وقد تدفق العرق من كل جزء من جسمه المضطرب ثم أخذ يضرب فراشه بقبضة يده ويصيح قائلا

— أى الهى ، ابعد هذه الاراجيف عني . هل لا بد لى أن أفقد حياتى وأذهب الى قبرى ملعونا لانى تحولت عن الحياة الكاذبة ووجدت من نفسي على ان أحيي حياة مستقلة ؟ هل لا بد أن تتحمل زوجتي وولدى كل هذه الآلام بسبب اغلاطي وحملانى نير وزرى ؟

مكث جان ساعة أو اكثر يروح ويغدو فى سجنه وهو يعانى ألما مبرحا . أخيراً فتح الباب ودخل عليه كاهن حياه باحترام وطلب اليه اية خدمة يقضيها فنظر جان اليه بعينين تكادان تقطران دما وأجابه قائلا

— نعم اريد ان تذهب وتصلى لاجلى

ولكن الزائر كان قد تعود مثل هذه الاجوبة التي يفوه بها من آلمتهم مرارة السجون فقال

— انني من الذين يعتقدون ببراءتك وأقول انني فخور بمقابلتك

فرفع جان شعره عن جبينه المبلل بالعرق ثم سأل القس قائلا

— هل قولك هذا مزاح ؟!

— كلا بالطبع . انني أعني ما أقول . ان العالم الذي يتكلم اللغة الانجليزية مدين لك

فنظر جان اليه دهشاً وتمتم قائلا

ـ لا افهم معنى ما تقول

ـ ألست أنت جيمس ايستون كاتب «اغانى البيداء»

ـ آه . هل تعني ذلك لقد زعمت انهم سينشرو الكتاب في الربيع

ـ هل تعنى يا سيدي انك لم تطلع على كتابك ؟

ـ لا أدرى شيئاً عنه

ـ ولكن جميع أهل البلاد يتكلمون عنه . لقد رحبت البلاد كلها بك أعظم شاعر فى هذا العصر . ان قصيدة «النيل» تكفى وحدها لتخليد اسمك . هل تعنى حقاً أن ما أقوله الان جديد في مسامعك ؟

ـ بلا ريب . انى لم أقرأ الصحف منذ اسابيع

ثم جلس في الحال على فراشه لانه شعر بأن رجليه لاتقويان على حمله

فرفع الكاهن يديه دهشاً وقال

ـ ولكن ألا تدرى أن القبض عليك أحدث ضجة لم يسبق لها مثيل فى السنين الاخيرة . لقد نشر كتابك أولا فاستقبل الشعب عملك بالارتياح وعدك محباً للانسانية وصديقاً للبؤساء وعبقري زمانك وبعد ذلك علم أن جيمس تندونج وست أو بعبارة أخرى جيمس ايستون متهم فى جريمة قتل . فقوبل هذا الخبر بالدهشة لدى الجميع ولم يصدق أحد انك مذنب

فقال جان بهدوء

ـ لست مذنباً يا أبت ولكن الادله على ادانتي قوية وقد كنت مع زوجتى في الغابة .

فاستطرد الكاهن في حديثه قائلا

ـ سيؤيدك الرأى العام . ان رجلا مثلك قام بعمل جليل كهذا سينال أعظم قسط من اهتمام العالم

فقال جان متلعثما

ولكني ... ولكني لم أعط شيئاً لقد كنت وحشاً محباً لذاتي ، سائراً في طريقي الخاص ، جاعلا عهودى نحو المجتمع الانسانى . لقد كنت أقول فى نفسي طرلل وحلقى فى الباخرة ان حياتي غنيمة وقد قال القاضى الآن ... اواه يا أبت لو تعلم ما ذا قال ! ... ولكن ليس هذا الا حلما على ان الحقيقة لا تزال باقية وهى انني عديم النفع والفائدة

فضحك الكاهن وقال

ـ عديم الفائدة . لما ذا ايها الرجل . ستكون محبوباً وستنال شكر الاجيال المقبلة ولا يشعر الانسان عادة بقيمته اذا كان ذا فائدة

جلس جان مدة طويلة بعد انصراف زائره حائراً مبهوتاً ، ولم يكن يعبأ بفوزه الحقيقى ولكنه شعر بارتياح عندما أدرك انه جدير بحب مواطنيه

نام جان تلك الليلة مدة قصيرة وكان في حالة سيئة تساوره الهواجس والاوهام . وكثيراً ما قام وأخذ يضرب باب سجنه بقبضة يده طالباً الخروج والهروب الى التلال والوديان

أخيراً طلع النهار ولكنه لم يخفف شيئاً من اضطراب افكاره الى أن جاء وقت الضحي فجلس يتوقع حدوث أمر جلل وهو معلق بين اليأس والرجاء وقد كان رأسه ينفجر

على أن الامور تغيرت فجأة ففتح باب سجنه ودخل الحارس فلم

رفع جان عينيه وغطى وجهه بيديه وهو يحاول عبثاً استجماع أفكاره

تقدم الحارس ووضع يده على منكبه وخاطبه برقة قائلا

ـ ان زوجتك في الخارج تريد مقابلتك يا سيدى . تعال معي

وثب جان واقفاً على قدميه وعيناه تلمعان وشعره يتدلى فوق جبينه فتقدمه الحارس الى ممر طويل يؤدى الى سلم صعده . وكانت غرفة الزائرين مفتوحة فلم تمض لحظة حتى كانت ذراعا زوجته المحبوبة حول عنقه في حين انسحب الحارس الى الدهليز خارج الغرفة

صاحت موغيه قائلة

ـ لا تخف أي حبيبي فقد وجدنا القاتل سيأتي الامر باطلاق سراحك في الحال وستغادر هذا المكان بعد ساعة على الاكثر . حبيبي جان . حبيبي جان

وكانت علامات الارتياب بادية على وجهه فأخبرته بما جرى بسرعة قائلة انها قدمت الى انكلترا بطريق أخرى مختصرة غير طريق البحر الطويلة فوصلت قبله بأربعة أيام أو خمسة وكانت مسز دارلنج برفقتها فسألها جان قائلا

ـ ماذا تعني ؟ أنها هي التي رمتني بهذه التهمة

فأجابته موغيه قائلة

ـ كان عملها هذا طبيعيا اذ لا تنس انها ام القتيلة . على اننا تحدثنا معاً طويلا طول الليل في فندق الاقصر وقبل مغادرتنا مصر واظن انها أدركت غلطتها . وقد زعمت مسز دارلنج بعد أن علمت براءة المرأة حنة انك انت الذي قتلت ابنتها فأقسمت ان تقتفي اثرك ولو الى اطراف العالم فجاءت الى مصر بموافقة البوليس الذي تلقى نبأ لم يتثبت من صحته

بأنك في « ابو سمبل »

فقاطعها جان قائلا

— دعينا من كل ذلك . اخبريني من اقترف الجريمة... اخبريني بالله لأنهم لا بد أن يكونوا قد قبضوا على المجرم

فاستطردت موغيه في حديثها قائلة

— اسمع الي . ولما وصلت الى انكلترا طلبت الى مسز دارلنج أن توافقني الى افرسفيلد وهناك قمت بالبحث والتحري . وقد كنت اخبرتني انك أرسلت صديقا لك يدعى « الضحاك » ليأتي لك بعنوان مسز دارلنج فذهبت أولا الى مكتب البريد فأكد لي المستر بارتن الساعي ان الضحاك قضى معه مدة وجيزة لا تتجاوز خمس دقائق بعد الظهر

فاكفهر وجه جان وتأوه قائلا

— هذا ما خشيته . انك مخطئة . تظنين ان الضحاك فعل ذلك

فأجابته بلهجة الفوز قائلة

— لا أظن شيئاً بل اؤكد انه اقترف الجريمة . لأنه اعترف بذلك

فأحدق جان النظر في وجه زوجته ثم صاح قائلا

— يا الهي

ثم حول وجهه وغاص في لجة عميقة من الافكار

لم يكن جان يعتقد بأن الضحاك له اية علاقة بالجريمة لان المهمة التي ذهب لقضائها الى القرية استغرقت المدة التي غابها ولانه لما قابله ثانية كان رابط الجأش لا يبدو على وجهه أي دليل على انه ارتكب جرما عظيما كهذا

اخيراً سألها جان قائلا

ـ هل قبض على الرجل المسكين ؟

فهزت مونغيه رأسها وقالت

ـ كلا . انه فى مستشفى اكسفورد وكانوا يتوقعون وفاته أمس بعد أن بذل مجهوداً عظيما فى الاعتراف لنا بجريمته أولا وبعدها لرجال البوليس ،

لم يستغرب جان هذا النبأ وذكر ان الضحاك كان مريضاً عند ما قابله في ذاك اليوم المشهور ثم تمتم قائلا

ـ مسكين أيها الصديق . لقد ارتكب هذه الجريمة لاجلي

امتلأت عينا مونغيه بالدموع ثم قالت

ـ ان غضبي منك يا جان لانك لم تدعني اعرف انك شاعر مجيد واخبرتني انك تكتب أبياتاً غير موزونة فلما قرأت كتاب أشعارك هذا امتلأت نفسي اعجاباً وفخراً وحباً . ألا تدرى انك كتبت أشياء ستحيي ذكرك ؟

ـ كلا وايم الحق . لقد زعمت انك تعدينها أقوالا فارغة لا معنى لها

لم يتأخر أمر وزير الداخلية باطلاق سراح جان طويلا فخرج من معتقله بعد الظهر وبعد قليل كان في الفندق الذى نزلت به زوجته حيث اغتسل واستبدل ثيابه ولما فرغ دخلت عليه مدر دارلنج وحيته قائلة

ـ جان ولدى . انى امرأة عجوز شريرة لاني جررت عليك مثل هذه المتاعب ولكنك لا تجهل وقع وفاة ابنتي في قلبي .

ثم مسحت دموعها بظاهر يدها النحيفة فقال جان

ـ نعم أدرك ذلك ولكن كان يجدر بك أن تعلمي اني لا أقدم

على مثل هذا العمل

فأجابته قائلة

ـ لقد رأيت ذلك الآن . وقد شرحت هذه الابنة العزيزة في أطوارك وصفاتك بحيث عرفت الان حقيقتك تماما وعلمت انك لا تدع أحداً يتعرض لحياتك كما انك لا تتعرض لحياة أحد وانك تعيش وتدع الاخرين يعيشون . حقاً ان الحياة تكون حينئذ مفعمة بالعراقيل والمشاكل اذا دبت فيها روح سوء التفاهم على النساء أن يدركن حقيقة أغراض الرجال ولكني ارتكبت غلطة عظيمة فأسألك المعذرة ياولدي

ثم القت نفسها على مقعد بجانبه وأخذت تبكي

لم يستطع جان البقاء طويلا لكي يزيل عنها حزنها لأنه كان قد صمم على انه يركب القطار السريع بعد الظهر الى اكسفورد ليرى صديقه الضحاك قبل أن ينتقل الى عالم الاموات ثم يعود بقطار المساء

وصل جان الى اكسفورد بعد غروب شمس الشتاء فركب عربة الى المستشفى وهناك قابل رئيسة الممرضات وبسط لها غايته فلبت طلبه بشيء من الارتياح قائلة

ـ مكث طول النهار يسأل عنك ويترسل الينا ان نخبره عن اطلاق سراحك والظاهر انه ممسك أذيال الحياة حتى يعلم انك في مأمن من كل شر وانه مخلوق معتوه مسكين في موته راحة له

ذهب جان الى غرفة صغيرة في الداخل حيث رأى ممرضة تميل فوق فراش الرجل المريض . واذ ذاك وقعت عينا جان على شعر صديقه الاحمر وعلى وجهه الذابل وعينيه المغمضتين ويديه النحيلتين وهما بجانبه فوق الفراش فظن لحظه انه جاء بعد فوات الفرصة

على ان رئيسة الممرضات اسرت فى اذن الممرضة فأشارت هذه الى جان لكي يقترب فتقدم وجلس بجانب الفراش ووضع يده على ذراع صديقه .

ساد السكون لحظة فى الغرفة ولكن فتح الضحاك عينيه الصغيرتين في النهاية فرأي جان فيهما علامة الارتياح والفرح

قال الرجل بصوت خافت

ـ اسألك الصفح والمغفرة لانه لم يخطر ببالي انهم سيقبضون عليك ولو عرفت ذلك لاخبرتهم في الحال . زعمت انك في سلام فى تلك البلاد البعيدة ولكن لما جاءت زوجتك أمس وقالت انهم قبضوا عليك رأيت ان اعترف بالحقيقة وأخلصك وقد فعلت

فضغط جان على يد صديقه وقال

ـ لماذا فعلت ذلك أيها الصديق ؟

ـ رأيت ان هذه هي الوسيلة الوحيدة . لما عدت الى الغابة سمعتك تتحدث معها فانصت فسمعتها تقول انها ستجعل اسمك ممقوتاً فى مسامع الناس ورأيت انك لا تستطيع التخلص منها . وبعد ذلك رأيتها تفر الى الغابة حيث كنت مختبئاً فعثرت ببعض الاغصان وسقطت على الارض مغمي عليها . وقد زعمت انها فارقت الحياة ولكني أردت أن أتحقق من ذلك فضربتها بحجر فلم تحرك ساكناً

ـ ولكن لماذا فعلت ذلك ؟

ـ لانك صديقي وهي عدوتك ، وقد ذكرت ذلك اليوم الذي رأيتك فيه تبكي فى الغابة وتريد التخلص ثانية

أغمض الضحاك عينيه ثم لزم السكون هنيهة الى أن نظر الى جان

وتحركت شفتاه وقال بصوت خافت

ـ ان الله غفور رحيم وهو يعلم لماذا اقترفت هذا الجرم ولكن حتى اذا أرسلني الى الجحيم الآن بعد أن رأيتك سعيداً . اخبرني يا سيدي علام عولت ؟

فأجابه جان قائلا

ـ سأسافر الى الخارج أيها الصديق حيث اعيش مع زوجتي في منزل على شاطيء البحر المتوسط وربما عدنا الى هنا ثانية بعد مضي أعوام .

فقال الضحاك

ـ اذا عدت الى ثانية فاذهب الى الغابة واستقر حسب عادتك مع زوجتي صغيرك فآتي اليك قائلا : ها صديقي العزيز يناديني لان الاصدقاء يتمسكون بالاصدقاء في السراء والضراء

ثم خانه صوته وبعد قليل اسلم الروح ولا تزال الابتسامة القديمة مرتسمة على ثغره

(تمت)

روايات الاهرام التي تم طبعها

(١) هاتور الهة الحب — أو — امنية الحياة

رواية تاريخية مصرية غرامية تتناول تاريخ مصر في عهد سيدنا موسي وخروج الاسرائيليين من مصر وما وقع في ذلك الوقت من الحوادث التاريخية الثابتة [illegible]

(٢) صاحب الملايين

رواية عصرية أخلاقية تصف اخلاق رجل سجن ظلما فخرج من سجنه شاهراً حربا عوانا على الانسانية كلها فلم يكبح جماحه [illegible]

(٣) كوكب الصباح — أو — فوز الحب الصادق

رواية مصرية أخلاقية قديمة عن فتح الجيوش المصرية للسودان وفي هذه القصة تتجلى صورة الاخلاص والتفاني في الحب وفوز [illegible] يثبت في النهاية —

(٤) ثريا — او شهيدة الوفاء

رواية أخلاقية مؤثرة تصف فشل السياسة الانكليزية في الترنسفال ؛ وقصة تري القاريء كيف تتغلب روابط الدم على عوامل الغرام —

(٥) اعترافات ارسين لوبين

رواية بوليسية بطلها ارسين لوبين المشهور بحوادثه المدهشة . وهي سلسلة صغيرة من قصص هذا الداهية الشيقة الغريبة — [illegible]

TO RENEW CALL
DATE DUE 292-3900

HIGHSMITH 45-220

MAIN STACKS

This book belongs to the
Silas Bronson Library
an agency of the
City of Waterbury
to maintain free library service.

This library was founded in 1869
through a bequest from
Silas Bronson.
It is administered by an elected
Board of Agents, and is supported
largely by city appropriations.

PR6045
E436B42157
1930z